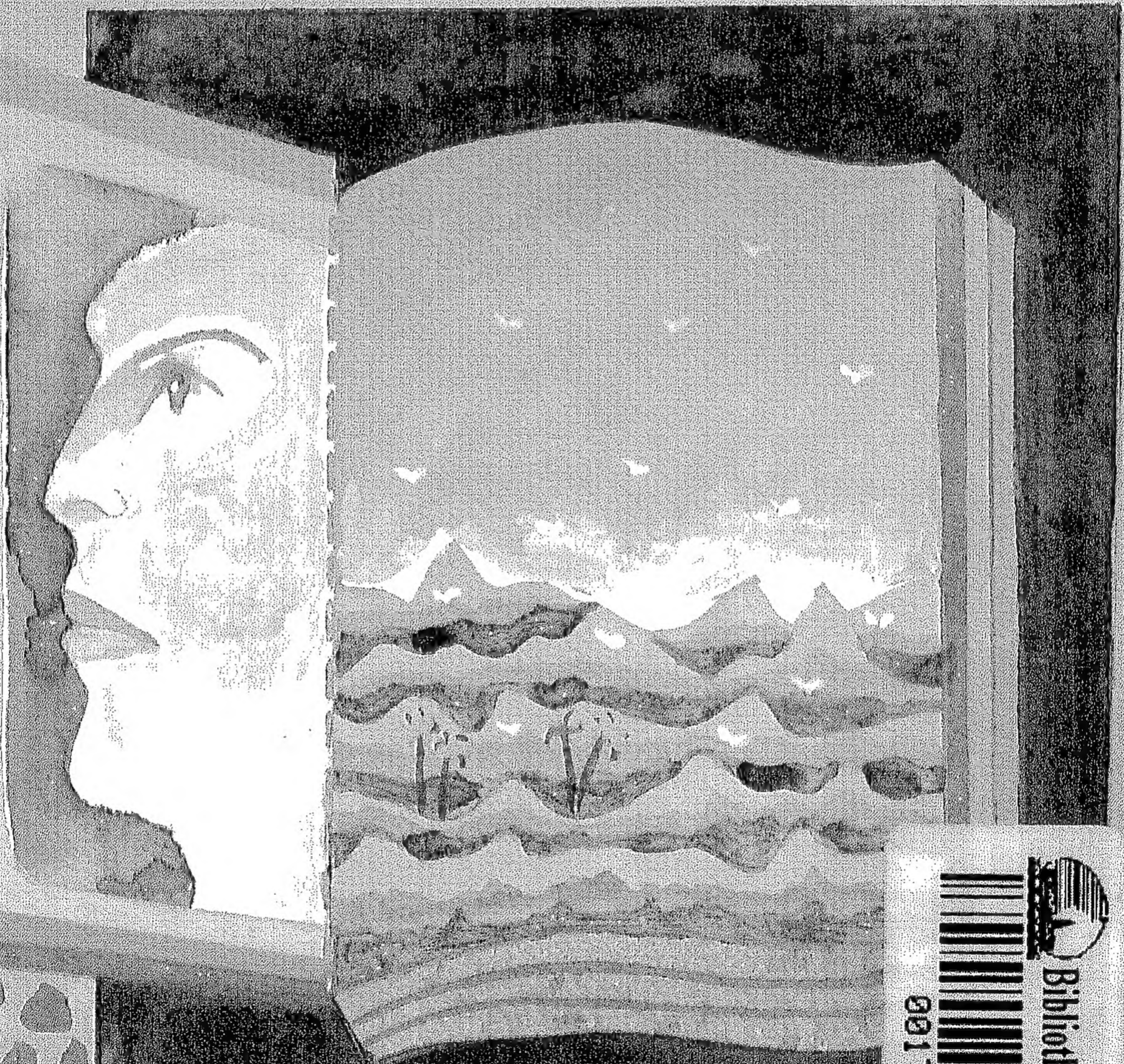


مذكرات دبلوماسي

في اليمن

ج. انكارين



د. قائد محمد طربوش
محمد اسماعيل سليمان



مكتبة
البحر

جـ . انكارين

مذكرات دبلوماسي في اليمن

ترجمة : د. قائد محمد طربوش
محمد اسماعيل سليمان

مكتبة مدبولي

الطبعة الأولى ١٩٩٣

الناشر
مكتبة مدبولي
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة

الإهداء

إلى المهندس منصور على بن عبد الله الذي غاب
قبل الأوان ..

قائد

تصدير

هذا المؤلف الذى تقدمه للقراء الكرام يصدر فى الاتحاد السوفيتى السابق عن اليمن . كتبه ج . استاخوف باسم مستعار « انكارين » .

وكان استاخوف رئيس الجانب السوفيتى فى المحادثات اليمنية السوفيتية بصنعاء ، التى تكللت بتوقيع اتفاقية صنعاء بين اليمن والاتحاد السوفيتى فى أول نوفمبر عام ١٩٢٨ ، وكانت أول اتفاقية بين دولة عربية وبين الاتحاد السوفيتى تم بموجبها التبادل الدبلوماسى بينهما (١) .

لهذا الكتاب أهمية تكمن فى أن مؤلفه كان شاهد عيان للأحداث الساخنة التى حدثت فى صنعاء فى صيف وخريف ذلك العام .. المتمثل بالتهديد الانجليزى للجزء المستقل عن اليمن من أجل أن يتخلى عن بعض المناطق المحاذية لمستعمرته عدن وسلطنه ، لحج آنذاك من جهة ، واحتدام الصراع بين الدول الأوربية على شبه جزيرة العرب عموماً ، واليمن على وجه الخصوص من جهة ثانية .

يشير المؤلف إلى محاولة الحكومة والجزء المستقل من اليمن استعادة الأراضى المخطلة آنذاك وبداية المشاكل اليمنية - السعودية حول عسير وانتفاضة الزرانيق وتداخل العلاقات اليمنية الإيطالية والانجليزية اليمنية . لقد وصف هذا الديليزكى انطباعاته عن اليمن وحكى عن لقاءاته بالمسؤولين اليمنيين ومشاهداته لأحوال الناس وتوقعاته للأوضاع آنذاك منها تلك التى ثبت صحتها ومنها التى لم تثبت . ورغم أن المؤلف قد أشاد بالامام يحيى لكنه قد تطرق إلى العزلة التى فرضها على الجزء المستقل من اليمن وتمركز السلطات كلها بيد الامام نفسه .

لقد كتب المؤلف كتابه هذا وأصدره فى وقت كان فيه كثير من اليمنيين والعرب والأجانب يعتقدون الآمال على أن يقوم الامام يحيى بالإصلاح فى المجالات المختلفة، غير أن الامام يحيى قد خيب آمال الجميع فى ذلك لقد كتب هذه المؤلف فى وقت لم تكن فيه قد تكونت حركة المعارضة

(١) والاتفاقية التى وقعت بين اليمن والاتحاد السوفيتى فى أول نوفمبر ١٩٢٨ .. اعترف الاتحاد السوفيتى بموجبها باستقلال اليمن .. والتزم الطرفان الساميان بتبادل البضائع التجارية . وعلى أساس هذه الاتفاقية فتحت ممثلتان تجاريتان للاتحاد السوفيتى فى صنعاء والحديدة

وكانت هذه الاتفاقية أول إتفاقية تعقدها حكومة الاتحاد السوفيتى مع دولة عربية ، وإن كان قد سبق أن كان للاتحاد السوفيتى قنصلية فى جدة منذ عام ١٩٢٤ غير أن تلك القنصلية قد قامت على أساس تبادل المذكرات ذات الاعتراف المتبادل بين حكومتى الاتحاد السوفيتى ونجد والحجاز دون التوقيع على إقامة علاقات دبلوماسية بينهما

المحتويات

- الباب الأول - هرج ما قبل الرحيل - أوديسا - اسطنبول في المنظار . ٩
- الباب الثاني : - على أمواج بحر إيجه والبحر الأبيض المتوسط - رجال التفتيش - بورسعيد . ١٩
- الباب الثالث : - الاختناق في البحر الأحمر - الشعب - الحيتان - البوابة إلى مكة - الضاربة بالحج - وهابيونجد في النضال ضد الامبريالية . ٢٩
- الباب الرابع - من « نيته » إلى « توبولسك » أول سنوات اليمن - على رصيف الحديدة - هاهي اليمن . ٣٩
- الباب الخامس : بجمع على حاجز الأمواج - الزخرفة العربية والجمارك - سيف الإسلام والبلاشفة الوافدون - الجاسوس المفضوح - رحلة سعيدة « توبولسك » . ٤٩
- الباب السادس : - في الأزقة الخائقة بالحديدة - السوق - الهند - السفن القديمة - الصناعة - رأس المال الأجنبي . ٥٩
- الباب السابع : ليلة ضائعة في تهامة - على سيارة إلى باجل - القنران الطائرة - الرهينة - جيکوب . ٦٩
- الباب الثامن : - نحو الاقطاعية - بقايا الأحباش - قوقاز في « العربية » - البغال والخيول . ٨٣
- الباب التاسع : - جبال شبه جزيرة العرب - البن - المدرجات - الحصون - المشائخ الاقطاعيون - مناخة - القات - الجواسيس . ٩٥
- الباب العاشر : - من مضيق إلى مضيق - محقق التركي الشاكي و« شخص » في الحديدة - الجراد والاعلام الحمراء - المنجم - نتائج الرحلة . ١٠٩
- الباب الحادي عشر . - « الامام مستاء » - في عهد الأتراك أم الآن ؟ - الطبقات ١٢١

المعارضة اليمنية لنظام حكم الامام يحيى من جهة . كما أن الكاتب قد وضع تحت تأثير المفهوم القائل بأن إستقلال شعوب الشرق أحد مقومات انهيار النظام الرأسمالى العالمى من جهة ثانية . الأمر الذى جعله يشيد بالإمام يحيى أحياناً بصفته قائد الاستقلال .

وعلاوة على ما تقدم فإن الكتاب موجه إلى القارئ السوفييتى فى تلك الفترة من الزمن بما يوافق الوجه السائد فى الكتابة آنذاك . وكان شأن هذا الكتاب شأن الكتب التى يؤلفها كتابها لقرائهم فى بلدانهم بالدرجة الأولى وهى الأغلبية الساحقة من المؤلفات التى يكتبها الرحالة والدبلوماسيون والمستشرقون عن البلدان الأجنبية .

ومن هذا المنطلق كتب هذا الكتاب للقارئ السوفييتى فى بداية الثلاثينات حتى هذا القرن بما يوافق توجه الكاتب السياسى والاتجاه الأيدلوجى لكاتبه ، الأمر الذى جعله يسترسل فى الحديث بروح رومانسية وأحلام مفرطة أحياناً . زد على ذلك أن المؤلف عاش لفترة قصيرة فى اليمن وسط ضيق من المسؤولين الحكوميين كما أستسقى معلوماته من مشاهدته فى رحلته من الحديدة إلى صنعاء والعكس ، وحتى مترجميه الذين رافقوه فى مهمته الدبلوماسية ، لذا فإنه قد كان يجانبه الصواب فى تقييمه لبعض الأحداث لم نشأ أن نعلق عليها ليسر معرفتها من قبل القارئ الفطن ، وكان جهل الكثير من الرحالة والدبلوماسيين الأجانب بما فيهم مؤلف هذا الكتاب بجوهر الدين الإسلامى الحنيف قد جعله يخلط بين بعض الممارسات التى لا تنتمى إلى الدين فى اليمن وبين الدين الإسلامى نفسه . لقد كان هذا الخلط تقليد دأب عليه قصيرو النظر آنذاك . أثبتت الحياة خطر هذه الأفكار وسطحياتها .

بيد أن بعض النواقص الموجودة فى الكتاب لا تقلل من أهمية واستفادة الباحثين المتخصصين بالتاريخ اليمنى المعاصر منه وتحليل ما أورده من آراء وأنطباعات عن الأحداث وشخصيات ذلك الزمن .

لقد ترجمنا هذا الكتاب بعد أكثر من نصف قرن من صدوره باللغة الروسية . وفى وقت كانت اليمن مجزأة إلى جمهوريتين . واليوم وبعد أن تحققت الوحدة اليمنية أغلى أحلام الشعب اليمنى فإننا نأمل أن يكون هذا الكتاب إضافة جديدة إلى الكتب المترجمة عن اليمن خاصة وشبه جزيرة العرب عامة .

وفى الأخير لابد من الإشارة إلى أننا ترجمنا هذا الكتاب بتصرف وحذفنا منه فقرتين من صفحتى ٢٠ ، ٢١ وعدلنا بعض الجمل دون أن يكون ذلك على حساب جوهر معانيها فى صفحات أخرى ، لأنها فى نظرنا لا تليق بالنشر باللغة العربية .

والله ولى التوفيق .. قائد محمد طربوش .. ٢٩ / ٤ / ١٩٩٢ ..

الاجتماعية فى اليمن - وادى صنعاء والخيمة البيضاء بصنعاء -
النسور فى القاذورات .

الباب الثانى عشر : الانطباعات الأولى عن صنعاء - شقشقة الآبار - « ابن
الامام » - القاضى راغب - الدعاية الإيطالية - بانتظار
الغارات الانكليزية - الاستقبال الرسمى للإمام .

الباب الثالث عشر : - جهاز الدولة اليمنى - القضاة ، المشائخ ، الديوان -
الأجهزة الإدارية والإرشادية : - الامام - الوزير الأول -
سيوف الاسلام - الزرائق المتمردة - محنفيو اليمن .

الباب الرابع عشر : - فى أيام الغارات الانكليزية - العملاء - اضرب وأهرب -
ثلاث صيغ .

الباب الخامس عشر : - محاولة فاشلة للاستفزاز الدبلوماسى - الإمام يستغيث
- النذور والرشاوات - انهيار الحسابات الانكليزية
والصفعة الأمريكية .

الباب السادس عشر : الأيام الأخيرة بصنعاء - أحجار على الطحلب ونساء
حجرية - اليهود - رحلة خطيرة .

الباب السابع عشر : سمفونية العاصمة « الأبدية » - وتأثر العوالم الأخرى -
طريق العودة - وحي صحيفة الحائط - رائحة الوطن « فى
اسطنبول - الفنار الأوديسى .

الباب الأول

* إلى اليمن

* هرج ما قبل الرحيل

* اوديسا

* اسطنبول من المنظار

إلى اليمن

العاصفة تهب ، كلنا مأخوذين بسورتها ، تقذف بنا ، الى اينما شاء البصر . تعودنا على هذا ، وعجيب حين يخرج المرء من هذه الموجة محافظا على تماسكه النفسى بغير ادراك ، ان يقع فى بيئة غريبة ، وبعيدا من حيث طبيعة المسافة ، وان يجلس فى آلة الزمن ، فى قطار ، باخرة ، زورق شراعى ، او يركب بغلا ، سيارة او طائرة ، ويبتعد آلاف الكيلومترات الى الامام ، ويرجع مئات القرون الى الخلف ، وينظر الى كل ما عاشه وتعود عليه وكأنه ينظر من خلال منظار زجاجى فى الميدان .

لقد حدث كل شئ من غير توقع وبسرعة ، وكانت أمسية ما فى النادي . اجتماع ، وأحاديث فى العنبر . ويقال لك فجأة : " أنت ذاهب الى اليمن " ، ويكون الايضاح قصيرا ، وكل ما تعرفه ان ذلك سيتم قريبا ، يومان للاستعداد ، ويومان لجلبة ما قبل الرحيل ... وتبتعد كل الأمور الخاصة وغير الخاصة ، حيث لا ينبغى التفكير فيها .

كان محدثى الاول ، الذى اخبرته عن مجرى الامور مرتابا . " اليمن ، اى معنى يمتلك ذلك " قال مدمما . انا اعرف - انه ليس وحده مرتابا فقط ، وانما هناك آخرون كثيرون . " اليمن - قبائل متوحشة ... ربما مستعمرة لأحد ما ، يقول آخرون . المرتابون كثيرون أعرف أنهم كثيرون ، أعرف أنه ليس فى قضية اليمن فقط ، بل وحتى فى القضايا الإسلامية والحاسمة فى حياة وطننا وخط حزبنا ، وحين رحلت الى اليمن لم يكن مفهوم اليمن الانتهازى واضحا كما هو الآن ، لكن هذه الانتهازية قد بدأت تعبر عن نفسها فى قضية وحيدة حتى فى قضية الرحلة الى اليمن .

- اليمن ... أى معنى يمتلك ذلك ... اخرج الى الشارع ، لبست موسكو قبل عيد اول مايو حلة بهيجة من الأضواء الكهربائية . وبدأت أشعر كيف تبتعد قليلا قليلا ، وفى البعد ترتسم أشكال مجهولة وغامضة عن بلدان جديدة .

تلف الحشود بالاعلام واللافتات ، والصفوف المنتظمة فى الأزقة ، تدور فى مكانها لكى تجد نفسها بعد بضع ساعات هن التجول فى نقطة الانطلاق كي تندمج فى صفوف جديدة وتقترب مع الجانب الآخر .

اتحدث مع رفيق يعرف التيب . ماذا هناك ؟

- بلد جبلى ، وحشة وقسوة . بقايا نظام الأقومة ، والرهبان هم الطبقة السائدة ، ومالكو الأراضي ، والتجار والمحاريون فى نفس الوقت ، والانجليز عدوهم الخارجى الآن .

أخمن ، يعنى ، مرحلة ما فى غياهب العصور الوسطى . بلد تجمد فى المرحلة الاقطاعية ، محروم من أي امكانية للتطور بحكم سوء أوضاعها الداخلية والضغط الخارجى .

وهناك فى اليمن ! يبدو كأنه يشبه ذلك ! الملك هو الامام البابا الإسلامى بالمقياس المحلى - اضطهد الترك اليمن سابقاً (واضطهد الصينيون التبت) والآن الضغط الانجليزى - والحقيقة إنه لا يوجد فى البلدان المسلمة لا رهبان ولا كنائس ، إنما النضال ضد الامبريالية ممثلة ببريطانيا هنا (فى التبت) وهناك فى اليمن - نضال أيضاً . كما سنرى .

لماذا يبدو وجهها موسلينى وتشمبرلان عابسين ، وقد ملأت فزاعتها الضخمة ؟ . ولماذا يبعث على الغثيان سماع الأحاديث التى تبت من الراديو ومن سيارات النقل الدمائية المارة ؟ .

هل لأن الكلمات ليست كافية ، ولما لا يصنع صباغ اللوحات ، التى يمكن أن تعكس عظمة عصرنا ولو بفدر ضئيل ، عظمة تلك الظاهرة التى يعبر عنها بكلمة واحدة « الثورة » .

الا أنه ، حين تكون موجودا هنا فى داخلها وتشكل جزءاً لا يتجزأ منها لن تشعر ولن تفهم هذه العظمة بكل كمالها ، وعندما تكون طائراً فى منطاد غالباً ما تشعر بالغثيان ، أو ترى غبار الحجرة ، تنسى أثناء الطيران أحياناً أننا نحن والمنطاد فى الفضاء الواسع النقى ونطير فى الفضاء المزوق بثبات . ومن المفيد أحياناً أن تبتعد مؤقتاً ، وتنظر لما حوك من بعيد لكى تشعر بالقوة كلها وتحيط بشمولية ، وجبروت وعظمة وطنك وحكمك .

... نمر فى الساحة الحمراء ... يبت مكبر الصوت التحية من المنصة .

اتحدث مع الرفيق المسؤول عن سفرى ، مستوضحاً بعض الإجراءات العملية التى يجب إجرائها قبل السفر ، أين أذهب ، ومع من أتحدث ، وما هى القضايا الأكثر أهمية التى يجب استيضاحها وفجأة ومن غير توقع يضيف محدثى بسخرية

- على كل جميع هذه الأشياء الثقافية ، الشئ الرئيسى ، أن تراحم وتراحم وتراحم (كان يقصد إجراء آلاف الشكليات البيروقراطية الصغيرة المتعلقة بالسفر) - هذا أصعب شئ ، لأنه بدون ذلك سيكون الرحيل مستحيلاً ، مهما كانت أهمية هذه الرحلة .

وقد زاحمت . وخلال يومين أو ثلاثة أيام مررت على كل ما يخطر على البال من أقسام وفروع الأقسام ومكاتب وإدارات ... الخ ... الخ . وفى اليوم الأخير فقط وعلى عجل ، وبغير

انتظام تبادلت الآراء مع البعض حول بعض الأشياء - هذا ليس مهماً ، وهل يستحق الآن أن يتذكر المرء صفائر العيوب النواقص هذه بعد مرور بعض السنوات ، سأقول فقط ، انى لم أتمكن من بحث كثير من القضايا الهامة ، كان كل ذلك محجوب بركام من المشاغل الأكثر أهمية ، التأشيرة ، التذكرة ، الجواز ، التقارير ، الأوراق - ويحر بكامله من القضايا التى يفرق بها ، والشئ المهم الذى كان لابد من البدء به .

لكن « الأمور الجيدة ، تكون نهايتها جيدة » كما يقول المثل ، وان لم يكن صائباً كلياً ، ولا يخل به بعض التعديل وإعادة النظر .

هريج ها قبل الرحيل

يوم الرحيل : يكون نصيب الأسد من الأعمال فى هذا اليوم ، دائماً ، ننهى آخر الأعمال حتى قبل الركوب ، تمر على آخر مؤسسة فنصل إلى المحطة قبل خمس دقائق من تحرك القطار .

أوديسا الأم ... تستقبل بالمفاجآت دائماً ، وما أن وصل قطارنا إليها ، حتى أشعرنا بأن باخرتنا لم يبدأ بشحنها بعد وإنها ستتحرك بعد بضعة أيام فقط ، ولهذا نستطيع الراحة والتمتع بمناظر أوديسا .

لكن لا رغبة فى التمتع ، تجول الأفكار بعيداً ، تبدو أوديسا محطة مؤقتة ليس إلا ، اضطررنا ببدء التوقف فيها من غير توقع ، وهنا كانت بداية تعرفنا على شبه جزيرة العرب ، على كل حال . وكان أول من قابلنا بهرج من سكان أوديسا هم أبناءها قالو لا شئ فى ذهابنا إلى شبه جزيرة العرب > لأن أوديسا مليئة بالعرب ، زد على ذلك ، يجب التفكير بوجود مضاربين ومهرب واحد مقابل كل أوديسى ، وعندما مررنا على وكيل المجلس الشعبى للشئون الخارجية ، اتضح إنه قد غادر إلى المدينة المنورة « لا أقل ولا أكثر » .

هكذا كان الرد على سؤالنا المستغرب ، متى وعلى أية باخرة سافر إلى « المدينة المنورة » (*) ، نعلم إنه غادر قبل نصف ساعة على الترامواي ، لأن المقصود « بالمدينة المنورة » (*) معهد الطب لا أكثر حيث يعمل فيه هذا الوكيل بجهد كبير ، ولكى تكتمل معلوماتنا عن شبه جزيرة العرب ، تعرفنا على قلعة ضخمة ذات طابع عربى فى ضواحي المدينة أيضاً ، لقد حبست المئات من النساء اللواتى إختطفن بالقوة فى هذه القلعة ثم تم بيعهن إلى تركيا

(*) لقد تلاعب المؤلف بالفاظ هنا حيث يقصد « بالمدينة المنورة » اختصار الكلمات المكونة لمعهد الطب .

السلطانية فى الظلام ، لقد كن مادة دخل من الدرجة الثانية للتصدير الرأسمالى . ومن القلعة تتراعى الاعلانات الصارخة ببشيتريست المدرجة فى مقاطع اعلانات المسرحيات الكلاسيكية المعروضة ، يظهر أحد الصحافيين ذى الخصائص الأمريكية الحققة ، أثناء مناورات الجيش الأحمر وقد تسلل إلى مقر القيادة العامة باحتيال غير مبال بالصعاب ، فارسل البرقيات إلى جريدته متفوقاً على زملاء مهنته فى العاصمة ، لا تخطرني الآن كل معالم ومشاهد أوديسا ، كما لا أضمن إطلاقاً صحة ما ذكرته أعلاه ، وربما كان ذلك فى جزء كبير منه ثمرة ابداع الخيال الأويسى .

وأخيراً ، تصبح الباخرة معدة للشحن ، ويوم التحرك محدد ، لكنه يتضح فجأة عشية ذلك اليوم أن (هذه حادثة عديمة الوجود فى واقعنا) ، يفترض أن تتحرك الباخرة بدون تأخر وحتى قبل الموعد المحدد بيوم وليلة ، ثم تبدأ جلبة وحشية ، مهاترات وقذف شتائم ، وصراخ ، وبرقيات التهديد الخ ... الخ . حتى وصل الأمر إلى الاستغاثة بهيئات المركز ، ترفض الإدارة شحن البضائع الموجودة على الرصيف ، بشجاعة تستحق الاعجاب ، وبعد سلسلة من المهاترات ، ومن الرفض والأوامر وكومة من البرقيات فقط كان ممكن لوكلاء الأسطول التجارى السوفياتى أن ينهوا عملية الشحن كيفما اتفق بعد أن بحت أصواتهم وانهكت قواهم ، وقد اختلطت البضائع ببعضها البعض ، حتى إنه لم يتسنى شحن أكثر من خمسة وسبعين بالمائة من البضائع المعدة للشحن ، لماذا كل هذه الجلبة ؟ وصلت برقية من القسطنطينية فى اليوم الأخير تطلب سرعة الوصول بحزم ، وذلك لأن ما يقارب ستمائة من الحجاج ينتظرون باخرتنا هناك ، وفى حالة تأخرها سيستقلون بواخر أجنبية .

وبالطبع ، تنتظف الباخرة حتى مطلع الفجر ، وتوقع الأوراق الأخيرة على عجل ، وأخيراً يرفع السلم ، تسكب الشمس أشعتها على ميناء أوديسا ، وتتحرك الباخرة ببطء وينصرف الجميع إلى حجرهم منهكى القوة ، ولا يختفى ذلك النورس الطائر وراء السفينة لمدة طويلة عن الخلفية الزرقاء لكوة الغرفة .

وهكذا ، نبحر فاتحين بلداً جديداً - اليمن للتجارة السوفياتية - حيث لم تمر ولا سفينة واحدة ، وحيث لم تطأ أرضها قدم سوفياتية قط ، بل ولا قدم من روسيا القديمة (*) . لم تكن

(*) يظهر أن المؤلف لم يكن على علم برحلة سكالوفسكى فى أعوام (١٨٦٩ - ١٨٧٢) وأبحاره فى البحر الأحمر وزيارته لموانئه وجزيرة يريم وعدن ورحالة روس آخرون فى القرن التاسع عشر . (مزيد من الاطلاع راجع بيلوغرافيا اليمن فى الاستشراق السوفياتى - د. قائد محمد طربوش - مطبعة دار السلام - دمشق - ١٩٨٥) .

حمولتنا كبيرة وبعد أبعاد ما لم يتسنى شحنه من البضائع ، تكونت حمولة الباخرة من سبعين طناً من الدقيق ، ستين طناً من السكر ، أربعة وخمسين صندوقاً من الصابون ، كبريت ، مواعين وأواني ، وأشياء صغيرة أخرى ، كانت الحمولة الأساسية متجهة إلى الموانئ الجنوبية في فارس ، إلى جدة - الميناء الرئيسى للحجاز - نقلت الباخرة ما يقارب مائة حاج ، هم في الأساس من الإيرانيين المارين ترانزيت ، وثمانية من تزار استراخان .

واسم الباخرة « تيودور نيتفا » (وقد سميت باسم المراسل الديبلوماسى الذى استشهد فى لاتفيا) وقد كان اسمها سابقاً « تفير » ، لقد كانت الباخرة تقوم برحلات بين كامشاتكا وفلادى فاستوك . كانت الباخرة معدة للرحلات القطبية ، لهذا كانت التدفئة البخارية تعمل ألياً بدون توقف ، مدفئة بذلك جميع زوايا الباخرة بغض النظر عن درجة الحرارة خارجها ، ولا توجد فيها لا مراوح ولا حمامات مياه عذبة ، لقد كانت الباخرة على استعداد قطبى كامل ، وكأنها ذاهبة لاكتشاف منطقة القطب المتجمد الشمالى ، فى حين أن الباخرة قد توجهت فى رحلة استوائية عبر البحر الأحمر والخليج الفارسى ، إلى أكثر المناطق حرارة ، وفى أكثر أوقات السنة قيظاً .

وعلى كل ، لم نشعر بالحر فى البحر الأسود ، إذ مازال الجو بارداً ، وقد كان مرأ الاضطجاع فى الحجرات المدفأة من الموقد دائماً ، ولا توجد ضرورة للحمام البارد أو المياه المعدنية ، وكنا ما نزال نأخذ راحتنا من ضجيج ما قبل السفر .

اما أولئك الحجاج ، فقد كانوا ممثلين بروح الإيمان القوى ، يصلون خمس مرات فى اليوم ، كانوا يقفون على السجاجيد يولون وجوههم نحو الجنوب ، صوب مكة ، يعدون أغذيتهم على قدور الفحم ، وكأنصاف عميان يتسكعون على الباخرة ، وكان الكثيرون منهم يخرجون من محيط قراهم لأول مرة ، ولأول مرة يرون البحر .

ليلاً ، نصل إلى البوسفور ، تبدو باخرتنا كأنها مرسى بحكم وجود الحجاج على ظهرها ، والنزول إلى الشاطئ محرم على الجميع ، وليس للباخرة هناك من أعمال فى اسطنبول ، وكان من الممكن المضى قدما بدون تأخر ، لكنه من المفترض أن يكون هناك ستمائة من الحجاج الذين ذكرتهم البرقبة ، توقفنا فى بيوك ديريه وهو موقع حجر صحى فى مدخل البوسفور .

تضج سلسلة المرساة - ويصل الطبيب التركى إلى الميناء ، وان كان ليس بمقدوره ان يقول شيئاً عما إذا كان هناك ركاب للباخرة - وكان من الواضح أن باخرتنا تبعث بعض الحيرة وعدم الفهم .

وقفنا حتى الصباح ، نسمع عبر المنياع الأنغام التركية ، التى حلت محل إذاعة موسكو الخافتة ، هذه الإذاعة تنبئنا بأننا ابتعدنا عن الوطن ، وبأننا خلفنا ورائنا الاعلام ، اللافتات ، الشعارات ، الأحاديث عن الاشتراكية لمئات الكيلو مترات ، وخلفنا المصانع التى تبنى والحرايات التى تزحف فى عموم الوطن ، لا تتحدث إذاعة اسطنبول عن الاشتراكية والثورة العالمية ، إنما تتحدث بالأنغام الحلقية ، بالأنغام الشعبية ، التى تختلط بأصوات موسيقى الفوكستر (*) ، تذكرنا بأن الامبراطورية العثمانية القديمة ، المجدة لله ، والمأنة للفرح ، لم يعد لها وجود ، ان أصوات الأنغام الشعبية فى اسطنبول تنبئ بأن حياة القرون الوسطى ، وتسلب الفقهاء ، والظلم باسم الدين ، صار من حكم الماضى وتنقرض مع كل يوم .

أوديسا

ظهر ممثل الأسطول التجارى السوفياتى على ظهر الباخرة ما بين الساعة الثامنة والساعة التاسعة ، مما يعنى عدم وجود حجاج هناك ، ولهذا فعلياً أن نبحر قدماً ، لقد سافر آخر الحجاج قبل ثلاثة أيام ، أى قبل ذلك الاستعجال والاضطراب بلا سبب فى أوديسا .

لماذا إذن كل تلك العجلة والاضطراب ، ولماذا خلط البضائع وعدم شحن كل الحمولة ، ولماذا المهاترات والاتصالات و . . . الخ - الخ . ولماذا بقينا هنا طول الليل ولم نمضى قدماً ؟ لم يلتزم أحد بالجواب على كل هذه الأسئلة فى الباخرة ، اسمع فقط الرد العابس لأحد البحارة ، الذى كان يقرأ الجريدة الجديدة المبنوثة عبر الراديو ، ويعلم عن بداية عملية المنجم .

لا يزالون يتحدثون - المنجم . . .

نبدأ فى التحرك ، يدفعنا تيار البوسفور إلى الامام بقوة ، رغم هدوئه وزرقته الظاهرة ، نرى الروابى الخضراء ، هذه هى اسطنبول ، السور القديم ، المنارات ، أشجار السرو والمنازل ، نرى ستائر النوافذ المفتوحة ، ومنها تطل وجوه النساء السمروات ، التى لا يخفيها الحجاب أو الخمائر الشراشف ، نرى على الساحل أشباح نساء فى ثياب أوروبية ، نرى فى المرفأ أصحاب القوارب بقبعاتهم بدلا من الطربوش التقليدى الأحمر ، نميز الكتابة باللاتينية على الياقطات ، ولا نجد أثرا للكتابة العربية المزخرفة والمنمقة .

(*) - الفوكستر : رقصة أمريكية ثنائية ظهرت فى العشرينات وكانت مشهورة آنذاك

لكن ليس هناك وقت للامعان فى النظر ، ومثل مصاب بالطاعون تمر باخرتنا تحت علم الحجر الصحى الأصفر مسرعة بقرب القرن الذهبى المتعرج ، وبسرعة تلمح الرصيف النصف الفارغ ، قصر السلطان وحديقته ، يذكرنا بأخر خليفة منفى ، ذلك السلطان الذى ظل فى منصبه عام الا اسبوع واحد ، وهو الآن يتسكع فى أحد مصايف أوروبا ، تنتصب القباب الخرقاء لكنيسة « آيا صوفيا » المشوهة ، وترتفع مآذن مسجد سليمان بحدة إلى أعلى .

نحن نعرف أنه لا تدور فى أماكنها أفواج المعاقين والبائسين والحجاج قرب هذه المساجد كسالف الزمان ، أولئك الحجاج ، الذين يقومون بالتطهر تحت حنفيات المياه ، نحن نعرف أنه حتى أيام الأعياد تجتمع بالكاد تحت الأقبية المظلمة بضع عشرات قليلة من العجزة والهرمين أو بعض السياح الفارغين والمتعطلين ، الذين يتطلعون إلى حلقة مثبتة فى عامود ، يزعم بأن حصان السلطان الذى فتح العاصمة البيزنطية المتفسخة فى عام ١٤٦٢ م قد كان مربوطاً بها ، نتفرج على المساجد الباهرة الألوان ونذكر بوضوح بأنها مع قصور المرمر ليست سوى شظايا وبقايا السفينة العثمانية التى حطمتها عاصفة الثورة ، نحن ندرك بأن العاصفة لم تنتهى ، وقد هب أعصارها الأول ليس إلا ، هذا الأعصار الذى حطم أسس الاقطاعية والنظام الاستعماري فى آسيا الصغرى ، مخلياً بذلك المكان لقيام دولة قومية (لم تزل برجوازية بعد) مستقلة ، نحن ندرك بأن الأعصار التالى لن يكون خلف الجبال ، وما الثورة القومية السابقة سوى فاتحة انتصار عمالى مظفر ، ونعلم أيضاً أن الأعصار الهادر الأول قد كان صدى لأيام أكتوبر ، والتى بدونها كانت الامبريالية الروسية قد داستها بأعقابها . ولربما كان صليب الطمع منتصباً الآن على كنيسة « آياصوفيا » . ولهذا عندما تلقى نظرة خاطفة على تقاسيم ومعالم شواطئ تركيا الجديدة ، تتمثل لك بكل قوة ووضوح ، كيف أنه وأنت بعيد جسدياً عن أعماق فوهة البركان الثورى ، تشعر وأنت على بعد أكثر من خمسمائة كيلو متر من شواطئ الوطن . ترى بصيص ولعان وهج ثورة أكتوبر ، التى اشعلها عمال بتروجراد (لينين جراد حالياً) وموسكو هذه الشعلة التى لم تبلغ ذروتها بعد ، وان كانت قد أدركت أن تشتعل النار فى ركام مخلفات الماضى ، مجددة للشرق محيطة ومفككة دعائم وأركان القدرة الامبريالية المهتزة ...

استنبول من المنظار

لكن لا وقت للتفكير ، أبحرت باخرتنا بعيداً وصارت فى الخلف قباب كنيسة « آيا صوفيا » وآخر ضواحي استنبول المترامية الأطراف يدى كولى ، « سان شيفانو » ، أبحرت باخرتنا

على السطح الرخامى للبحر المنقوش قليلاً ، وبدأت تهب أشباح « جزر برنتس » على اليسار - مصيف برجوازية اسطنبول ، وهو المكان حلم الرئيس واسن أن يعقد فيه صلح وهدنة بين البلاشفة والدينيكيين (*) ، وتحت غطاء هذا الصلح الخيالى يتم إعطاء فرصة للبيض بتجميع قواهم وجعل جنوب روسيا القديمة مستعمرة للامبريالية ، ولتذهب أشباح تاريخ الماضى إلى الشيطان ، هيا إلى الامام .

يقترب اليوم من نهايته . . .

للمرة الأولى نراقب غروب الشمس فى البحر ، ويبد مدخل الدردنيل بعيداً ، نظيفاً ، مكتملاً بقرص الشمس ، الذى يتحول تدريجياً إلى شكل معين يتفلطح وكأنه تحت ضربات مطرقة خفية ، ويصير هذا المعين دقيقاً ويأخذ شكل قطعة مستطيلة ، مقلمة وحارة ، هناك يخترقه سلك صارية سوداء ، لبخرة حراسة بعيدة تتمايل على الأمواج ، ها هى قد صارت اسطوانة صغيرة متوهجة ، نقطة صغيرة من نار ، تغيب من السطح الأحمر المتألىء فى البحر المتوهج .

نعبّر الدردنيل فى الظلام ، ثم نستيقظ فى الصباح قرب جزر فينيديوس ، وفى الخليج الصغير تنتصب صوارى باخرة غارقة تحت الماء ، هى واحدة من شواهد الحرب ، المبعثرة فى كل البحار ، مثل هياكل الحيوانات الهالكة فى البرارى .

* * *

(*) الدينيكون : هم أحد القوى المناوئة للثورة الروسية .

الباب الثاني

- * على أهواج بحر إيجه
- * والبحر الأبيض المتوسط
- * رجال التفتيش
- * بور سعيد

على أمواج بحر إيجه

يتغير الطقس ، والصيف يسرع ملاقياً ، مازلنا ننام فى الحجرات ، وإذا كانت النوافذ مفتوحة دائماً ، يصير التفكير مفزعاً بما سيكون بعد يومين أو ثلاثة أيام ، ونتعود على حياة الجماعة المبحرة قليلاً قليلاً .

وحتى هنا لا مهرب من الشكوى من سوء الإدارة التديير ، الأخطاء ، وعدم الاهتمام ، روح الاستهتار ، والمخالفات ، يشكو البحارة من تعقيد وتشوش عقد العمل الجماعى ، الملئ بالتلاعب والحيل التلمودية ، وعلى العكس من ذلك تشكو هيئة القيادة وتتذمر من عدم تخويلها السلطة ، من التعسف والجور الناتج من خلط الصلاحيات والاختصاصات للأقسام المختلفة « للمثلث » . لكن الجميع يسب بصوت واحد مكتب أوديسا للأسطول التجارى السوفياتى بسبب البيروقراطية ، سوء الإدارة ، التشوش فى العمل ، والجهل بمعرفة العمل البحرى ، وما كان علينا إلا أن نشعر ولو بجزء من هذه الحقيقة ، وذلك لأننا قد أدركنا أن نجرب بأنفسنا مدى ثقل وبلبلة وخلل أوديسا ، وبالكاد لم تفشل رحلتنا .

لكن أفكارنا كانت تسبح بعيداً ، نغمض أعيننا غريزيا ، نحاول أن لا نشغل بالنا ، بالثمالة المذكورة بالبلبله الإدارية ، الأفكار بعيدة - هناك ، القضية فى اليمن ، حيث تعود مركبنا السوفياتى أمواج البحار والثورة لأول مرة - تقعد نطالع قواعد اللغة العربية ، ونقرأ الكتب الأجنبية عن شبه جزيرة العرب ، ونشعر مسبقاً بذلك الارتياح المرتبط بذلك التصور المثالى ، الذى كونه عن طريق الكتب والأحاديث ، ونقارنه بذلك التصور المحدد والملموس عن ذلك البلد الذى ستأتى رؤيته .

تنزلق الباخرة بمحاذاة الجزر المخضرة فى بحر إيجة ، تلك الجزر التى كانت مراكز ثقافة قديمة من سالف الزمان ، وهذه الجزر الآن نصف منسية ، تخاطفتها مختلف القوى الكبيرة والصغيرة أجزاءً ، وأقساماً ، نشاهد تضاريس الجزر الخضراء ميتلينا ، هيوس ، رودس ، ومجموعة أخرى كانت مشهورة فى القدم ، تلك الجزر التى لا يعرف أسماؤها الآن حتى قبطان الباخرة ، وتقرأ أسماؤها بصعوبة على الخرائط البحرية القديمة .

لم يمض أسبوع بعد على أبحارنا ، الغذاء جيد (احتياطى أوديسا) والمياه العذبة متوفرة ، ولا يشعر المرء بقيظ الشمس إلا بجانب الموقد ، ينام الحجاج بهدوء فى عنبر

السفينة ، على أرضيات خشبية معدة خاصة لهذا الغرض ، وفى الصباح فقط يزحفون إلى الخارج ، وفى الفجر تحدث مشاهد مرعبة ، فى أعماق العنبر عشرات الايرانيين الوقورين ذوى اللحى الفضية ، والعمائم البيضاء على رؤوسهم يستمعون إلى الامام بعيون مغرورة ، يروي الامام بصوت متهدج باكى للمستمعين تواريخ معروفة حتى فى أدق تفاصيلها عن تاريخ ومعاناة النبی محمد (صلى الله عليه وسلم) وحول حياة صهر الرسول بشكل خاص ، ورغم أن الراوى قد كرر وأعاد تكرار هذا التاريخ مئات المرات ، ينصت إليه المستمعون مئات المرات ، ومع ذلك يرون أنه لازماً عليهم ، البكاء والتشيع بصوت مرتفع ، أو يخرجون مناديلهم ويضعونها على عيونهم مصدرين أنات عميقة على الأقل .

والبحر الأبيض المتوسط

نخرج إلى البحر الأبيض المتوسط ، نترك فى الراء خال رودس ، آخر جزر الأرخبيل فى هذا الطريق تحس نسمات سواحل أفريقيا ، يرتفع زئبق ميزان الحرارة إلى أعلى ، وقد بسط قماش، شراع السفينة الواسع فوق برج القبطان وفوق سطح السفينة ، يصف البحارة القدامى قيظ وحر البحر الأحمر .

نشعر بالملل فى عرض البحر ، وبرامج الراديو الغنائية توقفت - تفريغ - يوضح عامل الراديو - ولنتأكد من صحة ما يقوله ، ويكفيها قناعة ، من أن البرقيات الموجهة إلى الاتحاد السوفياتى تصل بنفس التعريفة الداخلية - سبعة كوبيكات على الكلمة الواحدة - (وهذا سعر رخيص مقارنة بمرتبات الخارج) .

تسير الأمور فى مجاريها ، كل صباح - مثل موكب أسطورى - كأنه نبتون ، يظهر رئيس النوتية نصف العارى ، والغليون بين شفتيه ، وطرف الخرطوم الضخم الذى يلف الباخرة كلها بين يديه ، يتبعه خمسة أو ستة من مساعديه . بمكانسهم يكنسون الماء السائل على سطح السفينة ، يوجه رئيس النوتية تيار الماء القوى فى كل الاتجاهات ، وجهة رصينا باستمرار ، ويصير جامداً فى تلك اللحظة ، التى يكون فيها سيل الماء ، وكأنما صدفه ، قد غطى المسافر المذهول من رأسه حتى أخمص قدميه .

أجراس الباخرة تقرر ، يتبدل المناوبون ، يحاول القبطان ومعاونوه تحديد اتجاه الشمس بواسطة الآلة السدسية وينقبون فى التقاويم والجداول ، محاولين تحديد وقوع الباخرة ، يركض البحار المناوب بانتظام بين مؤخرة السفينة وبرج القبطان مخبراكم من الأميال سجل عداد سرعة السفينة ، ينتعش مجلس السفينة والخلية الحزبية ، تبدأ الاجتماعات ، التقارير ،

الجلسات مع الإدارة ، تهتاج الجماعة بشكل جماعى أو كل حدة ، ساخطة على تشوش الانفاق الجماعى ، يتناقش البحارة حول ظروف الابحار ، ويحلمون بالمشتريات من بورسعيد ، والحجاج قلقون ، هل سيصلون إلى جدة فى ٢٤ مايو ، آخر فترة ، حتى لا يتأخرون عن بداية الحج فى مكة ، تختفى الأبقار والدجاج تحت سكين الطباخ ، ويصبح أكثر بخلا وحسبانا ، منقصا جزاية الغذاء ، يصير النهار أقصر والليل أطول والشمس أكثر علوا وحرارة وتصير أنسام أفريقيا أقوى .

وبعد خمسة أيام فى الطريق من اسطنبول ، ها هو يرتسم بعد الظهر من بعد خط الأرض الأغبر الخالى من الجمال ، تبدو العومات الحمراء المتمايلة على الأمواج والتي ترمز إلى مدخل قناة السويس ، يخلو الساحل الأفريقى من التأثير ، ففى حين أن سواحل آسيا الصغرى تبدو للعين قبل أكثر من عشر ساعات من رمى السفينة مراسيها ، فإن سواحل شمال أفريقيا لا تبدو قبل بضع ساعات من المرفأ .

ومع هذا ، حين ترى الخط الأول المبهم ، تتوارد تصورات الصبء المستوحاة من روايات جول فيرن فنطازيا هاجارد وبينوا ، فتتصور الصحارى ، الواحات ، القوافل ، رياح السموم ، الأسود ، النيل ، الفراعنة ، أبا الهول ، الأهرام ، المومياء ، غابات النخيل ، البشر السمر الغامضين ، القروء بأنواعها اللامحدودة ، وهناك فى مكان بعيد فى الجنوب البارد عواصف الصراع البطولى ضد المارد الانجليزى (*) .

نحن نعلم بالتاكيد ، إنه لا يعقل الآن « القبطان ابن الخمسة عشر عاما » (**) ، الذى كان يمكن أن يذهب بمركبه إلى سواحل أفريقيا بدلا من أمريكا الجنوبية ، ويقود بدون إدراك طاقم السفينة والمسافرين ويعبر القارة ، إذ من المعروف أن طرق السيارات قد شقت فى الصحراء ولا وجود فى الأخيرة لبقايا أرض « أطلنطا » التى تسجها الخيال ، وقد نبشت ونهبت مومياء الفراعنة ووزعت فى مختلف أنحاء أوروبا ، وقد اقفرت الأهرام وانتهكت واحاط بها خط الترام ، وقد احصيت الزرافات . وجواميس النهر والفيلة وتحولت إلى بضاعة ، وتعيش آخر أيامها فى الأدغال العميقة ، بينما أخذت البرجوازية هيبتها من الانجليزى المحتل ، سائرة فى ركابه بخضوع ، وبمشاركته . نقيم للسكان معالم التحضير ، نعلم أن أفريقيا كلها محاطة

(*) هذا تصوير لبعض مواضع من روايات جول فيرن .

(**) بطل رواية خيالية بنفس الاسم للروائى الفرنسى الخيالى المشهور « جول فيرن » .

بعنكبوت ، الامبريالية ، التي تمتص عصيرها بدون رحمة ، وتعطيها بدلا عن ذلك السفلس والويسكى والكرباج ، نعرف بأنه قد بدأ النسيج العنكبوتى يتمزق في شمال أفريقيا ، فى المغرب والجزائر وتونس وبرقة ، وفى مصر حيث نقف الان وليس فى المقدمة لا أبو الهول ولا مومياء الفراعنة ، وإنما النضال الذى لا هوادة فيه ضد الامبريالية والانجليزية ، هذا النضال المربوط بعقدة حديدية ، مجسدة بمنايع النيل (العصب الاقتصادى الرئيسى) ، الذى يحكم الانجليز قبضتهم عليه ، يفرقون بالدم الوطن الذى هب منتفضا ، نعرف إنه ليس هناك رومانسية - وإنما هناك واقع النهب الامبريالى القاسى ، تزلف وخيانة البرجوازية المحلية وعجز الفلاح المسترق . كل هذا نحن نعرفه ، ومع ذلك (فإن طبيعة النفسية المغامرة) تأمل بأنه مازال هناك مكان ما يحتفظ برومانتيكية ، وإنه من المفترض أن تبدو أفريقيا هذه خاصة ومميزة ، التى نراها لأول مرة ، لكن فى عدسة المنظار الباردة والمنصفة يبدو الخط الأسود والحاجز لأمواج الحجرى وتحرق رؤوسه الحادة سطح بعيد عن العوامات الحمراء ، تبدو أدخنة البواخر ، أشباح الجرافات ، وشواطئ السباحة ، تمثال ديلسبس بانى القتال ، اعلانات الويسكى والكازينو الضخم ، بورسعيد إلى الآن هذا كل أفريقيا ، ويختفى سراب الرومانتيكية .

رجال التفتيش

نتبع التعليمات الدقيقة للمرشد البحرى الذى قدم إلينا فى الوقت المحدد إلى متن السفينة خاصة ، تقف الباخرة قريباً من المدينة ، وراء حاجز الأمواج الخشن ، وكدود العلق تحف بنا ، الزوارق البحرية المليئة بالمصريين بطراييشهم الحمراء والشرائط المقصبة الخضراء ، هؤلاء هم المفتشون وكلاب الحراسة للشرطة الانجليزية ، لكن بقومية عربية ولباس مصرى (بينهم المالطيون ، الذين يكلفهم الانجليز بالانوار الدنيئة) ، تلف الزوارق البخارية ذهاباً وإياباً ، وكأنها خائفة من أن يتسلل راكب صدفة ، أو يسقط « منشور » ، يصعد بعض المفتشين إلى سطح السفينة وراء طبيب الحجر الصحى ، يفنشون المكان وينظرون حتى فى الحجرات ، يوزعون الأدوار ، من يتابع من ، ورداً على احتجاجنا يلوى الطبيب الإنجليزى الرصين كسمه عنا بوقاحة ، معلنا ، بأنه لا علاقة لبريطانيا بكل هذا ، وان الحكومة المصرية هى التى ابتدعت هذه الضرائب ، هم يرون فى هذا رمز « الاستقلال المصرى » - ستار التعسف الانجليزى - المنشقة التى يمسح بها عملاء اسكتلنديار القذرة والدماء من على أيديهم .

أتذكر كيف كانوا يلفون ذهاباً وإياباً هؤلاء الناس التافهون الجوهر بطراييشهم الحمراء ، كيف كانت تصوير نبرتهم لطيفة متزلقة عندما يكونون وحيدى معنا ، بدون رقابة رقيب ، يقترب

من الباخرة صندل الفحم وصهريج الماء ، العمال المصريون - ناس سمر صافيون ، يهزون الثقالة الخشبية ، يركضون إلى ظهر السفينة ، يحملون على رؤوسهم سلال الفحم ، يتلقفون باعجاب السجائر والخبز ، المقدم من بحارتنا رمزاً للصدقة والتضامن .

تظلم السماء الساطعة بسرعة ، وتشتعل المدينة بالآف الأضواء ، تلون بلمعائها القنال ، الساحل ، والقسم الأوربي بمستودعاته ومخازنه والصاخب بالعريضة البحرية ، الكازينو وبيوت الدعارة ، فى حين يهدم القسم العربى البعيد لبورسعيد ويختفى فى الظلام ، تنهال آخر سلال الفحم ، ويوصل الوسيط النشيط للبحارة الأشياء الموصى عليها ، مضاعفا السعر مرتين عن سعر السوق - نمنع من النزول إلى ميناء بورسعيد أو إلى أى ميناء مصرى آخر ، ولا يسمح للبحارة السوفييت أن يضعوا كشافاً فى مقدمة الباخرة ، حيث يصل مرشد بحرى خاص لإرشاد الباخرة وعبر كل القنال وفى هزيع الليل الأخير نتحرك .

تتهادى الفئارات الكهربائية الضخمة بهدوء فوق مياه القنال ، وتنزلق فى الظلام الأشباح المسودة للرافعات ، الجرافات ، البواخر ، الصنادل ، وبعدها يختفى كل هذا ، تسبح الأضواء بعيداً إلى الخلف ، نمر على السطح الضيق المرن ، وتتطبق بوابة البحار ، التى تغسل شواطئنا السوفياتية (ولو عبر المضائق) ، لم يسمح لنا بشراء الصحف ، لا يسمح البوليس بدخول الصحف ، ولا حتى بالصور إلى متن الباخرة ، وهكذا لم نعرف كيف انتهت الانتخابات الألمانية ، وهل احتلت بكين من قبل الجنوبيين وما هى قضية المناجم ، نحن لم نعرف عن هذا إلا بعد شهرين فقط ، عندما تصير هذه الأحداث من أحداث الماضى البعيد .

انغلقت النافذة من الخلف ، ندخل وكأننا فى فتحة موقد بعث فيه قيظ من جهنم .

الفجر ، سطح البحر ضيق وكأنه ليس أوسع من شارع ، يتعرج من مروحة الباخرة ، يواصل تجعداتة حتى الشاطئ ، وعلى جانبيه - مسافة صفراء لانهائية ، على الشاطئ الأيمن فقط تظهر نباتات قليلة محاطة بسور ضيق ، ينزلق تيار الماء كأنه زجاج بين الأصفر ، يتلألأ الماء تحت الشمس يقيس بدقة أعمدة الكيلومترات المحددة وعلى الشاطئ الأفريقى تتعرج طريق السيارات وخلفها خط سكة الحديد ، بورسعيد - السويس ، وتظهر أدغال متفرقة بعيدة ، تتكشف منازل عمال القنال بشكل لورى وبشكل نظيف ومحاطة بالحدائق وملحقاتها ، الأعمدة الهوائية ، الأرصفة ، وساحات كرة المضرب وأحيانا تبدو على الطريق سيارة مسرعة ، ونادراً يضج قطار ذى عربات كثيرة على خط سكة الحديد . يظهر الموظفون المهمون فى الحدائق ، والأطفال يركضون يغنون الأغاني ، يندمش البحارة ، الذين كانوا هنا قبل الحرب ، من ظهور

المنازل ، الأدغال ، والجنائن في الصحراء القاحلة « هذا ليس الا ديكور - وواجهة للاستغلال الرأسمالى » .

وعلى اليسار - الساحل العربى - لا يوجد فيه خمار رخيص ، هناك الحقيقة القاسية العارية ، بحر الرمال القاحل الخالى من الحياة ، لا عشب فيه ولا شجر ، تبدو فيه نباتات حسكية هنا وهناك فقط ، لا توجد فيه منازل ، تظهر أكواخ سياج يزحف منها أناس سمر عراة فى بعض الأماكن يقومون بالعمل ، هؤلاء هم عمال تنظيف وخدمة القنال كل يوم ، ولولا ذلك ستغطى القنال بالرمال .

أنصاف عراة فى أسمال بالية يلتحقون جماعات ببعضهم ويبدأون العمل ، وعلى طول الساحل يطوف المشرفون الانجليز بأغطية الرأس الفلينية التي لا تفارقهم ، يمتطون اسرجتهم بشكل تهديد ، يصرخون بشىء ما على السكان الأصليين ، نرى كيف يشدون على الكرابيج فى أيديهم ، ولا صورة للمنازل والحدائق هنا ، هذا شاطئ عمالى لا يرى هؤلاء « المتحضرون » ضرورة للاهتمام به .

القنال مريء الاقتصاد الاستعماري الأوربي ، تشق فيه السفن طريقها يوميا ، ليل ونهار ، فى ضوء الشمس المحرقة والليل الرطب الخانق ، تمر عشرات السفن البخارية والمراكب الشراعية وبواخر الديزل ، سفن البضائع وسفن الركاب ، حاملة النفط ، تحت كل الأعلام ، ارتالا تشق طريقها وسط الزحام عبر هذه القومة ، صباية البضائع الصناعية من البلدان المستعمرة وبالعكس تأخذ المواد الخام إلى معامل التصنيع فى أوربا .

شاي سيلانى ، أرز صينى ، قطن هندي ، لحوم وصوف استرالى ، مطاط وكاكاو أندونيسيا ، نفط ايرانى وبورنيو - كل هذه الخامات وأنصاف الشامات المنهوية بالعنف ، بالخداع والتهديد من شعوب الشرق ، تجلب من كل البحار والمحيطات وتمر عبر مضيق باب المندب ، ومن هناك تمر عبر البحر الأحمر ، وتصب فى فرسخ السويس الضيق ، ومنه تبحر إلى الجسم الصناعى فى أوربا .

الهواء حار ، أكثر من ثلاثين درجة فى الظل ، يبدو الهواء وكأنه مشبع بالعطور ، الكميات الضخمة من الثروات البحرية ، الممتصة من دم الملايين من الجماهير الكادحة ، كأنها ظلال وأشباح هؤلاء المعذبين المنهكين بما لا تتحمله طاقة أعمالهم ، أولئك الناس الموجهة إلى صدورهم الرصاص ، المطعونين فى الصين ، والملايو وأندونيسيا ، العبيد وأنصاف العبيد الصفر والسود والبيض ، تراهم يحومون حول ارتال السفن كسلسلة مستمرة فى الشريط الضيق للقنال النى يستطيع الطفل سباحتها .

بيد أن هذه المليارات من الثروة السابحة عبر الأمواج اللزجة ، تشير وتهيج فقط ، بالاريج غير المؤلف في كثافتها ، والصحراء المحرقة القاحلة ، التي تتراجع في عناد لا رغبة فيه أمام مقدمة السفينة . هذا البلد المحروق ينظر لهما بأعين الجوع والعراة والرعاة إلى الثروة السابحة (أكثر من مليونين ونصف شهرياً) لا تبقى لهم منها سوى نسبة تافهة بشكل راتب ضئيل لبضعة آلاف من عمال تنظيف القنال ، كل الضرائب التي تدفعها السفن من أجل عبور القنال (وكانت ضرائب باخرتنا المتواضعة « نيتا » خمسمائة جنيه استرليني) تذهب إلى جيوب المساهمين الانجليز والفرنسيين وغيرهم في شركة القنال ، والنخبة من الموظفين الأجانب الذين يعملون في القنال ، إما الذهب الذي يخرج من جيوب البحارة المتجولين على الرصيف فينتجه إلى خزائن الشركات الأجنبية وبنوك بورسعيد أو تمتصها حقائب الداعرات من مختلف القوميات ، الوافدات من جميع أنحاء المعمورة إلى ميناء (الدعارة) وتظل الصحراء قاحلة محروقة والرعاة جوع عراة .

تتأثر الصحراء برمالها فتغطي بسرعة محمولة قاع القنال الدقيق ، وتلتزم عشرات السفن الحفارة كل يوم وباستمرار بأن تصد هجوم الصحراء ، لا يهدأ هذا الصراع العنيد الشرس ولو ليوم واحد ، الطبيعة لا تستسلم ، ويسعى جانباً الشاطئين المفصولين إلى التلاقى بعناد من أجل أن يعم النهب الرئيسى في جسم العدو البعيد اللامنطور .

وعلى خلفية الرمال المجدية ، يبدأ بحارتنا يعون قليلاً قليلاً مقدار قوة وثروة الوطن البعيد ، اهـ ، كم نحن أغنياء ، ولا نفهم ذلك ، يتفلسف أحدهم ، ماراً بنظره على الصحراء المفروشة على الجانبين .

هل لدينا مثل هذه الرمال في أوكرانيا ، أنها ليست موجودة حتى في الخيال ، ولا يوجد لديهم مكان لبذر الزرع ورعى الماشية .

- لا دعك من ذلك ، يمكن رعى الجمال ، لا تقلق هنا من الحسك ما يكفى - يفترض أحدهم .

- اتحسب الجمل من الماشية ، والبقر والحصان وما شابه ؟ ؟ وأين نذرى القمح وحدائق الكرز التي عندنا .

تنزلق باخرتنا ، وهى ليست سوى حلقة من سلسلة تلك السفن ، التي تندفع أمام الباخرة وورائها وتنقطع أحياناً هذه السلسلة ، يمر القنال عبر بحيرتين كبيرتين ، تستخدم البحيرتان

كطرق تفرق وتوزيع البواخر المقابلة ، حيث لا يمكن أن يمر عبر القنال سوى باخرة واحدة ، ولا يمكن أن تفترق باخرتان إلا إذا أرسى أحدهما على الشاطئ ، تستخدم هاتان البحيرتان كنقطة مرور حيث تنتظر القافلة قافلة مقابلة لها وتدعها تمر إلى الأمام .

وفى مكان بعيد ، تلوح المدن العربية الصغيرة بمناراتها البيضاء ، هناك بناء ضخمة لم ينتهى بناؤه كتب عليه : « فى ذكرى الدفاع عن قناة السويس عام ١٩١٤ - ١٩١٨ » إنه فى حقيقة الأمر قد حسمت الحرب هنا بالذات وليس فى مارتى أو فى فيلى ، إذ لو تمكن الألمان بمساعدة الأتراك من الاستيلاء والسيطرة على القنال ، لكان هذا يساوى انقطاع الصلات بين إنجلترا وفرنسا من جهة وبين مستعمراتها من جهة أخرى ، أى أن ذلك يعنى متاخمة تحطيم حلف دول الائتلاف ، غير أن هذا لم يحدث ، لقد صد هجوم الأتراك ، وأنقذت مصر بريطانيا ، وظلت العلاقة مع الهند ، والشرق الأقصى ، والعراق وكسبت دول الائتلاف الحرب .

مرة أخرى تصير البحيرة قنال ، ويصب القنال أبعد فى بحيرة أكبر ، وأخيراً نتخلص من أبخرة المستنعات الخائفة ، وتصل الباخرة إلى الفتحة الضيقة بين جبال الرمال الذهبية اللرفحة ثم تسير على سطح خليج السويس .

ميناء توفيق ، وليس ميناء السويس هو آخر نقطة فى القنال ، ينفث الهواء بالجفاف المصرى ، نشاهد الكورنيش ، وتمثال تقليدى على شرف حدث ما أو أحد ما ، وتبدو السويس فى البعيد ، أشباح المنازل البيضاء ، أسطوانات تقطير النفط ، ويبدو مخيم غريب الشكل فى البعيد ، تتعرج سكة الحديد ويظهر قطار عربات مسرع ، وبعيداً من السفن المقابلة المنتظر خروجها من القنال ، يسترعى النظر صندوقان حديديان محصوران منذ أمد بعيد ، سفينتا الملك المنحوس الشريف حسين ملك الحجاز ، الذى أطلق على نفسه لقب ملك شبه جزيرة العرب بفضل الانجليز ، وبفضل الانجليز أيضاً وقوة المنتفضين التابعين لابن سعود دحر الشريف إلى قبرص البعيدة ، وكعادة كل الملوك لم يخجل من أن يسرق سفن بلاده قبل الهروب ، ويسلمها إلى غريبة .

وقفة قصيرة ، يترك البوليس ، المرشد البحري باخرتنا ، تصفر الباخرة وخلال نصف ساعة تبدو أسطوانات تقطير النفط البيضاء كأنها نقاط بيضاء مضيئة منعكسة من الهالة الدموية للغروب الاستوائى .

الباب الثالث

* الاختناق في البحر الأحمر

* الشعب

* الحيتان

* جدة البوابة إلى مكة

* المضاربة بالحج

* وهابيو نجد في النضال ضد الاستبرالية

الاختناق فى البحر الأحمر

البحر الاحمر - أكثر بحار الكرة الارضية حرارة ، وأكثرها بعثا على الاختناق ، وأكثرها خبثا - يمتصنا من جوفه النافث نارا ورطوبة .

البحر الأحمر - طقس إستوائى أى بما معناه ، أكثر مناطق الارض حرارة ، محمى بحرارة الصحراء العربية ، وقيظ المرتفعات الجبلية لافريقيا ، يصير البحر مشبع بالرطوبة الخانقة ترتفع درجة حرارته الى خمسة وثلاثين درجة [فى الظل] ، تعصر الجسم كاسفنجة - وكل حركة ، واتفه مجهود يتحول الى تعذيب ، أما النزول من على سطح السفينة الى أسفل ، الى الحجرة التى هى بالاضافة الى كل ذلك مدفأة بأنابيب التدفئة باجتهد ، تصبح تجربة لا تحتمل على الاطلاق ، وبعد يومين أو ثلاثة أيام من وصولنا الى هذا البحر ، يتغطى الجسم بطفح جلدى أكل ، وذلك نتيجة لافراز العرق المستمر تنعدم الشهية ، تقف المعدة والكلى عن تأدية مهامها ، تنسى بذلك تقريبا عن التذكير بوجودها . ويتحول الجسم بأكمله الى جهاز تقطير يكرر كؤوس وأكواز وإدلاء الماء المشروب إلى سيل من العرق . ولا يساعد الاغتسال على ذلك لان جميع الحمامات فى باخرتنا من ماء البحر المالح ، إنه لا يخفف فى شىء بل على العكس تحول طفح العرق الى قروح دموية ، يضاف الى ذلك أن الماء فى البحر الاحمر خبيثة ، حادة شديدة الملوحة ، كثيرة الفوسفور ، حتى العرب المحليين ، لا يغتسلون بهذه الماء كقاعدة ، وكان هذا نصيب البحارة السوفييت ، الذين يمخرون عباب البحر الاحمر على متن باخرة قطبية ، يغتسلون بالماء المالح ، وما يكادون يلبسون ثيابهم حتى تصير مبلولة تماما بالعرق .

حين نشعر نحن المسافرين بالاختناق ، فأننا نمتلك امكانية أن نضطجع بلا حراك نشرب المياه المعدنية ونستلقى على الاسرة المتحركة تحت السقيفة فى اتجاه هبوب الريح ، لكن من الصعب التخيل ، ماذا يعتمل فى غرفة موقدة ، حيث بالمعونة اللطيفة التى تقدمها الاجهزة القطبية ، تصل درجة الحرارة الى خمسين درجة [تقارب نقطة الغليان] ، خاطر بعضنا بالدخول الى غرفة الموقد ، لكنه يرجع بعد خمس دقائق مندفعاً منها كالمسلوق ترافقه قهقهة الجميع ، وبعد ذلك لم يصمم أحد على النزول ، لكن لما الحديث عنه ، اذا كان حتى المتعودون والمصقولون فى الدخان عمال الايقاد المتمرنين قد سقطوا أكثر من مرة مغمى عليهم ، وسحبوا فاقدى الشعور الى مستوصف الباخرة .

لا يأتى الليل بسهولة ، يهبط الزئبق فى ميزان الحرارة درجة أو درجتين ، غير أن الهواء يتشبع بمقدار أكثر من الرطوبة المنذرة بالسوء ، وعند الفجر تكون الباخرة كما لو أنها غسلت

بالماء لا يمكن النوم بدون مظلة ، اذ أن بدونها يمكن الاصابة بالروماتيزم ، أو ما شابه ذلك ،
الحجرات مغلقة ، العنابر ، المطعم ، الراديو ، وجناح الراحة كلها مهجورة ، الجميع يعيش ويأكل
على السطح ، فقط جماعة من المعذبين مجبرة أن تظل مناوبة فى غرفة الايقاد وقسم الالات .

الشعب

شرس هو البحر الأحمر ، قيظ ورطوبة ، شعاب وسمك القرش ، الشعاب تترأى هنا
وهناك ، كثير منها ليست محددة حتى على الخارطة ، وذلك لأنها تظهر فجأة ، مثل الآلهة
القديمة ، متوالدة من زبد البحر نتيجة لنمو الطبقات المرجانية ، لا ترى ليلا هذه الشعاب ، يمكن
ملاحظتها برواة البحر الضارب لونه للبياض فى الظهر فقط لانها بلون الماء الاحمر المائل
للاخضرار ، تهدد الشعاب دائما بالكارثة ، ويمكن القول بصورة عامة ، أن حصول حادثة فى
البحر ليس مخيفا الى ذلك القدر ، لان المياه مشبعة بالملح أكثر من أى مكان آخر ، والسباحة
فيه سهلة ، الامواج ضعيفة والشاطئ ليس بعيدا اذا قارناه بالشواطىء الاخرى ، لكن
الحيثان ، التى تطرطش قطعانها بدون تخلف قرب الباخرة ، فان أى حادثة تهدد تكاد أن
تصبح كارثة . لان الانسان الذى يسقط فى الماء ، وخاصة اذا كان أبيض [القضية تكمن فى
أنه حسب تأكيدات السكان المحليين ، بأن الحيثان الحقّة ، خلافا للحيثان الامبريالية الموجودة
هنا ، تفضل افتراس البيض ، فانها تراعى به لسبب ما] فانها تقتترسه لتوها .

الحيثان

وفى مثل هذه الظروف يكون ذلك الهلع الذى أصاب طاقم السفينة مفهوما ، حين قرر أحد
الركاب بسبب الفراغ أن يمزح ، حيث حول عجلة تلجراف الباخرة من السرعة الكاملة الى « قف
» أثناء غياب القبطان ، وبهذا فإنه كان قد أعطى إشارة الى « الكارثة » المحدقة ، وبعد بضع
دقائق من اشارة الانذار فقط ، اتضح أن هذا سخافة صبيانية من قبل انسان راشد ، وقد ظل
بدون عقاب للأسف .

يتبخر الحماس الدينى للحجاج نتيجة القيظ ، فينسبون نوباتهم ونشيجهم ، يتجولون بلا
حول يلوحون بالمرآوح اليدوية ، ويضطجعون بعجز على السجاجيد وينكبون على أباريق الماء ،
وعند صفير الباخرة فقط ، وقد استخدم هذا الصفير كاشارة محجوزة مسبقا من قبل
الحجاج ، يقوم الاخيريون بأداء فريضة الصلاة ، ومع ذلك نصاب بخيبة أمل نحن الذين ننتظر

رؤية نشوة الصلاة وتوبتها ، ينهض الحجاج أنصاف نيام [كان هذا فى هزيع الليل] يهيمون بخفوت وراء الامام فى الصلاة ، وما أن تصفر الباخرة للمرة الثانية ، بعد برهة خمس أو ست دقائق ، يرتمون منهارين على سجاجيدهم .

صار خليج السويس فى الخلف ، اختفى مشهد جبل سيناء ، المنعكس فى مرآة الرمال المتلألئة ، وقد مرقت الفنارات الصغيرة الواقعة فى جزيرة ديد الا وجزيرة الاخوين ، عبرنا المنطقة الاستوائية ، تميل النجمة القطبية أكثر فأكثر نحو الافق ، تصير الليالى أكثر طولاً ، والنهار أكثر قصراً ، ويصير حلول الليل أكثر سرعة وجدية ، يكاد الغسق أن ينعدم ، بينما يرتفع زئبق ميزان الحرارة الى أعلى ، وتصير وجوه طاقم السفينة أكثر حنقا ومتعبة أكثر .

- اليوم العاشر فى الطريق -

- قبيل المغيب ، وتحت لمعان الشمس الساطعة والحارة ، تبدو الاشباح المظلمة للجبال ، والخط الحاد الابيض للمدينة المتماوجة فى الهواء المتلون ، مآذن المساجد البيضاء الناصعة ، تعرجات البيوت البيضاء الغربية الشكل ، الاكواخ المنشورية الشكل المعتمة خارج المدينة ، كل هذا على خلفية البحر المزخرف بكل الالوان السبعة ، بالوان المرجان تحت المياه الزرقاء - الحمراء - الخضراء - الازوردية ، كل هذا ينبىء بأننا وصلنا الى مدينة جدة الخانقة والجميلة - الخادعة - الميناء الرئيسى لمملكة نجد والحجاز ، والبوابة الى مكة .

يحزم الحجاج أمتعتهم على عجل ، يجتمعون عند مقدمة السفينة ، منارا بين الشعب بمساعدة المرشد البحرى ، تدخل الباخرة الرصيف ، حيث قد تجمعت إثنا عشر أو ثلاثة عشر باخرة من مختلف الجنسيات ألأمان ، انجليز ، فرنسيون ، هولنديون ، أتراك وحتى سفينة روسية قديمة تحت العلم الفرنسى لكنها باسمها القديم « اورشليم » . نقلت كل هذه السفن أفواجا كبيرة من الحجاج ، تنتظر نهاية الحج ، لترحل من حيث أتت .

جدة البوابة إلى مكة

من الصعب تصور لوحة واضحة للمعنى البضاعى والدينى أكثر من صورة الحج ، فى كل عام ومن كل أطراف المعمورة وقبل يوم الحج يأتى ما يقارب مائتى ألف من الشيوخ ، نساء ورجال فى الغالب ، يتركون أعمالهم المعتادة ، يجمعون ما ادخروه طوال أعوام كثيرة ، يحزمون فى حزمتين ما يلزم من المتاع ، وينطلقون الى الحج فى بلد القipzig ، الجذب ، الغبار ، والابوئة ،

يأتون من سفوح الهماليا ، من الهند ، من جزر أرخبيل الملايو المزهرة ومن البلدان المجاورة بالطبع : ايران ، تركيا ، شبه جزيرة العرب ، ومن أفريقيا ، وإذا كان الحجاج مسافرين عن طريق البر على القوافل أو مشيا على الاقدام ، تنهبهم القبائل الرحل ، وتنتزع منهم آخر الاغذية ، أما اذا سافروا على ظهور السفن فان عملاء شركات السفن يبتزونهم بشكل قانونى « منظم » يسلبون منهم نقودا كثيرة قيمة تذاكر سفر فى ظروف لا تحسداهم عليها حتى البهائم ، يأخذون منهم فى جدة رسوم تأشيرة الدخول ورسم الحجر الصحى ، وبعد ذلك يرافق كل مجموعة صغيرة مطوف ، يطوف بهم فى الاماكن المقدسة ، يعلمهم « مناسك الحج » ، ينهب رعاياه مستغلا كل فرصة ، يأخذ منهم نقودا كثيرة للسكن ، الغذاء ، للماء ، وللماء خاصة ، التى يصل ثمنها بوزن الذهب ، هكذا كان فى عهد الشريف حسين الذى قام بتدابير غريبة ، وصلت الى حد تخريب أنابيب المياه ، من أجل رفع سعرها ، الى جنيه ذهب للكأس الواحد .

ينتقل الحجاج بين الاماكن المقدسة ، من جبل الى جبل ، ومن مدينة الى مدينة ، فى محيط ملئ بالقذورات ، بدون ماء ولا غذاء وبلا رعاية طبية تقريبا ، ينفق الحجاج آخر نقودهم وآخر ما تبقى من الصحة ، فيتعرضون للأمراض والانهك والتعب بكل بساطة ، يقعون بين براثن مضاربى الحجاز ، المطوفون ، المرافقون ، ملاك الجمال والسيارات وما شابه ذلك من الزمر يتحصلون على ما يقارب ثمانية ملايين جنيه استرلينى من الربح ، علاوة على خمسة عشر ألف ميت تحتجز جثثهم رمال الحجاز من بين مائتى ألف حاج (كأنها فراشات على النار) تتواعد كل عام تحت شمس الصحراء العربية اللافحة .

الحج الدينى موجود فى كل البلدان . يذهب الصينيون الى جبل تايسان ، أينما عاش وعلم كونفوشيوس ، ويصعد اليابانيون لا بسين ثياب بيضاء الى قمة جبل فودزه ، يذهبون الى معابد نيكو ، ويتوافد الكاثوليك الى روما ، لكن يوجد فى جميع هذه الأشكال عامل جمالى ، يتمتع الناس برؤية محاسن الطبيعة ، والاعمال الفنية ، ويتنقلون فى ظروف محتملة بل وأحيانا مريحة ، لكن لا يوجد جزاء يتجازاه المسلمون الاتقياء المنهكون ، الذين يعودون الى مكة والمدينة - سوى المشاعر الدينية الخالصة - بعض الاحجار من قبر الرسول محمد ، وقوارير من ماء « زمزم » إنه لم يرى أية محاسن ، ما عدا رمال الصحراء ، والجبال العارية الجذباء والوجوه الجشعة للمرافقين ،

المضاربة بالحج

من المستفيد من هذا الابتزاز المنهج للحجاج ؟ بادىء ذى بدء التجار ، المضاربون ملاك الجمال والسيارات وبالطبع سلطة الحجاز ، إن أدنى انخفاض فى الحجاج يمكن أن يكون ضربة قاسية لهذه الفئات ولا نعكس ذلك على مجمل دخل البلاد (١) .

تسيل أشعة الشمس على الاف الفراسخ فى الصحارى العربية والافريقية ، فى الوقت الذى يكون فيه عزيز كل شعاع من الشمس فى سيبيريا ، وكم يتمنى المرء أن يخترع زجاج مكبر يمكن الانسان من تركيز وارسال مليارات الكيلواطات من الطاقة الشمسية الى التوندرا وجليد القطب المتجمد الشمالى (٢) .

الناس الطفيليون عادة ما يصبحون عبيدا أو خدما وانصاف عبيد ، والحجازيون ممثلون بالطبقات المالكة يصبحون أذياناً وأعواناً للانجليز ، تمسك الانجليز فى قبضتها مداخل البحر الاحمر : بوابتا الحجاز وقناة السويس ومضيق باب المندب ، إن جرة قلم خفيفة ، ضغط ضئيل لوحتى القيام ببعض أعمال الحجر الصحى الشككية ، يمكن أن تؤدى الى افشال الحج ويقضى على سكان الحجاز بالافلاس والجوع ، تمسك أصابع الامبريالية الانجليزية على هذا البلد الخائر القوى .

فى وقت الحرب ، دفعت انجلترا الشريف حسين إلى الانتفاضة ضد الاتراك عن طريق ايقاف الحجاج ، الامر الذى حتم سلفا الاخفاق التركى فى الهجوم على قناة السويس ، والانهيار النهائى لتركيا فى الحرب العالمية ، وفى عام ١٩٢٥ كان ابن سعود ملك نجد ، الذى خلف الشريف حسين بعد الانتصار على الأخير ، كان زعيم الوهابيين شديد الشكيمة ، لكنه بعد أن شعر بالاصابع الفولاذية قابضة على خناقته ، اضطر إلى كبح حملته الشرسة مستخدما أسلوب المناورة الشاقة والمؤلة ، فلم يحزم فى خوض المعركة ، وإن لم يرغب فى التراجع إلى ما لا نهاية .

لقد وجد ابن سعود نجد والحجاز بشكل وهابى نصف متوحش ، وكان يهدد طرق المواصلات الانجليزية إلى الهند ، من فلسطين عبر العراق وإيران ، وقد قررت انجلترا بصلابة

(١) لم نترجم بقية هذه الفقرة من صفحة ٢٢ لأنها غير صالحة للنشر .

(٢) لم نترجم بقية هذه الفقرة من صفحة ٢٣ لأنها غير صالحة للنشر .

الباب السادس

* فى الازقه الخانقه بالحديده

* السوق

* الهنود

* السفن القديمه

* الصناعه

* راس المال الاجنبى

هن " نيته " إلى " تابولسك

نلتقى فى جدة بباخرة سوفياتية أخرى هى " تابوسك " وهى مثل باخرتنا " نيته " بسعتها وتجهيزاتها القطبية (واسمها يتحدث عن نفسه) ، فيها نفس أنابيب التدفئة ، والحمامات المالحة ، وانعدام الماء البارد ، وقد وصلت قبلنا بأسبوع وبحمولة ناقصة ، اتضح انه لا توجد ضرورة لبحار الباخرتين أكثر (عن ماذا كانوا يفكرون فى اوديسا ؟) ، وذلك لأن كل الحمولة كان يمكن شحنها فى باخرة واحدة ، وتحمل الاخرى الحجاج عائدة بهدوء إلى ميناء بلادها ، تبدأ المناقشات الصاخبة والاجتماعات : لا يرغب احد فى الرحلة الخليجية - الطقس جهنمى ، ولا توجد موانئ مشوقة يمكن فيها التجول والراحة : كاد أن يكون قبطان الباخرة فى معركة ، حجج مع وحجج ضد ، كل يثبت أنه ليس هو المفترض فى متابعة الابحار ، وفى الاخير يتنازل قبطان " تابولسك " الحزبى بعد اسبوعين من الجدل (والعمل متوقف) يوافق هذا القبطان وسط تدمير جماعى من قبل طاقم سفينته بسبب أخذ حمولة الباخرة " نيته " والابحار إلى اليمن ومن ثم إلى الخليج الفارسى .

تظل " نيته " فى جدة .

وفى البداية يقوم العمال العرب بالشحن ، يعملون بخمول ، يمزقون الاكياس بالخطاطيف ، يسجل المتعهد اجرة ضعف عدد العمال العاملين ، ويأخذ الفرق لنفسه ، وبالإضافة إلى ذلك يتوقف هؤلاء العمال عن العمل بضعة أيام بحجة ابتداء الحج .

تقرر تنفيذ الشحن بالقوى الخاصة ، صعد البحارة عراة إلى عنبر السفينة ، وبدأت المعتلات تقرقع ، اهتزت الرافعة اليدوية اهتزازا شديداً ، ويرمون اكياس السكر ورزم المنسوجات بالاذرع من باخرة إلى باخرة ، وفى اعماق العنابر تزحف اشباح الناس المتصبية عرقا . ونادرا ما يصعدون كالمسلوقين إلى سطح السفينة من اجل تدخين سيجارة ، ونفسا من الهواء النقى ، ثم يغوصون من جديد فى الحفرة الخائقة يسحبون الاكياس إلى الخطاطيف القابضة للرافعة .

استغرق العمل ثلاث ليال (لانه لا عمل فى النهار) ، انجزنا خلال هذه الليالى الثلاث ما كان يمكن أن ينجزه العمال المحليون فى أكثر من عشرة أيام وتحت عصا المتعهد المستغل .

واخيراً انتهى الشحن ، واستمد البحارة أجرتهم ، تلك الاجرة التى لم يكتسبوها بعرق الجبين فقط ، وانما بعرق الجسد كله . استثموا أجرتهم فى نفس اليوم فانفروا مقاصف البواخر الاجنبية التى على الرصيف واشتروا تقريباً كل المشروبات المنجحة وغير المنجحة

وهكذا أصبحت عنابر ' نيتة ' فارغة ، وعنابر ' نابوست ' مشحونة حتى سطحها ، تنتقل إلى ' تابولسك ' أو بالأصح إلى برج القيادة ، الهبوط إلى الحجرات مستحيل ، هناك تبقى الاشياء فقط وفى الصباح يتحرك تلوح مناديل المودعين من على الزوارق ، وما هى باخرتنا تناور بين الشعاب تخرج إلى الماء العريض للبحر الاحمر ، أخذت اتجاهها إلى الجنوب ، ولأول مرة تبصر باخرة سوفياتية حول شبه جزيرة العرب ، ولأول مرة سيعرض العلم الاحمر ، والبضائع السوفياتية فى اليمن وموانئ جنوب فارس

اول سنونوات اليمن

اشعرنا اليمن بوجوده فى جدة ، هناك ظهر احد التجار مع رسالة توصية من السلطات اليمنية ، مقدماً لنا خدماته كمرافق وسمسار فى الحديد ، مؤكداً أنه بدون صحبته سيكون الفشل مصيرنا ، لكننا استغنيانا عن خدماته ، هذه كانت السنونوة الاولى من اليمن ، ومنها يتضح ان اليمنيين يضعون آمالاً على التجارة معنا ، وان لديهم امكانيات من نوع ما ، وعن هذا ، وعلى أية حال تتحدث الرسائل الموجهة إلى فرع ' اللجنة الشعبية للعلاقات الخارجية ' وذلك من شخصيتين يمنيتين بارزتين

الرسالة الاولى متهورة بختم الامير محمد ، أمير الحديد ، والموجهة إلى إحدى الشخصيات الموثوقة فى جدة ، لكنها مخصصة لان يستلمها الوكيل السوفيتى ، يقول نصها :

' بسم الله الرحمن الرحيم ، المتواضع محمد ، ابن أمير المؤمنين (ومحمد هذا هو الابن الثانى للامام) لقد شغل فكرنا مسألة واحدة ، وقد نوقشت أكثر من مرة ، ان حكومتنا لا ترفض ابداً مصافحة اليد الممدودة لها ، لقد صرحت بهذا فى صحيفة ' الايمان ' . وهى تطمح إلى الصداقة مع شعوب الشرق ، وحكومتنا فى الوقت الراهن تصرح بعزم عن طموحها فى اقامة طموح متبادل مع شعوب الشرق وخاصة مع من يضمم فكراً تقديمياً ويناضل ضد الاضطهاد الامبريالى ، ان حكومة روسيا العظمى تقف يقظة لحراسة مصالح شعوب الشرق ، وضد هذه الحكومة تصارع الامبريالية . موجهة لهذا وسائل مالية ضخمة ، قوى حربية وسياسية ، طامحة إلى اعاقبة تنور شعوب الشرق بروح الحرية ، هذه الحكومة تحوز على تعاطف الشعوب المضطهدة ، اننا نأمل فى اقامة علاقة طيبة بين حكومتنا '

واختتم الرسالة بادعية دينية وتمجيدية لله .

والرسالة الثانية مكتوبة بلهجة اكثر عملية وتحفظ وضعها السكرتير الأول للامام ، القاضي راغب ، موجهة إلى القنصل السوفييتى فى جدة ، يقول فيها : " اننا نحافظ على الحب فى القلب لروسيا ، لقد قررنا وضع بداية علاقات تجارية بين الدولتين المستقلتين روسيا واليمن ، وحين كنت سكرتيرا اولا للسفارة العثمانية فى بتروجراد ، كنت موثوقا بروابط صداقة وطيدة بالشعب الروسى ، لقد وجدت انه من الملائم التوجه إليكم بهذا الموضوع بواسطة صديقى ، نرجوا منكم القيام بالخطوات المناسبة وتعريفنا بهذا " .

لقد اهملت هذه الرسالة فى جدة قراب عام (وقد ذكرت محدثى فى موسكو : " اليمن واى معنى لذلك ") وكانت بهذا الشكل اول وثيقة تضع بداية الاتفاق السوفيتى اليمنى ، الذى سيوقع عليه فيما بعد فى صنعاء ، لكن باخرتنا ما زالت تتحرك فى الطريق من جدة الى الحديد ، ويظهر ان كل هذا ليس مقنعا بما فيه الكفاية ، لم توجد ثقة كاملة عما ينتظرنا ، وهناك شائعات تطفو عن بداية غارات الطيران الانجليزى ، وعن انتفاضة القبائل قرب الحديد .

يبعث فينا بعض الانتعاش شيخ عربى يركب باخرتنا من القسطنطينية الى اليمن ، عمره اكثر من سبعين سنة ، وهو ضابط قديم فى الخدمة التركية ، يحلم ان يعيش آخر ايامه فى صنعاء بهدوء يتحدث عن صنعاء ويبجلها بصوت اجش .

- جميل جدا ، جميل جدا ... كل شىء طيب ، كل شىء موجود هناك : هواء ، ماء ، فواكه ، قوارير ماء من صنعاء ، يمكن ان تحملها الى اخر الدنيا ، لن تلقى اشهى منها ، الهواء - كالعسل ... حدائق فى كل مكان - المشمش ، الخوخ ، التين ، الليمون ، العنب - خمسة وثلاثين صنف من العنب .

لكن صنعاء بعيدة ، اقرب مرحلة - الحديد - الحديد حرها اكثر ارتفاعا من حر جده ، ماذا تنتظر ، نحن فى الباخرة ، نتعرض للرياح البحرية ، ومع ذلك ليس باستطاعتنا التحرك ، نبتلع لقمة الغذاء بصعوبة بالغة ونتبعها بقوارير الماء .

فى اليوم الثالث فى وقت الظهيرة بعد سفرنا من جدة نمر على مجموعة جزر تسمى " جبل الطير " ، تستخدم هذه الجزر كمكان لاستراحة الطيور العابرة ، هذه الجزر المقفرة العارية ، بصخورها الحمراء ، الفنار الذى يلمع فى الليل فقط ، يحى قفرتها .

وبعد بضع ساعات - وفى العتمة الدهماء تترأى مجموعة جزر ، يطلق عليها فى الخرائط

الاوربية " جزائر " ، التى تعنى " جزر " باللغة العربية ببساطة ، لم يطلق اسم محدد لهذه الجزر - وهى خمس أو ست جزر - عبارة عن صخور كبيرة ، وعلى واحدة منها فنار ، من الصعب تصور مكان أكثر قساوة منها كمنفى للمجرمين .

وبعد هذه الجزر ، ننعطف نحو الغرب بشدة ، وننتقل الى الحديد مباشرة .

ليلة ظلماء غير مقمرة ، يقرر القبطان انه حسب آلة تحديد الاتجاه ، يفترض ان نكون قريبين من الشاطئ ، لا ضوء فى الافق ، وتحت طرق الرقاص المنتظم ، يرمى المناوب بالمرجاس (١) ويقدم تقريراً عن عمق البحر .

- سبعة عشر ... ستة عشر ... أربعة عشر ...

وعندما يصل العمل الى اثنى عشر متراً ويحول القبطان ذراع " التلجراف " الى اشارة " قف " ، تقرر سلسلة " التلجراف " بحدة ، معطية اشارة الى عمق قسم الماكينات ، تسير الباخرة الى الامام لبعض الوقت بحكم قوة الاستمرار ، نتوقف بعد ذلك ، ننتظر الفجر ، وامامنا ظلام دامس .

نضطجع على الاسرة ، من دون رغبة فى النوم ، هذا الشاطئ الغير مرئى ، لكنه القريب الادراك وان بشد الاعصاب ويطرد النوم ، فى ظل الفئار الخافت اقلب صفحات مرجع بحرى صدر قبل الحرب واقرأ التعريف التالى تحت كلمة الحديد :

" الحديد - مدينة يبلغ تعداد سكانها من ثلاثين الى اربعين الف نسمة ، فيها مبنى عظيمة وماء طيب ... "

وبعد ذلك تاتى معلومات بحرية متخصصة .

افتح ديوان اشعار بير يوسف : لقد ذكر اليمن فيها ، وان كانت بمعانى ومسمات مستعارة مجهولة : " هكذا فى صحارى شبه جزيرة العرب المهية الجيلة .

اينما سارت ملكة سبأ لتلاطف سليمان " .

هذا يعنى انه فى اليمن ، لان مملكة سبأ قد وجدت فى اليمن ، وقد ذكرها الانجيل ، حيث حكمت الملكة الاسطورية بلقيس ، برجليها ذات الشعر الذهبى الجاف ...

(١) المرجاس - جهاز لقياس عمق البحر .

ويضيف الشاعر بير يوسف :

" نظرة باردة من قمة الرأس إلى اخمص القدم واوفير الغنية ...

واوفير - هذه الكلمة المتكبرة تعنى اليمن المتواضعة التى لا تقبل الادعاء .

هذا هو كل ما اتذكره عن اليمن من الكتابات الموجودة لدينا ، يوجد امامى كتابان ايضا ، احدهما الفه الصحفى النمساوى فيسل وقد سمي هذا الكتاب اليمن " بلدا شيطانيا " ، اكثر بلدان شبه جزيرة العرب تخلفا واقلها جاذبية ، وعلى التقيض منه - وصف احد الايطاليين اليمن وكان قد سافر اليها ضمن بعثة رسمية ، واستقبل بحفاوة وابهة كبيرة .

تعرف اليمن فى هذا الكتاب بانها " وطن الاريج او الشذى " . واتذكر ان اليمن قد اشتهر ايضا منذ زمن سحيق " بالعربية السعيدة " . ويؤكد هذا مرافقنا الشيخ العربى ، الذى لا يفتأ يدمدم حول اصناف العنب الخمسة والثلاثين وماء صنعاء العجيب ، بهذا ينقطع حبل التصورات المستقاة اثناء الطريق الى اليمن ، وكيف هذه اليمن فى حقيقة الامر ، هذا البلد القريب جدا منا الان ، والذى لا يفصلنا عنه سوى خط الماء أو دخان الضباب الصباحى ؟

... من خلال المنظار وفى ضوء الفجر الشاحب ارى خط الشاطئ الاغبر ، الذى يمتد بضعة اميال من باخرتنا ، وهو اكثر انبساطا وخال من الجمال عنه فى جدة .

اشاهد النتوءات الصخرية لحواجز الامواج ، بعض مبانى بيضاء ، صفت بشكل ساحة صغيرة ، والاشباح الرمادية لمنازل الضواحي الواطنة .

اهذه هى يا ترى " المهمات العظيمة " التى قيل عنها ؟

على رصيف الحديدية

ترفع الباخرة مرساتها مقتربة من الشاطئ خبط غشواد ، تتوقف مرة اخرى على مسافة ميلين أو ثلاثة اميال من اليابسة : والوقوف ابعد من ذلك يهددها ، الاماكن الضحلة ، والقبطان لا يخاطر بالتحرك على رصيف مجهله ، تضج سلسلة المرساة من جديد ، وتنطلق عدة صفارات نداء تاريخى من مدخنة الباخرة ، ويرتفع شريط اعلام الاشارة المبرقشة على السارية ، لا شك فى اننا قد وصلنا ، هذه هى اليمن .

ها هي اليمن

ها هو ، هذا الوطن ، الذي يبدو من على ظهر الباخرة قاحلا ، صحراء كثبه ... هذه هي الحديدة ، المدينة النصف مغمورة بالرمال ، بيوت مهدمة ، كأنها كومة عظام نصف رميمة ، مبيضة على بساط سهلى اغبر قاحل .

تمر عشرون دقيقة ونشاهد شراعا ابيضضا يبتعد عن الشاطئ يناور مع الريح يقترب من باخرتنا ويصل بعد نصف ساعة .

نتماسك انفسنا ظاهريا بحزم ، وان كانت الثقة منعدمة فى الداخل .

– ماذا سيقولون لنا ؟ " اهلا وسهلا " او " فلترحلوا " ...

يصعد على سلم الباخرة ايطالى كهل محنى الظهر ، اصلع الرأس ، انه وكيل الشركة المحلية التى اخذت على عاتقها ، وخدمة باخرتنا ، حسب اتفاق تلجرافى ، وبصحبه عربى عارى القدمين فى سترة عسكرية مهلهلة هو مساعد رئيس الشرطة ، وعندما سأل هذا الاخير من نحن ولماذا وصلنا ، توجه مسرعا الى الشاطئ ليقدّم تقريرا .

يمتص الايطالى الماء المعدنى بشراهة ، يجيب على اسئلتنا عن الحديدة ، ملوحا بيديه بكأبة ، – لا شىء يوجد هنا ... لا شىء – لا ماء ، ولا خضرة ولا غذاء ، كل شىء يجب جلبه من الخارج ، كل شىء ... اسمح لى القبطان بتعبئة قنيتين من الماء البارد ؟

– الاخبار ؟ نسأل نحن ، – كيف انتهت الانتخابات الايطالية ؟

– نحن هنا لا نعرف شيئا – يجيب مبتسما بمرارة ومؤشرا بيديه اشارة بائسة هادئة ... الانتخابات ... نحن لا نعرف حتى انها يفترض ان تجرى ، ربما ستحكون لنا كيف انتهت الانتخابات الفرنسية ؟

ثم نحكى له ، لان هذه الانتخابات قد جرت قبل اسبوعين من رحلتنا من اوديسا ، وقد استمرت رحلتنا اكثر من شهر .

– وهنا كيف ؟

مرة اخرى اشارة تهكمية هادئة .

– هنا ... سترون بأنفسكم ، ما يشبه الحرب ، ننتظر الطائرات ، قلدى الامام شىء ما غير حسن مع الانجليز ...

– كيف تعيشون ؟

– لا تسألوا ... عن كل شيء ، كأننا فى سجن أو فى منفى ان لم يكن اسوأ .

نحن نرى ذلك من المنهكين والمتعبين ، على كل ربما كان هذا استقبال مقصود :
لتخويفنا ، نحن الذين خاطرنا بمجيئنا إلى هنا ، إلى البلد الذى تمد إليه ايطاليا اصابعها
الاخطبوطية بشرامة ، تحيط القوارب بباخرتنا من جميع الجوانب . يستشعر مالكو القوارب
والعتالون الرزق – اجرة افراغ البضائع ونقلها الى الشاطئ ، يتقاذف الناس السمر العراة من
القوارب الى الماء ويسبحون مقتربين الى جوانب السفينة " تابولاسك " يسحبون حبال الربط
باسنانهم ، يلتصقون ويتشبثون به ، وما قد انفتحت ابواب الحجرات ، وطقطقت الرافعات ،
وتطايرت اكداكس اكياس الدقيق والسكر من سطح السفينة الى قعر القوارب .

الشمس بعد ان ارتفعت ، تلهب سطح السفينة بسيل اشعتها ، كما تلهب ظهور الناس
العارية والمكشوفة .

ها هو يظهر قارب كبير وانيق ، على صاريته علم احمر مرسوم عليه سيف وتحيط
بالسيف خمسة نجوم انه علم اليمن ، فى القارب سلطات الحديد ترافقها حراسة ، تتألف مما
يقارب خمسة عشر جنديا وعلى ما يبدو أنه قد رتب لنا حفل استقبال بما فيه الكفاية .

الوجهاء – فى برانس بيضاء يتمنطقون بالجنابى ، يلبسون اوشحة من الخيش الخفيف –
وعلى رأس كل واحد منهم عمامة بيضاء ، وعلى ارجلهم احذية اوروبية ، وهذه هى العلامة
الخارجية الوحيدة للتأثير الاوروبى .

يسمى الجنود كما فى تركيا عسكريا ، يلبسون الاردية ، وان كان من القماش
المحلى الخشن ، هذه الاردية هى نوع ما من الملابس الشبيهة بالفوطة مع بلوزة معتمة ، يربط
الجنود خصورهم باحزمة ، احزمة الذخيرة عبر الكتف ، والبنادق فى الايدى والجنابى خلف
الاحزمة .

الاقدام حافية والعيون ملتهبة وحشية كأنها عيون الصقور ، هؤلاء من الجبال ، وصلوا إلى
البحر منذ فترة قصيرة ، وقد كانوا لأول مرة فى حياتهم على الباخرة .

تميز بينهم الامير الشخصية المهيبة ، وكامل لقبه امير الجيش ، يتحرك بقربه المترجم فؤاد
فى لباس اوروبى وطربوش ، وهذا المترجم مصرى ، وهو الشخص الوحيد الذى يعرف لغات
اوروبية ويطلق على نفسه لقب مترجم المحافظ .

وجهت الينا اسئله . بما اتيتم ، وما هى حمولتكم ، وهل تنوون الذهاب الى صنعاء لمقابلة الامام ، واستفسارات عن الصحة وظروف الرحلة ، اجبنا بدورنا نحن نستفسر عن صحة الامام وأولاده وعن الوضع فى صنعاء ، لكنهم لا يخفون بأن ليس كل شىء على مايرام وأنهم ينتظرون الطائرات الانجليزية وان كانوا لا يخافون منها .

— سنتغلب عليها ...

تعب عامل مقصف سفينتنا من كثرة العمل : يخرج صناديق الماء المعدنى ، او مياه عادية باردة ، فهنا يعتبر هذا أفضل ضيافة ، وبعد الضيافة يلقي امير الجيش كلمة اخفائية بواسطة المترجم . .

— نحن انتظرنا الروس منذ فترة بعيدة ، لقد توقعنا رؤيتكم هنا فى العام الماضى ، نأمل بعون الله ان تتوطد العلاقة بيننا ونطور التجارة ، نحى بأشخاصكم اول روس يصلون الى الارض اليمنية ، وبينما نحن نتبادل التحيات ، كان الجميع عساكر ووجهاء يمعنون النظر بشراهة فى كل جزء من اجزاء الباخرة ، ويتراكمون بعد ذلك يزاحمون بعضهم بعضا لفحصها و يمررون بكل الزوايا ، غرفة القبطان ، عجلة القيادة ، البوصلة ، المنظار ، المستوصف ، كل شىء يثير اهتمام الناس ، هؤلاء الناس الذين حرموا من التقنية الى الحد الذى يجعل من سفينتنا الرثة بما فيه الكفاية تبولو لهم كأنها مارد اسطورى على طول الطريق ، والسبب انه لم تمر حتى الآن سوى البواخر الاجنبية الصغيرة القديمة ، أما البواخر الكبيرة فإنها تبحر بالطريق الرئيسى للبحر الاحمر ، غير عابئة بالمرور فى هذا الميناء اليمنى المتواضع .

الباب الخامس

- * بجمع على حاجز الاصواج
- * الزخرفة العربية والجمارك
- * سيف الاسلام والبلاشفة الوافدون
- * الجاسوس المفضوح
- * رحلة سعيدة
- * "تابولسك"

بجع على حاجز الامواج

بابتعادنا عن اخر قطعة من الارض السوفيتية بشكل السطح الباهت ل " تابولسك " .
حينئذ فقط وجدنا انفسنا على البساط المفروش على مؤخرة القارب ، بدانا نتصور بوضوح ،
الى اى زمان سحيق قد نائنا ، اننا نبعد اكثر من ثلاثة الاف كيلو متر عن اقرب شاطئ
سوفيتى عن طريق الخط الجوى ، تبقى الطريق الى الهند الجزء الاقل من الطريق التى
قطعناها ، اثيوبيا الحارة تحت متناول اليد ، انها فى الجهة الاخرى للبحر الاحمر ولا تبعد
سوى اربع أو خمس ساعات عبر البحر ، والمسافة الى خط الاستواء اقرب من المسافة بين
موسكو واوديسا ، الشمس والنجوم والهواء الخائق - كل هذا يشعرونا باننا قد جذبنا الى عالم
اخر ، معلق بين افريقيا والهند ، واننا قد اقتلعنا الى ما لا نهاية عن الوطن السوفيتى - نشعر
كيف يصل رذاذ البركان الثورى ولاول مرة ممثلا بنا وكيف يصب حممه على سابع ارض واصلا
الى هذا الميناء الداوى الشديد الحرارة .

تدفع الامواج القارب الواسع بقوة ، هذا القارب الذى قعد فيه ما يقارب ثلاثين شخصا ،
وها هى تتناول بوضوح عظمة حلقة المباني البيضاء الغربية الشكل ، يرفرف العلم الاحمر فوق
واحدة منها ، ها هى المدينة تمتد كسلسلة من الصعب ان تحيط بها بنظرة واحدة : السهل ،
البيوت البيضاء ، الصفوف الطويلة لأكواخ من الطين والقش ، اشعة الصنابير على الامواج ،
او على هياكل القوارب فى الاماكن الضحلة ، حاجز الامواج الحجرى المتناول الى الامام
لحماية مرفأ القوارب الصغيرة ، والشمس تحرق ، كمعدن مصهور يتصبب على الجسم ،
تضرب مؤخرة الراس كما لو انها بمسامير ، لم ندرك كيف نصحو من ركام الانطباعات حتى
كان حاجز الامواج امامنا .

الانطباع الاول عن الحديدية - سلسلة طويلة من البجع على حاجز الامواج واقفة بأبيه
ووقار بصور بارزة ، طيور بيضاء ، تتلف اجنحتها بمناقيرها ، وتنظر برباطة جأشى الى
القارب الذى تتلاطم عليه الامواج الى الحاجز ، يتراخض اناس انصاف عراة يربطون القارب
بالحبال ، ايد ما تجذبنا الى الارض الثابتة .

- الحمد لله .

لا اثر لتسيم البحر ، الغبار الساخن يلف من كل مكان ، نتجول انصاف عميان مع

مرافقنا ، ندخل ابوابا ما ثم نصعد الى سلم داخلى طويل نمر بافنية وساحات مختلفة ، نصل الطابق الاخير ، نقعد على الكراسى منهكين ، نتطلع فيما حولنا ، نحن فى غرفة ضخمة ، يهب نسيم بحرى عليل من النافذة .

الزخرفة العربية والجمارك

نتطلع الى السقف : دوائر ملونة ، منحنيات ، نجوم ، كل ما يمكن توليفة من الخطوط الملتوية والمباشرة ، اشكال متنوعة لا نهائية ، تتميز بانه لا يوجد هناك شكلان متشابهان بين هذه الاشكال ، والالوان مختلفة ايضا ومتعدده الالوان والتوليفات ، هذه هى " الزخارف العربية " . نتفحص الاثاث والمفروشات وهى نصف اوروبية ، اى الخط القريب بين الاسلوب العربى القديم وعدم الذوق الاوروبى : مقعد رث منثور ، منضدة للعب الورق فى الزاوية ، بضعة كراسى ، وعلى الجدران لوحتان زيتيتان انجليزيتان ذات موضوع حربى كذكرى للاحتلال الانجليزى للحديدة بعد انتهاء الحرب ، وغرفة المغسل - ارض حجرية ، برميل يستخدم كمغسل - يؤكد لنا العسكرى المكلف بخدمتنا ان المياه كثيرة ، يمكن صب الماء والاغتسال ، فى الوقت الذى كنا قد خشينا فيه حتى من غسل اليدين بفعل تاثير كلمات الايطالى ، واعتقدنا بان الماء هنا ثمين او عزيز للغاية لقد اطمئننا بان المياه فى الحديدة كثيرة ، حقا انها مألحة الطعم قليلا ، لكنها صالحة بما فيه الكفاية للاغتسال .

بدانا نشعر بان الشيطان ليس مخيفا كما يصفون .

ونصب بشراة على اجسامنا اكواب الماء ، ونغير بدلاتنا المبللة بالعرق .

ومن النافذة - نحن على ارتفاع الطابق الرابع - ينبسط البحر باتساع : طيور النورس ، الاشرعة ، وبعيدا فى الافق شبح باخرتنا ، وفى الاسفل على الشارع تمتد ارتال الناس السمر انصاف عراة ، الذين ينقلون اكياس الدقيق والسكر الذى جلبناه ، ينقلون من الرصيف الى مخازن الجمارك . ونرى من النافذة الاخرى فى الاسفل السقائف المبنية ، مخازن الجمارك ، الافنية المفتوحة الى الداخل لا يخشى عليها من المطر ، فهو يسقط مرة او مرتين فى السنة ، نرى كيف تنمو تحت السقائف اكداكس اكياسنا ، التى دخلت الشواطىء اليمنية لأول مرة .

الاجراءات الجمركية ليست معقدة هنا ، تؤخذ الضرائب حسب عدد الاماكن ولا تتعدى خمسة بالمائة من سعر البضاعة ، الدولة اليمنية لا تزال حديثة العهد ، وقد امتدت من الجبال الى

البحر فى عام ١٩٢٥ فقط ، وشملت بنفوذها الحديدية ، وقبل هذا كانت الحديدية محتلة من قبل الانجليز وصنيعتهم الادريس (امير دولة عسير المجاورة) ، لم تدرك الحكومة اليمنية بعد كل قضايا السياسة الاقتصادية ، والبرجوازية اليمنية الميسورة لا تهتم الا بشكل ضئيل للغاية بتطوير الصناعة الوطنية كى لا تطالب بضرائب حماية كبيرة . لانها تفضل العيش على الصفقات التجارية ، وهى ليست على استعداد للتنازل عن تلك الارياح للخرينة ، التى يمكن ان تجنيها من الضرائب التى يدفعها المستهلك لصالحها وبالأضاله الى ذلك ، لا يستورد الى اليمن سوى المواد الاولية الضرورية وبشكل اساسى الدقيق ، السكر ، الكروسين ، الاقمشة ، الصابون والكبريت ، ولهذا فان السياسة الاقتصادية لم تخرج عن اطار التجارة الحرة البدائية ، فليس هناك لا بنوك ، ولا جمعيات المساهمين ، ولا جمعيات المساهمين ، ولا سياسة تحمى وتشجع الراسمالية الوطنية التى لا تزال بعيدة ، ان اسباب غياب البنوك وانخفاض مستوى الضرائب فى اليمن هو ان الحكومة ليست مرتبطة بمعاهدات غير متكافئة شكليا فقط بل ولا حتى عمليا يمكن ان تكون هذه الضرائب مرتفعة ، وليس ان القوآن قد حرم ذلك كما يفكر البعض .

اليمن ليست الصين او الهند ، يتحدث بفخر احد الوجهاء الذين قابلناهم ، فهى تستطيع رفع الضرائب ، ولكنها لا ترى الان ضرورة لذلك .

لكننا ضيوف ، يشعرون ان وقت الغداء قد حان ، نذهب الى الغرفة المجاورة ، نجلس على مائدة مستديرة مغطاه بعشرات الصحون من مختلف انواع الطعام ، هناك قطع من لحم الخروف ، والدجاج ، البقول ، البيض المقلى ، الارز ، وترتفع قنينة خاصة كبيرة من المشروبات ، يتناول مضيفنا امير الجيش واثنان من صحبته المقربين الطعام باصابعهم ، ويشرحون لنا انه من المألوف حسب الطريقة العربية الاكل بالايدي ، يرى العرب ان تناول الطعام بالشوكه او السكين يفقد طعمة ويكتسب طعم المعدن ، ومن اجل تذوق الطعام جيدا يجب تناوله بالاصابع ، وعلى كل حال ، وبتسامح ، ونتيجة لعدم خبرتنا بالاكل بالاصابع ، يقدمون لنا الشوك والسكاكين ، وبعد فترة تعودنا على الاكل بالايدي وبدأنا نشارك وجهة النظر العربية .

انتهى الغداء ، شربت المشروبات ، وبلعت اقداح القهوة الصغيرة ، يتركنا مضيفونا الوجهاء لراحة ما بعد الغداء ، ونرتقى على الاسرة المتنقلة منهكين ، تلك الاسرة التى اشتريناها ببعد نظر بواسطة الوسطاء فى بورسعيد .

تمضى فترة ما بعد الغداء ، ساعة ساعتين والبشر السمر لا يزالون ينقلون الاكياس فى الاسفل ، وفى الجهة المقابلة للنافذة ينعس بلا حراك بعض الحراس الذين يحرسون بنايتنا ، وكأنهم قد تجمدوا .

يصل سكرتير الامير ويخبرنا بان الامير مستعد لا ستقبالنا بعد ساعتين ، وحتى ما اردنا ، ويقول ان الحكومة تتوى شراء الدقيق لاغراضها وباسعار السوق ، ثم يستفسر عن امكانية استمرار وصول البضائع السوفيتية الى اليمن ، وهل يمكن ارسال مهندسين وخبراء زراعيين وآلات زراعية ، وعندما عرج الحديث عن المواضيع السياسية باغتتا فجأة يرجو توضيح جوهر الخلافات الداخلية فى حزبنا ، وقد اتضح انه قد سمع فى مكان ما ، او قراء شيئا ما عن التروتسكية ، الجدل الحزبى الداخلى ، وقد انعكس كل هذا لدية على شكل تصورات غامضة ، وحاول تصورها .

لقد شكى من الانجليز ، لانهم يطالبون بخروج قوات الامام من المناطق المحاذية لعدن ، الان ان الامام غير موافق على هذا ، هناك احتمال ان يتعقد الوضع ، وقد عاد العقيد الانجليزى جبكوب الى عدن من صنعاء قبل اسبوع صفر اليبدين ، ويخرج الايطاليون من الثقليعة ، لقد وقعت اتفاقية معهم قبل عامين فى صنعاء ، وحينها كان اليمنيون يأملون بان تاتى بضائع جيدة من ايطاليا ، وان يدافع الايطاليون عن اليمن ضد الانجليز ، لكن هذه الامال خابت ، اما الان فلا وجود للوهام .

وبعد قليل يخبرونا بانالامير محمد (ابن الامام ، وامير الحديدة) ينتظرنا فى القصر ، نعتلى البغال ، التى قربت الى البوابة ، ونحن لم نعتاد على مثل هذا الركوب ، ومثلنا ، ظلت الحيوانات فى مكانها ، غير فاهمة اوامرنا ، تحرك اذنيها بارتباك ، ياتى العسكر لمساعدتنا ، فيقودون البغال بمقاودها ، نتحول الى الزاوية حيث ينقلونا لسبب ما على الخيل ، يظهر ان هذا زيادة فى الاهمية . لكنه يتضح ان الخيل ايضا غير متعوده على الركاب الواصلين من وراء البحار ، اكثر من البغال ، فتسير ايضا منصاعة للعسكرى الماسك بعنقها .

نتحرك ببطء الى الامام فى غبار الشوارع المعتمه بمبانيه الطينية ، تخترقنا النظرات الفضولية من قبل المواطنين انصاف العراة لابسى العمام ، الذين يمثل وصولنا بالنسبه اليهم حدث كبير ، يحيينا اثنان من الاوروبيين مجاملة ، نعرف ان الاثنين عملاء شركات ايطالية محلية ، نمر قرب مقهى ، حيث يقعد ما يقارب عشرين شخصا تحت ظلال سقيفتها ، يجلسون على مقاعد مجدولة يمتصون دخان التبغ عبر قصب طوال شببيه بحبال غليظة متصلة باوانى زجاجية غريبة الشكل يفور الماء بداخلها ، هذا هو تدخين النارجيلة .

تنتهى ساعات ما بعد الغداء ، ساعات القات ، القات هو شجرة صغيرة لطيفة ، تحتوى اوراقها على بعض انواع المخدر على مايبدو ، ويعتبر القات المصدر الاساسى لمتعة جميع

السكان صغيرا وكبيرا ، دون التمييز فى الطبقة والسن ، وبعد ساعات القيلولة ، يشتري القات كل من يملك حتى بضعة قروش ، يضع قاته على السجادة او على سرير القش ، اوببساطة فى غبار الشارع ، يمزج اوراق القات الخضراء المخزونة قى فمه مسبقا الموضوعة بعناية على شكل حزمة مربوطة .

ينتقل الناس فى هذه الساعة الى حالة ارتياح مخدر ، ينفضون عن انفسهم بشكل مصطنع تعب نصف النهار المعاش ...

نمرق بين السقائف المعتمه لسور المدينة ، نبتعد خارج حدود المدينة ، نخلف المقبرة ، الخلاء الرحب الذى تتناثر فيه الاحجار بدلا من مشاهد القبور ، وعلى الجهة اليمنى - اكواخ طينية نصف دائرية ذات قباب وجداحة من القش ، نشعر هنا بالاسلوب الافريقى وبعيدا تتماوج مثلونه فى امواج الهواء المندفح جدران البناية الكبيرة ، النخيل على جوانبها ، والحرس انصاف المعراة عند بواباتها ، مشدوهون من اشعة الشمس المخدرة ، محترقون فى الغبار النارى ، نزل من فوق الخيول المقادة الى جناح القصر ، نصد السلم انصاف نائمين باتجاه غرفة الامير ، ان غرفة الامير ليست مكتب عمل بل غرفة للراحة ، وعلى الارائك المفروشه بالوسائد ، يجلس اشخاص انصاف مضطجعين يمتصون دخان النارجيلة بتلذذ ، وبرتابه يمزغون اوراق القات الخضراء ، وعند دخولنا نهض احدهم ، لا بسا عمامة خضراء وقميصا ابيض واسعا ، حيانا بالطريقة الاوروبية مادا يده ، هذا امير تهامة (الخط البحرى) الابن الثانى للامام ، الامير محمد ، وكان المحيطون به معروفين لنا لقد رحبوا بنا على ظهر الباخرة الامير - متوسط الطول ، اسود الشعر بلحية قليلة الكثافة . ملامح وجهة دقيقة ، ونظراته ذات تامل ، صوته هادى وذى جرس صادق يبتسم له كل الوجهاء ببشاشه وانسجام يلوحون بالمراوح بانتظام ، يدعوننا الامير للجلوس ، ثم يقدمون لنا الشربات والقهوة التركية ، يبدأ الامير الحديث ، وللأسف اسمع حديثة عبر المترجم ، لم يكن بمقدورى التقاط خصوصية حديثة الاحتفالى ، ولهذا فانى ساكتفى بالنقل الموثوق لمحتوى حديثة .

سيف الاسلام والبلاشفة الوافدون

قال الامير - نحن نعرف عن روسيا السوفيتيه ، وانه بفضلها نجحت تركيا فى النضال من اجل الاستقلال ، نعرف ان لديكم اهتمام باقامة علاقات حسنة مع شعوب الشرق .

ينظر كل منا للآخر باهتمام ، فللوضع فرادته : هو - ابن رأس السلطة الدينية -
الاقطاعي لليمن ، خلف اقدم السلالات الملكي في العالم ، التي تدعى نسبها الى النبي محمد
صلى الله عليه وسلم ، عليه عمامة ولباس حريري يتحدث بلغة القرآن الموزونة المنظمة ، المليئة
بذكر الله ومقتطفات من الكتب المقدسة - ونحن - الواصلين لتونا الى هذه الارض - ننتمى الى
الوطن الاشتراكي الشمالى البعيد ، البعيدون كل البعد ومن كل النواحي عن محدثنا ، نحن
مبعوثى سلطنة العمال والفلاحين ، ولاول مرة يلتقى وجهها لوجه بلاشفة روس وممثلوا
الارستقراطية اليمنية القديمة ، وبينما كان الامير يتحدث كنا نحن وجلسائنا نتبادل النظرات ،
وكانما لدى الجميع فكرة واحدة - عن الطريقة غير المألوفة ، التي التقى بها ممثلوا عالمين
مختلفين الى ذلك القدر من الاختلاف مظهرا ومسافة ، زمنا ومحتوى .

لكن الصيغ الدينية التي يتحدث بها الامير بدأت تتضاغل قليلا قليلاً وتحل محلها الصيغ
السياسية المألوفة لدينا تشق طريقها ، وشيئا فشيئا بدأنا ندرك ان اخبار واخلاق وطننا وصلت
حتى الى هنا الى اليمن المهجورة العائشة فى مرحلة ما قبل التاريخ ، انعكست بغرابه عبر
النفسية الاقطاعية الكليركية الاصيله مكونه تصورات فريدة خاصة عن بلدنا ، وبدأ شعورنا انه
حتى الفئة الحاكمة تميل الى اعتبارنا وكأننا معاريف وتنتظر لنا بقدر كبير من احتياطي الامل
والثقة ، وانه سيسوى مع الزمن كل الفرق الهائل بين الوجود التاريخي والاجتماعي لبلدنا .

وبعد ان تحدث الامير عن التجارة ، وبعد ان وعد بانه سيساعدنا على رواج بضائعنا ، بدأ
الامير يستفسرنا بالتفصيل عن الوضع العالمى ، أخذنا بلدا بعد بلد ، استعرض باهتمام الصور
الفوتوجرافية التي جلبناها ، وفى الاخير وجه مجموعة من الاسئلة عن الوضع فى الاتحاد
السوفيتى ، ونضطر ان نعيد له رواية وجهة نظرنا حول الاحداث فى الصين وجوهر الخلاف مع
التروتسكية (لم يعرف هذه الكلمة بالطبع ، ونحن لم نعرف بسرعة ما الذى كان يقصده) ،
يسأل حتى عن " قضية المنجم " ومصير المهندسين الالمان فى الوقت الذى لم نعرف فيه نحن الا
فى الباخرة عن طريق اذاعة التقطت الصدفة بان قضية المنجم " قد بدأت "

وفى نهاية حديث سيف الاسلام - هذا هو اللقب الرسمى للامير - يقوم بمحاولة خطيرة لد
جسر بين وجهتى نظرنا ، ويقرر قرابة الاسلام مع البلشفية ، والقرآن مع برنامج الحزب
البلشفى .

- ان نبينا ايضا قد دعى لضرورة المساواه والاستخدام المشترك للارض وحرم الربا
وعاش فقيرا ... اما نحن فقد ابتعدنا عن الدخول فى جدال عن المواضيع الدينية .

ثم تتبادل الآراء حول بعض القضايا الأخرى وينتهي الحديث ، يقول لنا بأن السفر الى صنعاء مرتبط برغبتنا فقط ، علينا تحديد يوم السفر وسيقدم لنا كل وسائل الحركة مع حراسة ومرافقين . نعود بالكاد واصلين الى البيت ، ومرة أخرى نرتقى منهكين على الأرائك والاسرة يبدو اليوم طويل للغاية لفيض الانطباعات ، نجلس للعشاء على ضوء مصباح الكروسين الباهت

الجاسوس المفصوح

... كل شيء يبدو جيدا ، لولا هذا المترجم الذى لا يطاق ، فؤاد المصرى يقعد معنا بلجاجة ، لا يبتعد عنا حتى اثناء العشاء ، يلح بأسأله الوقحه بما فيه الكفاية يحاول ان يعرف كل ما تحدث به بعضنا البعض يعرض خدماته بالحاح فى البحث عن مقر دائم لشركتنا ، نحاول ان لا نعيده اهتمام ، لا نتحدث معه لكنه يظل جالسا بثبات ، وباصرار حتى نبدأ بالتهيق للنوم .

ننام تحت هدير الامواج الذى لا يهدأ ، وتحت ملاطفة النسيم البحرى الذى يخفف انحباس الهواء الذى لا يطاق فى اليوم التالى ياتى امير الجيش قلقا ، يبلغنا نصيحة الامير بعدم التحدث مع احد حتى عن اصغر الاشياء الجدية ما خلاه ، الحديدية تعج بالناس المشبوهين ، فالمترجم فؤاد مثلا ليس مترجما للمحافظ على الاطلاق بل هو عامل جمرك ذى علاقات غامضة ، ماكاد ينهى كلامه ، حتى يدخل فؤاد الغربة مندفعاً متهللاً مختالاً ، وعلى فمه ابتسامه راضية وكأئنا معاريف معه قدما انهال علينا .

– اية ، ايها السادة ، بالنسبة للمقر ... فلقد وجدت لاجلكم مكان ...

يسقط نظرة على وجه امير الجيش القاسى الشبيه بالباشق ، فينكمش وينحنى ، يسمع الى كلمة ما قصيرة تجعله ينكمش اكثر ، ويطير غير مكمل عبارته التى بدأها .

نعلم بعد بضعة ايام انه سرح من الخدمة ونفى الى جزيرة كمران المحتلة من قبل الانجليز ، لم يبق لنا سوى التحسر على علبة الكافيار ، التى تقاسمتها معه من اختياطنا الضئيل ، وعلى فيضان المشاعر فى اليوم الاول ، وعلى كل حال فإن نفية لم ينقص سوى قطرة من بحر الدسائس الاجنبية التى تغمر اليمن الصغير ، وقد حدثنا بعض الشخصيات اليمنية فى صنعاء فى وقت متأخر :

فى الأذقه الخانقة بالحديدة

يوم ، واخر نتجول فى شوارع الحديدة ، نحاول التقاط نبذة وإيقاع المدينة المجهولة .
شوارع ضيقة ، عتمه ، اختناق ورطوبة ، تحت السقائف القشيه والخشبية فى السوق ،
بجانب الاكياس والسلالة ، يجلس ناس معممون انصاف عراة يلوحون باعيا بما يشبه المراوح
اليديوية ، وفى الاكياس بصل وبطاطا ، تمر جاف مغطى بالعفن ، قشر البن ، دخن ، ذرة ،
تجلب التمر من بلد الرافدين ، اما كل ما عداه فهو انتاج زراعى محلى .

فى صفوف الاقمشة ، - اقمشة هدية فخمة ، ديباج مخيط بالقضة ومطرز بالاحجار
الملونه ، والى جانبها تسقط المتاع ، اقمشة يابانية رخيصة من صنع شانخاى وتشكيلة من كل
انواع الاقمشة هندية خفيفه والمانيه - ونمساوية وايطالية وانجليزية من صنع مانشستر ،
وبالطبع توجد مصنوعات يمنية خالصه مثل السجاد الخشن من الخيش ، الحواشى ذات اللون
الابيض والاحمر اللون الاحمر الخالص تصنع من القطن المحلى وتصبغ باصباغ نباتيه
محلية .

ومن البضائع الاجنبية التى تلفت النظر : الدقيق الهندي الابيض الذى يصنع منه خبزاً
شهياً بأرغفه النشاء ، بدون طعم يجف خلال بضعة ساعات السكر من يافا وتشيكوسلوفاكيا
، الكروسين من كل الشركات : " ستاندارت اويل " ، " شل " وحتى " فيوميه " من ايطاليا ،
كلها تتنافس مع بعضها البعض فى ازقه الحديدة الضيقه ، الكروسين الايطالى هو فى حقيقة
الامر من مدينة " باتومى " السوفيتية لكنه مخفف فهو لا يصلح لشيء .

السوق

بائعو الخضار ، القشامون ، بائعو البضائع الصغار - كلهم من العرب المحليين ، اما
الاقمشة بشكل عام البضائع الاجنبية فتصرف بها الهنود غالباً ، هؤلاء الهنود - وعددهم
يقارب المائة كلهم تقريباً من مواليد سرات ، تلك المنطقة الهندية ، التى عرفت بادىء ذى بدء فى
تطور الصناعات الوطنية الهندية انهم من المسلمين وكلاء شركات بومباى وهم على ارتباط بها
بواسطة قروع عدن ، لحي كثيفه عريضه ، اطواق على الرأس تجعلهم يتشبهون باليهود ، لكن
هذا ليس سوى خداع للنظر ، تتركز تجارته الخارجية فى الحديدة بايدي الهنود ، اما التجار

تنهق الحمير وترغى الجمال ، المعدمون يمدون ايديهم يطلبون الصدقه ، يظهر المجانين والبلهاء المنفردون هنا وهناك يصرخون بعبارات غير مفهومة ، تدق مكائن الخياطة ، يخشخش البن على المناجل والمذارى ، يتصبب العتالون السود عرقا ، ينقلون الاكياس من المخازن على الشاطيء ويشحنونها على الصنابيق ، وينقل مالكو القوارب الحمولة الى ظهور البواخر الراسية بعيدا عن الشاطيء .

فى المساء تضىء مصابيح الكروسين تحت العقود الضيقة لسقائف السوق ، يبدأ تلالأها بشكل اكثر غرابة واثارة لزخارف الاقمشة الهندية ، والاكياس الشوهااء لقشارة البن ، والطباق الطويلة لاوراق التبغ الجاف المفروشه على المناضد القذرة فى الدكاكين ، فترة الغسق قصيرة وسريعا ما تحل ظلمة حالكة ، تغلق الحوانيت ، تصر بوابات السوق الرئيسية المتداعية عند اغلاقها ، يظل الناس جالسين فى المقهى ، فى الساحة على مقاعد وسخه من القش ، والباعة ، العساكر ، الموظفون يظلون حتى ساعة متأخرة من الليل يدخنون النارجيلة ويشربون القهوة القشر او الماء البارد براحة الكف .

الى الشمال والى الشرق من السوق ، وخارج جدرانہ معزول بخط عريض ، ليس بشارع وليس بارض خالية ، يمتد الحى " الصناعى " يسمى - سوق الهند ، هذا السوق الذى يتميز بانه لا يوجد على ما يبدو فيه ولا هندی واحد ، يشبه " مدينة الصين " السوفيتيه ، التى نادرا ما تلتقى فيها بصينى واحد ، هناك ايضا سوق صغير لكن حوانيته اكثر بؤسا ، وفى اكثر اطرافه الاكواخ الصغيره من الطين والزجاج المكسر المغطاه بالقش ، ومحاطة بحواجز مجدوله من القش ، وفى هذه الاكواخ - الخيم تتكدس الصناعة اليمنية الجنينية بعمل النساجين البدائيين .

كلا ، ليست هذه معامل ؟ فوراء الحواجز لا توجد اعمدة الدخان ، ولا تسمع حتى دقات المغازل ، لكن يمكن رؤية شخصين نصف عاريين قاعدين على الارض يترامون بالتناوب بمكوك خشبى عبر صف من الخيوط المشدودة ، هكذا يتشكل النسيج الخشن بالتدريج ، ثم يصبغ فى المصابغ بطريقه يدويه باللونين الاحمر والازرق ، ويسبت بضربات قوية من مذاق خشبية غليظة غير منجرة ثم يفرش تحت الشمس . يمكن احصاء ما يقارب العشرين من هذه الاكواخ فى الحديدية ، وهذه هى جنين الصناعة الخفيفه لليمن ، اما الصناعة " الثقيله " فهى ، فى القسم البحرى للحى الموجود خارج المدينة حيث يوجد كوخان او ثلاثة . تنتقد النيران على الارض ، وفى المجرمة ، ينفخ على الفحم من قرب عبر انبويتين (*) . يجلس شخص القرفصاء يحاول

(*) - يقصد الكاتب كير الحدادة

مساعدة هذا " القرن " البسيط باصلاح المسامير القديمة ، اللوالب ، ترميم الاشياء المعدنية هكذا هي " المتالورجيا " المحلية .

السفن القديمة

وهناك ايضا - بناء السفن ، فى المكان الفحل من البحر يقف هيكل قارب وحيد لم يكتمل بناؤه ، وبجانبه يتحرك مجموعه اشخاص يدفون اللواح ، يثبتون الدقه ، وبالقرب - عصى واللواح واخشاب ، خمسة او ستة قوارب تتراقص على الامواج ، وبجانبها عشرة صيادين شبكة الصيد ، وعلى الرمل يجلس عجوز عارى يرمم شبكة قديمة ، هذه - صناعة السفن المحلية واستخراج السمك ايضا .

الساحل - هو افضل جزء فى المدينة ، مهواء بنسيم البحر ، هنا تقع افضل المنازل ، وان لم تكن فخمه فهو مع ذلك الاكثر اعتبارا ، بهجة تطل على البحر وهنا توزعت كل الشركات الاجنبية تقريبا : شركتان او ثلاث شركات ايطالية ، وشركة يونانية ، وشركة مصرية ، وشركة فونسية يمثلها احد السوريين ، الذى حافظ غريزيا على اليافطة القديمة لشركة سفن فرنسية ، تلك الشركة ، التى لم تعبر الحديده ولا واحده من سفنها منذ زمن طويل ، يهدف نشاط هذه الشركات الى شراء البن وتصديره الى الخارج بشكل رئيسى ، وخدمة البواخر الاجنبية التى تمر فى الميناء ، هكذا ينمو رأس المال الاجنبى ، الذى لا يجد اصل فى اليمن ، لكن حتى هذه الشركات فانها على ما يبدو فى طريقها الى الاندثار ، نظرة سريعة واحده تقول لنا بأن التصور القائم حول التأثير الايطالى القوى فى اليمن ، هو من صنع الايطاليين انفسهم بشكل رئيسى ، وقد تعزز هذا الانطباع بعد حصولنا على الاحصائيات الجمركية فى الحديدة .

رأس المال الأجنبى

واذا تحدثنا عن دور رأس المال الاجنبى فى اليمن ، فانه يجب وضع التجار الهنود الذين سبق ذكرهم فى المرتبة الاولى ، انهم حملة التوسع التجارى - الصناعى الهندى ، الذى لم يجد امكانية للتطور فى بلده المستعمر ، بسبب كبتة بالاضطهاد الامبريالى الانجليزى ، يقتدون بمثالهم الرأسمال الصينى ، الذى يهرب من الصين الى جزر زوند ، وسيام والهند الصينية ، وهكذا فان الهنود يرحلون الى اليمن ، والمصريون الى الحجاز ، يزاحمون فى قاعدتهم

الوطنية ، من قبل الامبرياليين الاجانب ، فيسعون الى ان يعرضوا انفسهم على حساب الشعوب الاكثر ضعفا .

تبرز المحطة التجارية للبن ، بين المشاريع العربية التي ترمز الى نمو الرأسمالية الوطنية اليمنية ، تلك المحطة الواقعة على الرصيف ويملكها عمر المزجاجي اكبر مصدرى البن ، كما يشاهد " فندق " حكومى للضيوف الاقل الاكثر وجاهة .

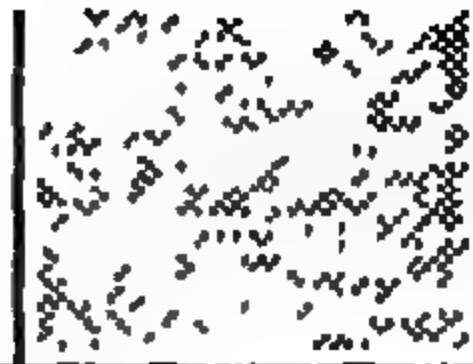
اخيرا فان اجمل بيت و هو بيت المحافظ ، الذى اسكنونا فى احد طوابقه كعلامه تشريف خاصة هذه المرة ، هذه البيوت ذات طراز واحد : ثلاثة او اربعة طوابق بيضاء ، تكعيبات مختلفه من النوافذ ، سقف غالبا ما يكون مقسما الى غرف تغطيها السماء بدلا من السقف ، التقسيم المعتاد للبيت - تكون الغرف المأهولة بالسكان فى الطوابق العليا ، والمخازن ومساكن الخدم والحرس والمكاتب فى الطوابق السفلى ، ولكل بيت فناء داخلى ، ويشكل سور البيت ، شرفات داخلية وسلالم متعرجة ، ومن ضمن المنازل الموجودة فى الساحل - بناية خشبية صغيرة والى جانبها مقهى - ادارة الميناء وفيها مركز نشاط مدير الشرطة ، الذى يقوم بالمحاكمة والقمع فى الحال ، هو الذى يستجوب المتهمين ويعاقبهم بيده ، اما بالسوط ، او بقبضته وذلك حسب الظروف ، بدون بيروقراطيه او مماطلة ، زد على ذلك يتم بوجود رقابه "رقابة جماهيرية " . كل شىء يتم امام اعين الجمهور المتجمع عند الرصيف .

وعلى جهتي الحديدية ، الى الشمال والجنوب منها قلاع صغيره مسقوفة ، وابراج وحاميتان : - هذه القلاع - للدفاع عن المدينة من القبائل الغير مأمونة المحيطة بها : يختفى الإنمط العسكرى فى الحديدية صباحا ، وذلك بانتعاش تجارة السوق ، اما فى المساء ، حين يهدأ السوق ويخرج العس الى الشوارع يحرسون مداخل ومخارج المدينة ، فان النظام العسكرى يلمس بكل اكتماله .

يسرع الساهرون الى بيوتهم تحت صرخات العسكر ، اما عابرى السبيل المتأخرين ، فلا يسمح لهم بدخول المدينة الا بعد مباحثات وتوضيحات مطولة .

وحتى الصباح يذكر العسكر بانفسهم ، باقامة السير النظامى فى الاعياد فى الساحة وبعد الصلاة فى المسجد وهذا تقليد باهت للاتراك ، وكذلك مرتين كل يوم بعد انتهاء ساعات القات وبعد غروب الشمس ، تنتظم جوفه نحاسية امام البيت الذى يسكن فيه الامير ، وفى تلك اللحظة تدوى باصوات حادة ثاقبة بالمارشات العسكرية التركية ، خارقة بذلك السكينة الناعسة للارقة .

وعند الفجر فقط ، حين تغطس مجموعة من القامات العارية التى تستحم منفردة فى مياه
الامواج ، حين تقلع صنايق الصيادين من الشاطئ ويصبح برميل الماء الذى ينقله الجمل
فى الشارع متوقفا عند كل بوابة - يذهب العسس وتبدأ الحياة الطبيعية فى
الغليان .



الباب السابع

* ليلة ضائعة في تهامة

* على سيارة إلى باجل

* الفئران الطائرة

* الرهينة

* جيکوب

ليلة ضائعة فى تهامة

نتجهز ، نتفرق إلى مجموعتين ، اثنان يذهبان إلى صنعاء واثنان يبقيان فى الحديدة .
الأشياء قد حُزمت على الجمل - الذى سيسبقنا بنصف نهار ، الجمال تسير ابطء من البغال لكنها أكثر انتظاما نستعد للرحيل على البغال ، تفرد لنا حراسة بأمر من سيف الإسلام ما يقارب درزينة من العسكر تحت امره شاويش ، فى المغرب نقوم بزيارة وداع للأمير ، ونستمع منه إلى نصائح قصيرة حول كيف ومع من نتحدث فى صنعاء ، نتحرك برفقة حرس المشاة ببنادقهم المعلقة على اكتافهم ، يخرج معنا رتل من المودعين إلى خارج حدود المدينة ، يطوبر العسكر الواحد بعد الآخر ، يبتعد المودعون ، ها هى البغال تسير بانتظام تتناوب أرجلها غير المنعلة لتحملنا على السطح المظلم .

تبتعد واجهات البيوت البيضاء عميقا ، يخف لمعان البحر ، تتراعى المساجد ومراكز الحراسة ، واكواخ مشارف المدينة ، بضعة نخيل ، وما هو التبخر الخانق للسهل الرطب يلفنا .
لا شئ فى الامام ما عدا اشباح التلال الرملية ، نشاهد اكمة الحسك على الجوانب ، وبالكاد نلاحظ خطوط الطريق الضائعة فى الرمال ، ومن بعيد نسمع نباح كلاب الببو التى تحرس قطعان الجمال المتجولة التى يلفها الظلام الدامس .

يرفع العسكر اصواتهم بأغنية ذات نمط واحد وهم سائرون ، تلك الاغنية التى يبدو ان لا احد يفهم كلماتها ، بل وليس معروف ان كانت هناك كلمات ، يمكن فهم كلمة " الله " فقط فى بليلة الاصوات الحجرية المبهمة ، الصحراء صامتة بحذر تضمننا فى ممساکها الخانق الساخن ، تبدو فى السماء نجيمات اربع موزعة على شكل صليب صحيح قريبة من الافق الجنوبى ، تؤكد مجموعة النجوم " الصليب الجنوبى " مرة اخرى اننا لسنا بعيدين عن خط الاستواء ، وعلى بعد آلاف الكيلومترات من الاراضى السوفيتية لسنا اول بلاشفة فقط ، بل واول روس يسيرون فى مجاهل هذا البلد الذى يبدو بشوشا مضيفا والذى لم يرانا ولم نراه .

على سيارة إلى باجل

يهدأ نباح الكلاب البدوية قليلا قليلا ، يلتحق " الصليب الجنوبى " بالسحب ، ثم تغطى كل السماء بالسحب ، فى هذه الظلمة ، حيث تسمع نبضات القلب وتحس بتوتر اعصاب الصدغ ، وبحدة متميزة نشعر بأنفسنا شرارات الثورة العالمية التى تطايرت حتى إلى هنا ، إلى البعد السحيق للصحارى العربية الجنوبية .

نسير ساعة ، ساعة أخرى وثالثة ، وفى الظلام تترأى ملامح آبار الماء ، حفر كبيرة عليها حائط من الطين ، يملأه العسكر الزمزميات ، يشربون الماء بشراهة ويقترحون ان نعمل مثلهم ، تمتد الايدى بلا ارادة لعلبة الصفيح المغرية والمسدودة بكل تكرم ، لكن فكرة احتمال ان يكون هناك ، فى قعر البئر هيكل عظمى لجمل ، (ومثل هذه الحادثة ليست نادرة) يمنع الشفاه الجافة من المياه الوسخة العكرة رغم اغرائها ، نتحرك ، تضيق الممرات وكأنها قد اختفت كلياً ، تبدأ البغال الخطو على الرمال اليابسة مخترقة الشجيرات الشوكية احياناً ، نبدأ التخوف من ان نكون قد اخطأنا الطريق ، لكن هل يمكن الشك بـ " ابناء الصحراء " فى معرفتهم طريق الحديدية - صنعاء ؟ نتذكر الحكايات عن مقدرة البدو على معرفة الاتجاه بواسطة الحشائش ، النجوم ، هبوب الرياح واثار الحوافز ، يبدو ان الشك فى امانة قيادتهم نوع من التجديف ، يعدونا بالتوقف بعد ساعتين ام ثلاثة ساعات ، فى قرية تمنه الصغيرة ، التى تقع فى منتصف الطريق بين الحديدية ومركز باجل الكبير ، يوجد فى تمنه اسرة ، ماء ، قهوة القشر الساخنة ، هناك تنتظرنا فترة استراحة طالما اشتقنا لها ، وبالفعل سرعان ما ظهرت اضواء بعيدة .

تحت البغال الخطى سائرة خائفة فى بعض الاحيان ، يوضح لنا العسكر بان تمنه ترى فى الامام نشد على اسناننا بقوة لكبح الانهاك اللامحدود من الارتجاجات والحر والعطش والكتمة والرشح نشعر بأنفسنا كبيض غسلت ضرباً بالعصا ، وان كانت قد سيطرت فكرة اننا قد قطعنا المرحلة الاولى من الطريق تقريباً (وبعد زمن عرفنا ماذا تعنى كلمة " تقريباً " فى اليمن) . تشتد العضلات والاعصاب وكأنها صوملة فولاذية مخفية ، فالاضواء رغم انها بعيدة لكننا نراها فى الامام ، ينبسط التموج المتحدب للسهل البعيد ولاجمات الاشجار (كالسلك) والاماكن العارية الجذباء واحجار الملح المتبخرة تصير الاضواء اكثر فأكثر اغراء ها هى الحزم الضوئية تتلألأ عن قرب وكأنها صادرة عن كشاف ضوئى احترنا ، من اين مثل هذه الاضواء الساطعة فى قرية بدوية نائية لا توجد فى أية خريطة أوربية .

الاضواء اكثر فأكثر سطوعاً ، ولم يبق للوصول إلى القرية سوى نصف ساعة من الطريق ، وفجأة يقطع العسكر اشارة التوقف للراحة ، سنستلقى على الأرض التى لم تبرد بعد من قيظ الشمس ، نحلم باننا سننام قريباً على اسرة من الحبال المقتولة ، وقرب الصباح سنكون قد وصلنا الى باجل التى تقع ورائها الجبال الباردة ، منابع الماء البارد وصنعاء المشتهاة .

لكن العساكر يتهايمسون فيما بينهم طويلاً وبشكل مثير للريبة ، يقترب رفيقى منهم ، يقولون له : امامنا الحديدية ... انذهب اليها ام نرجع مرة اخرى الى السهل ؟

يتضح فعلاً باننا قد اخطأنا الطريق ، وذلك لان العسكر فى بحثهم عن طريق مختزلة ، التبس عليهم الامر ، وبعد ان قطعنا خطاً منحنيًا فى الصحراء الى حيث انطلقنا ، ولم نفهم خطانا الا ونحن على مقربة من اسوار الحديدية ، حيث كنا قد رحلنا منها قبل اربع أو خمس ساعات ، تائهون سدى فى قيظ تهامة المضى .

ان موجة الغضب التى اجتاحتنا امام هذه الحقيقة القاسية والواضحة غير قابلة للنقل او التعبير وما كان يمنعنا من ابداء مشاعرنا إلا ادركنا لمهمتنا السامية ، وتخوفنا من أن تكون بعض الكلمات الروسية معروفة حتى لأبناء الصحراء ، فتسبب لسمعتنا .

لقد كان طلب توضيحات من العسكر أمر زائد عن اللزوم ، وعلى كل حال ، فإنهم كانوا قد ردوا على كل هذا بجواب مفحم : " هذه مشيئة الله " . حتى أن مجرد التنفيس وافراغ ما فى النفس كان صعباً وكان العتاب واللوم ممنوعاً ، وذلك لأن دليلنا كان منهك القوى ومملوء بحالة احباط واستسلام نفسى ، كما أن ذخيرتى من اللغة لا تتعدى كلمات " جيب ماء " ، " الحمد لله " ، وكذلك " السلام عليكم " و " بخشيش " . وكل هذه الكلمات لا تصلح لهذه اللحظة أو للغرض الان ، فالماء قد انتهى عند العسكر ، وشكر الله أقل ما يناسب الظرف ، ولا يوجد أحد لنسلم عليه ، ويبقى فقط مغالبة العسكر بحرمانهم من " البخشيش " ، تعزية خفيفة لضياح أيام ، وليلة ضاعت سدى بدون نوم .

- أمر جيد بأننا رجعنا إلى الحديدية ، أما لو كان سيرنا يمينا إلى الجنوب ، لـ " وقعنا مباشرة فى يد الزرانيق " .

والزرانيق - هى قبيلة تقع على مسافة خمسة عشر أو عشرين كيلومترا إلى الجنوب من الحديدية ، وقد انتفضت على الامام بتحريض من الخارج ، ولو وقعنا فى قبضتهم ، فإن عساكر الامام كانوا سيقتلون بلا شك ، أما نحن ضيوف الامام فكانوا سيحطمون عظامنا أو ربما شئ آخر ، ونضطر لأن يكون هذا عزاؤنا .

ندخل إلى شوارع الحديدية الخالية ببطء مرهقين ومشعثين ، ينادى علينا الحرس انصاف النائمين ، ويستمعون حائرين لشرح عسكرنا ، نصل إلى البيت نتهاك فى غرفنا (غضب رفاقنا الذين بقوا فى الحديدية بفتور وقد كانوا نائمين) وشرب كل واحد منا - وهذا اربعهم أكثر - سبع أو ثمان من قوارير المياه المعدنية . ثم نرقد بعد ذلك ونحن فى غاية

الاعياء بعد أن حصلنا من الشاويش على وعد بان المحافظ سيسعى فى الصباح لتجهيزنا بسيارة ، ننام وملىء اذاننا المثل القائل " ثق بنفسك فقط ، ولا تثق حتى بالعربى فى الصحراء " . (١)

نفذ سيف الاسلام وعده ، وتتخذ اجراءات ما بطولية لتجهيز السيارة ، وفى الساعة العاشرة تقريباً من اليوم التالى ، نرحل على سيارة غريبة الشكل تنهب الصحراء تحت شمس الظهيرة المنصهر (إلى بأجل) ، ومع ذلك فى خلال ثلاث - أربع ساعات .

والسيارة التى أعطيت لنا هى عبارة عن سيارة نقل بسقف مركب ، ومثبت بداخلها مقاعد خشبية مليئة بصفائح الماء ، الذى يجب أن يصب على المحرك المكشوف الساخن كل خمسة عشر أو عشرين دقيقة .

وهذا العمل يشد الصوملة فتندفع سحب البخار ، الذى يفح ، فيصب عليه الماء من الصفيحة فوراً السائق سودانى شأنه شأن أغلبية العمال التقنيين فى الحجاز واليمن . يتطلب الأمر الخروج من السيارة أكثر من مرة ودفعها بجهود مشتركة تنتشلها من الرمال الحارقة .

تكون الطريق فى البداية مجاذية لشاطئ البحر ، نشاهد فى البعيد تقاسيم شبه جزيرة ونخل متمایل ، لقد نوى الفرنسيون قبل الحرب مد سكة حديد من شبه جزيرة رأس الكتيب إلى صنعاء وقد بقيت فى الحديد قاعدات عربات صدته مرمية هنا وهناك كذكرى لتلك الطريق ، وبعد نصف ساعة نلف إلى الشرق مباشرة ، قاصدين أشباح الجبال البعيدة البادية فى الأفق ، نقطع تهامة ، تاركين إلى اليسار الطريق الشمالى لليمن تلك الطريق التى تؤدى إلى مناجم الملح الحجرى فى الصليف وإلى ميناء الحية والميدى .

تهامة - هكذا يسمى القسم البحرى من اليمن والممتد من الشمال حتى الجنوب من حدود البلاد ونقيض تهامة فهى الجبال ، ويضم القسم الجبلى من اليمن الجزء المركزى والأساسى فى

(١) هذا المثل غير صحيح ، حتى فى هذه الحالة ، فالقضية تكمن فى أن مرافقنا من العسكر كانوا من سكان الجبال ولهم فترة قليلة فى تهامة . وتحت تأثير الجهل الاوربى فقط يمكن احتساب كل العرب " ابناء الصحراء " وبدو الصحراء هم من البدو الرحل فقط ، اما ما يتعلق بالفرق بين الجبل وتهامة فيمكن أن يشهد على ذلك حتى تقسيم الجمال فى اليمن إلى جمال جبلية وجمال صحراوية والفرق يشير إلى كيف يكون الجمال فى الصحراء أو العكس . (المؤلف) .

البلاد ، أما القسم الثالث - فهو ما وراء الجبال الذى يمر عبر الصحراء وهو قسم معزول نادرا ما يكون مأهولا بالسكان وأهميته ثانوية .

وتهامه فى قسمها الملاصق للبحر مباشرة هى عبارة عن سهل فسيح ، من قعر البحر المتبخر بتلاله المتجمدة الشبيهة بالأمواج ، وأشجار الساكسول النادرة على قمم التلال ، ونادرا ما تخرق سيول المياه هذه الأرض القاحلة ، وواحات من بعض نخيل غير مثمر أو قطعان النعاج والجمال التى ترعى ، يصادف فى الطريق بعض المسافرين المنفردين على بغال أو على الحمير ، قوافل من عشرين جمل تحمل أكياس البن ، وفى النادر يترأى شبح غزال رشيق أو أرنب يركض فزعاً من هدير السيارة ، وهكذا نمر على نمرة ، التى اتضح أنها قرية تتألف من أربعة أو خمسة أكواخ من القش ، متجمعة حول بئر صغيرة ، والمساء المشتبهى لم يعد الآن ضرورياً ، لذا فنحن نسير بلا توقف ، وراء نمرة تبدأ المنطقة بالانتعاش تصوير الجبال أكثر وضوحا ، ولم تعد الرطوبة البحرية الخائفة ملموسة ، وتشاهد قرى كبيرة فيها من أربعين - إلى خمسين كوخ أو أكثر ، ويحيط الأطفال السمر الصغار بسيارتنا جماعات حين نتوقف لصب الماء فى المحرك ، نرى حقول الذرة والشعير ، بدأنا نصادف سيقان الاثل المعوجة ، كانت هذه الاشجار فى البداية منفردة ، ثم أصبحت بأعداد كثيرة ، مبعثرة فى السهل ، كالجنود فى شتى الاتجاهات ، كنا نعبر أحيانا مجرى نهر قد جف وتجر ، يجرى فيه سيل صاخب فى وقت نزول الامطار ، لكنه يجف مرة أخرى بعد بضع ساعات ، ها هى الجبال تصبح قريبة جداً ، نجتاز أول مجموعة منها ، نقرب من باجل .

أصبح أصعب قسم من تهامة وأكثرها كثافة فى الخلف .

الانطباعات عن هذا القسم ليست مسرة للغاية ، من الواضح أن هناك سكان حضر ، ولا يوجد هناك رجل تقريبا ، توجد هنا زراعة المحصولات - كل هذا يشكل عوامل تفوق على الخلفية العربية العامة الكثيبة ، ويميز هذا تفوق تهامة على الحجاز .

ومع هذا كله ، كم هو بعيد حتى عن مفهوم " العربية السعيدة " كما اعتبرها الرومان القدماء . ان كل ما نراه من المساحات ليس أكثر من سهل ذاو وشحيح تحرقه شمس حارة خانقة . يعتبر هذا القسم أكثر أقسام اليمن تخلفا اجتماعيا ، فالتقسيم القبلى يلمس هنا بكل حدة ، تقبع الاقطاعية فى أول مراحلها ، وبالكاد تنفقس قشرة العلاقات البطريركية - العسكرية والقبلية ، والشعور بالقومية العربية ضعيف هنا ليس بحكم الاسباب الاجتماعية المذكورة فقط ، بل وبحكم العوامل الاتنوجرافية أيضاً . يلاحظ على السكان اختلاطهم بالدم الافريقى ،

ويلاحظ تأثير افريقيا على الشكل العرقى ، ويؤكد ذلك اللون الشديد السمرة للبشرة ، الوجوه العضلية بالشفاه الغليظة . أن الغزاة الأحباش ، قد كانوا أول من أيقظ الوعي القومى عند العرب ، كما قال ماركس فى زمانه (بالأصح سكان جبال اليمن) ، لكن الأحباش كما هو واضح قد تركوا آثارهم الاتنوجرافية على شكل المباني المهتمة فى الجبال ، وعلى الجنس أو العرق التهامى فى الساحل ، ان هذا التفرد الاجتماعى والاتنوجرافى لتهامة يجد تعبيره فى الدين : كل القبائل سنية فى تهامة ، فى حين ينتمى سكان الجبال إلى المذهب نصف الشيعى - الزيدية فى نفس الوقت ، وكانت حصيلة هذه الخصائص بالاضافة إلى عوامل كثيرة أخرى ذات صفة اقتصادية (سنتحدث عنها فيما بعد) قد أدت إلى ثنائية معينة فى تركيب اليمن ، فقد لعبت تهامة دورا ملتبسا بما فيه الكفاية فى قضية توحيد اليمن ، لقد عملت الامبريالية كل ما فى وسعها لاقتطاع تهامة من اليمن ، وفى عام ١٩٢٥ انضمت تهامة تحت لواء الحكومة اليمنية فقط ، كانت تهامة خاضعة للانجليز فى أوائل اعوام ما بعد الحرب ، وبعدها خضعت للامير الادريس امير عسير ، لقد لعب الانجليز بمهارة على الاختلافات الدينية بين سكان تهامة وسكان الجبال ، وقد سعوا بكل الطرق لتأليبهم بعضا على بعض ، وهما فرعان لشعب واحد ، ضمت تهامة الى الى اليمن فى عام ١٩٢٥ فقط ، وقد تم هذا بمساعدة جيش الامام يحيى ، حيث لم يبقى للانجليز بعدها سوى مساندة ودعم التمردات الانفصالية لقبيلة الزرانيق ، الذين كدنا أن نقع فى قبضتهم ليلا .

ندخل باجل ، على اليمين ، فوق المدينة ، يطل جبل مرتفع ، نرى على قمته لون أسود أسنان قلعة قديمة ، تتكون القرية من أكواخ كثيرة مخروطية الشكل مغطاة بالقش ، محاطة بسياج من الاغصان المجدولة موجات غبار جديدة تلفنا ، حين نقطع الازقة الضيقة التى تنعدم فيها الرياح ، نشاهد السياج ، الدجاج ، الصبية ، الجمال المحملة ، الحمير ، تختبئ النساء بعجلة وراء أبواب الاكواخ ، ندخل الساحة الرئيسية ، نتوقف أمام بوابات مبنى ضخم يشبه قلعة بفناء داخلى وابراج فى الزوايا ، نشاهد بئرا فى الفناء وجمال تستريح ، هذا مقر عامل المنطقة ، وسرعان ما نسمع تحية شيخ ضخم أشيب اللحية ، إنه العامل ، نمر من غرفة الى غرفة حتى نصل الى غرفة الأكل ، حيث يجلسوننا على مائدة طعام أعدت سلفا ، نأكل شيئا ما ، إلا أنه بسبب الحر ، والتعب ، والارق لا يمر الطعام فى الفم إلا بصعوبة .

ننتظر الكاد نهاية الغداء ، نودع مضيفينا ، الذين يذهبون لمضجج القات ، يقودوننا الى مسكن بجانب بيت العامل ، لكى نرتاح بينما يصل الجمل المتأخر مع العفش .

نتوزع على القسم المستوى ، المغطى قسم منه بسقيفة من القش المقتول والمعمول على شكل غرفة ، عملت الاسرة وكأنها { مضجع بروكروستومى } ، كلها بطول واحد بلا إستثناء ،

تنقص الدبع عن قاماتنا تقريبا ، نضطر الى الاضطجاع إما مطويين أو معلقين أقدامنا ، ننام
نوما ثقيلا كأهل الكهف .

الفئران الطائرة

نصحو خلال ثلاث ساعات ، يهب القيظ المتناقص لليوم الاول من النافذة ، نسمع
صاخات فوق رؤوسنا بين العوارض الخشبية للسقف تصيح الفئران الطائرة ، تزحف صفار
الفئران على الفرمت الخشبية عاجزة أمام ضوء النهار الذي لم ينطفئ بعد ، بينما يوصوص
آخرون قابعين فى أعشابهم ، أعشاشهم ، تقع الام المستتارة من أصوات الرعب من على
العارضة الخشبية مندفعة فى الغرفة من زاوية إلى زاوية ، اندهشنا من عدم حب العرب للنظافة
، والذين يسمحون للفئران بالتكاثر على سقف بيت العامل ، وتدهشنا انسانياتهم المتفردة ، فى
عدم الرغبة فى هدم العش وقتل الحيوانات ، ونسمع فيما بعد ان اليمينيين ، لا يحبون
الصيد ، رغم انهم رماة ماهرين ، بغض النظر عن توفر الطرائد فى شعاب الجبال .

الوهينة

تسمع ضجيج ما فى الشارع ، الشارع الواسع المترب على خلفية من المساجد
البعيدة ، والأكواخ المخروطية الشكل من القش تتحرك مجموعة من الصبية المراهقين ، تحت
حراسة مجموعة من العسكر الحاملين البنادق على إكتافهم ، تضج المجموعة بغير انتظام ،
وجوه منتعشة جذابة ، لا تعطى انطبعا باأنهم مجرمون ، وأكثر من ذلك أنهم لابسون ملابس
بشكل لا بأس به ، يعبر عدم اكترائهم النسبى ، عن أن وضعهم تحت المراقبة أمر اعتادوا
عليه وصار مسألة طبيعية بالنسبة لهم ، يوضحون لنا أن هؤلاء هم رهائن قبيلة الزرانيق
المجاورة ، وأنهم أولاد أو أقارب الشخصيات المؤثرة غير المضمونة من قبائل تهامة ، لقد
أخذ هؤلاء الرهائن من قبل الحكومة كضمانة بأن قبائلهم وعشائهم لن تقوم بعصيان ضد
الامام ، وعكس ذلك يعنى أن تطير رؤوس هؤلاء الرهائن ، يعتبر نظام الرهائن هذا واحداً من
أحجار الزاوية لنظام الامام ، هكذا تسعى السلطة المركزية بفضله إلى اخضاع القبائل
التهامية غير المنصاعة لها بشكل كامل ، هذا الشكل الفريد للارهاب ، تقوم به الدولة الاقطاعية
الفتية فى اليمن ، ساعية لتوطيد كيائها ضد الانتفاضات الانقسامية وسيف التدخل الاجنبى
المسلط دوما .

تساق مجموعة الرهائن غير المنتظمة بالغناء والصراخ وكأنها قطع ذاهب إلى الحظيرة ،
تساق عبر البوابات المفتوحة للبنائية ، ثم إلى ملجأ المبيت .

تسمع أصوات المزمار الحادة ، والغناء غير المنتظم للأصوات المتعددة للمجموعة ، نتسلق
حاجز السقف فنرى ...

العامل الشائب اللحية فى عمامة بيضاء ممتطيا جوادا رشيقا ، وحوله صف من الجنود
يرددون نشيدا دينيا ما ، يمدح الله ورسوله والامام ، ينتهى النشيد بعد بضعة دقائق ، ويتحرك
العامل بهيئته إلى الامام ، يحيط به جمهور مختلط ، يذهب للمبيت فى الجبل فى القلعة ، فهناك
أكثر برودة وأكثر أمان اقترح علينا الذهاب إلى هناك للمبيت ، لكننا عزمنا على التحرك قدما
وبدون ابطاء بعد وصول جملنا ، ولهذا اعتذرنا شاكرين .

من جديد تسدل الظلمة الوحشية الحالكة ، يهدأ نهيق الحمير الممطوط ، ورغى الجمال
الغليظة ، ثغاء ومأمة الشاة والماعز والمسافة إلى الحظيرة ، لا شئ يرى ، فقط اشباح تلوح
مبهمة بلونها الأسود من كل الجهات .

نتحدث مع اثنين - ثلاثة من الضباط ، الذين استقبلونا مع العامل ، يسألوننا عن
البضائع الروسية ، عن نوعيتها ، عن ميعاد وصول الدفعة الثانية منها ، يطلبون نماذج ، لكنه
بالطبع ليس لدينا منها شئ ، وذلك لأن مؤسساتنا التجارية لم تولى اهتماما لتجهيزنا بأى
نماذج دعائية ، ننتقل بعدها إلى المواضيع السياسية ، نعلم أنه وصل طبيب ايطالى من
الحديدة إلى صنعاء فى اليوم الأول ، ويعتبر هذا الطبيب عمليا ممثلا ايطاليا فى اليمن ،
والطبيب على ما يبدو يسعى لاستباقنا ، وهذا ما سيتم له بالطبع ، وذلك لأنه قد وصل بالسيارة
إلى مسافة أبعد من المسافة التى توقفنا فيها ، وفى الوقت الذى سنرحل فيه نحن من باجل
على البغال ، وبعد ذلك يتذكر محدثنا :

- احتجزنا فى هذا المبنى فى الاسر بعثة جيکوب الانجليزية قبل تسعة أعوام .

جيكوب

- جيکوب - انجليزى متخصص باليمن ، وانجلترا لها دروس فى كل الدراما العربية ،
كأنها ممثل متخصص ، يسمح له باقامة أية حوارات ممكنة ، حتى الخروج على حكومته ، ومع
ذلك لا تفقد العلاقة مع البلد العربى الذى يخدم فيها هذا الممثل فقط ، كان يوجد مثل هؤلاء

الخبراء الانجليز لدى كل الملوك العرب : هكذا كان لورانس فى فترة الشريف حسين ، وفيلبى فى حكم ابن سعود ، وكان جيکوب يحوم حول الامام يحيى ، كان تقدم وارتقاء الشريف حسين اثناء الحرب العالمية قد صنع شهرة عالمية للورانس ، وحين ازبح الشريف حسين وجد لورانس نفسه خارج الحلبه ، انتصر ابن سعود ، فاذا بفيلبى هو المطلع والنشيط ، ينام على اكاليل الغار ، نتيجة لنفوذه ، وسمعته التى توطدت ، جيکوب فقط لم يجد لنفسه مستقر ، لقد ذهب جيکوب فى عام ١٩١٩ إلى رأس بعثة انجليزية كبيرة ليقوم بالمباحثات مع الامام يحيى ، لكنه فى باجل يجد نفسه اسيرا عاجزا من قبل القبائل الناشزة التى قررت عدم السماح له بالدخول إلى العاصمة اليمنية ، فى نفس هذا المبنى ، الذى نحن فيه ضيوفاً ، نتحدث بونام مع نفس اولئك الضباط العرب الذين قاموا بحجز (جيکوب) الذين ظلوا اسرى عدة أشهر فى ساحة السقف ، وكأنهم حيوانات متوحشة فى اقفاص ، ظلوا يجولون ابناء أقوى دولة فى العالم ، انهالت البرقيات المتوعدة من لندن إلى عدن ، وضغطت عدن على الحديد وصنعاء ملحة على أن يقوم الإمام بالتأثير على القبائل المتمردة ، تبرزت الجرائد العربية المصرية بالرسومات الكاريكاتورية عن " الطيور المصطادة " كما سمي الاسرى الانجليز ، حلقت الطائرات الانجليزية فوق باجل ، لكن الرجال حينها كانوا يلاصقون جيکوب واعضاء بعثته ، وقد اعطيت الأوامر إلى هؤلاء الرجال باطلاق النار على الأسرى إذا رمت الطائرات الانجليزية بقنابلها ، ولهذا لم ترم الطائرات الانجليزية بالقنابل ، وبعد مماطلات طويلة اطلق سراح جيکوب ، وعاد إلى عدن خائباً مهاناً صفر اليدين .

مرت الأيام ، نمت اليمن وتقوى ، وخرجت القوات الانجليزية من الحديد ، بعد اقتناعها بأن الاحتفاظ بقطعة من تهامة ، معرضة فى نفس الوقت لوخز الدبابيس المستمر من قبل القبائل المتاخمة لها والدافعة عنها ، وأنه أمر يفوق طاقتها .

خرجوا ، وأعطوا تهامة للدريس أمير عسير .

لكن الاخير خيب آمالهم ، حيث كان مضطراً تحت ضغط القبائل الجبلية المناصرة للامام ، إلى ترك باجل فى البداية ثم الحديد بعد ذلك ، واجتاح السيل العارم بالطاقة التى ايقظت بها المناطق الجبلية ، وانطلق رجال الجبال الرث المنهمكون من مكوثهم القانط فى الجبال ، فضغطوا بالحصار نحو الشواطىء البحرية ، نحو العلاقة مع العالم عبر الحديد نصف المحطمة ، والتى صارت نافذة اليمن إلى أوروبا ، وسقطت سلطة أمير عسير بخزى ، واضطر إلى الاختباء عجلًا قرب حدود الحجاز وفى اطار امارته الصغيرة العازلة .

وهاهو الآن فى عام ١٩٢٨ يصل جيکوب نفسه إلى الیمن الجدید ، الذى صار أقوى ، وصل جيکوب قبلنا بقليل ، وفى هذه المرة یمثل دوراً رسمياً متواضعاً ، وبرفقته سكرتير - مترجم وحيداً ، وبعد أن مكث شهرين ، ولم یصل إلى أى اتفاق مع الامام ، رحل قافلاً ، قبل بضعة أيام من وصولنا فقط ، وخلال تواجده فى صنعاء كان مقاطعاً منسياً ، بدأت الغارات الانجليزية من عدن ترمى بالقنابل على المناطق الحدودية الآهلة بالسكان ، تهدف بذلك إلى تعزيز هيبة مبعوثهم ، ولم یفقد هذا بشئ مرة أخرى ، ويتحتم على جيکوب من جدید أن یرحل خالی الوفاض ، تحت اناشيد صبيان صنعاء الذين لا یطاقون ، یصرخون بهيجان واحتداد كل مرة یظهر فيها :

- الكلب یسير ، ابيض ، كلب نصرانى !

لكننا نعرف كل هذا فى وقت متأخر ، أما الآن فنحن متکئون على الاسرة المفتولة نرتشف الشاهى ذى الطعم المالح ، نصغى إلى الحديث المنسق الهادىء من ندمائنا ، مرهفين السمع فى نفس الوقت لسكون الليل ، حيث ننتظر الجمل المتأخر .

ها هو الجمل قد وصل ، نسرع فى الظلمة الموحشة لما قبل الفجر للتحرك قدماً ، نستفيد من برودة الليل .

اضواء الفوانيس المتمايلة ، الايدى الممدودة المتزاحمة لاخذ " البخشيش " - ثم نبتعد راكبين لمواجهة اشباح الجبال تاركين ورائنا اكواخ باجل المخروطية الشكل ، نمضى فى غيبش الفجر ، نرى جذوع أشجار الاثل المتناثرة بين حقول الذرة الشامية ، نبدأ بالاقتراب قليلاً قليلاً من سلسلة الجبال الضخمة ، التى تطبق على مساحة واسعة من السهل .

ينبلج ، یبرز أمامنا سبط حجرى يتألف من طابقين ، وعشرات الجمال ترتعى فى القرية ، كانت هنا حامية تركية ، قلعة غير محصنة للحامية التركية التائهة فى محيط عدائى فى البيئة القبلية ، كان البلد یجيش ، یعيش حياته الخاصة ، لا یسمح لموظفى السلطان بالوصول ، ولا يدفع الاتاوة ، ولا یقدم مجندين للقسطنطينية البعيدة المعادية لفرق السلطان التى بقيت بمحاذاة شواطئ الحديدة فقط ، والاكثر من ذلك ان تلك الفرق كانت معزولة فى قلاع منفردة ، أو كانت موزعة على طول طريق صنعاء ، هذا فقط كل ما امکن تحقيقه فى شبه جزيرة العرب الملونة على الخرائط بلون الامبراطورية العثمانية الواحدة .

أما الآن فقد اققرت قلع الحاميات العثمانية ، فلا یوجد فیها قوات ، وقد صارت مهجورة ، وملجأ لمبيت القوافل العابرة ، تحول بعض الضباط الاتراك الى الخدمة عند العرب ،

وإذا كانت ذكرى الانجليز متمثلة بمبانى الحديدية " الفخمة " التى هدمها القصف ، فإن ذكرى الاتراك قد تمثل فى هذه القلاع الكئيبة المقفرة ، حيث كانت الحاميات السلطانية وحيدة ، عاجزة عن اخضاع منطقة صغيرة ، لكنها عنيدة .

ليس الان انجليز فى اليمن ، بقى اتراك وحيدون يخدمون فى جيش الامام ، أو بعض الاتراك الجذائين والخياطين القاعدين بكآبة فى دكاكين الحديدية وصنعاء ، تهج موجة الحركة القومية العربية فى كل مكان ، تلك الاماكن التى غمرت فيها بقايا القهر القديم .

تنتقل الطريق إلى واد " واسع ، والبغال تسرع الخطى ، تضرب الارض بحوافرها باتساق باتجاه قرية جديدة ، نرى ملامحها البيضاء من بعيد ، تخضر الحقول بطراوة ريانة ، وتصير سيقان الذرة والشعير أكثر صلابة ، وأغصان مائلة أكثر ، نتحرك قدما نستبق الجمال المنفردة نمرق من ارتال البغال والحمير المسرعة التى نقابلها ، والجبال من كل الجهات .

ها هو اليمن الجبلى يقترب .

الباب الثامن

* نحو الاقطاعية

* بقايا الاحباش قوقاز في " العربية "

* البغال والخيول

نحو الاقطاعية

اثنان من البلاشفة ، اثنان من الروس ، يمتطيا البغال ، يرافقهما عشرة جنود انصاف عراة مسودون ، يتمايلون بانتظام يصلحون البرادع من حين الى اخر ، نتحرك عبر ممرضيق يتلوى بين الحقول ، قدما اكثر فاكثرا فى اعماق اليمن المكنونه ، ما زالت الجبال تحيط بنا من كل الجهات بمساحة واسعة ، واشعة الشمس لا تكل وتتصاعد بشدة ، كانها حزم مجمعة فى عدسة مكبرة ضخمة ، تحرق الجلد ، كانها خارقة لثنايا الثياب .

نتحرك الى الامام - نحو الاقطاعية - اللقاء بلد مجهول ، اللقاء المستقبل المجهول ، وبالتدريج ينكشف امامنا هذا اليمن المنعزل المخفى اسراره البسيطة ، ينتصب امامنا بكل بساطته القنوعه للعصور الاقطاعيه المبكرة ، لم نرى الاقطاعيه ، فى القسم الذى قطعناه - تهامة ، والحقيقة بعد ، ان السكان الهزلاء ، المنهكون من القيظ ، ما يزالون يعيشون بعد حياة قبلية ، بل وحتى حياة عشائرية - بطيركية ، لم يعرفوا بعد اساليب الملكية الخاصة الاقطاعية للارض ، ومع مجيء قوات الامام فقط ، اصحاب الجبال ، بدأت تهامة تربط بالاقطاعية .

لكن حتى تهامة ما قبل الاقطاعية تعتبر متقدمة اذا قايسناها بعائلات الحجاز المترحلة ونصف الوثنية فهناك ، فى نجد والحجاز ، التى راينا طرفها عبر الجدران الطينية البيضاء بجدة ، لا تعيش قبائل باستمرار ، وانما عشائر مشتتة ، وحتى اسر منفردة ، فالزراعة الثابتة التى وصلت الى تهامة تعتبر مثالا هناك ، وهى عمليا ليست " خطة خمسية " واحدة وانما عدة (خطط خمسية) التى يقوم ابن سعود بها بحذر ودون حزم ، المهمة الاساسية هناك هى : الرعى ، جمع التمر من اشجار النخيل القليلة مهمة ثانوية بصفة صرفة ، نهب القوافل العابرة لمجاميع الحجاج غير المنتظمة ، لقد فاقت تهامة اليمن نجد والحجاز بعصر كامل ، اللتان تحجرتا فى مستوى القرن السابع الميلادى .

ها نحن نعبر اخر مراحل تهامة ، نبتعد عن شواطئ البحر نسير فى منطقة يزيد ارتفاعها بالتدريج ، نستعد لنترك ورائنا المرحلة الثانية (بعد الحجاز) التى رأينا فيها مرحلة من تاريخ البشرية ، وانتهينا منها لنقبل على مرحلة جديدة ، الاقطاعية الخالصة ، يبدو كما لو ان حوافر البغال ترتفع وتقلب صفحة ثقيلة من كتاب التاريخ الذى وقفت صفحاته هنا فى الجزيرة ، مصفرة باهتة ، فى الباب الاول منه ... تقترب من قرية بحيج .

امامنا اسيجة من القش ، وخلف الاسيجة مساكن ذات سقوف مخروطية الشكل ، ندخل الفناء ، يخبرنا العسكر انه يجب الانتظار هنا حتى حلول برودة المساء .

نشعر ان برودة ورطوبة المساء قد صارت اثرا بعد عين مباشرة ، وما كادت الشمس تبرز من وراء قمم الجبال المستننة البعيدة ، حتى كانت اشعتها الساخنة تخترق الجلد بسهامها الحادة ، لا يوجد هنا لا ظل ولا ندى ، مع ان هنا ليس الحديدية ، انما تكون الشوارع مبللة فى الصباح من الرطوبة البحرية اللزجة ، لكن لا يغير من الامر شيئا ، هنا يسود القيظ والجفاف .

نتنحى ، نوضع البغال فى الظل ، دون نزع السرج عنها ، يخفف شد حزام السرج فقط ، يقولون ان نزع السرج مضر بالحيوان ، يقودوننا الى احد الاكواخ الدائرية المحفورة فى الارض وينقلون اليه بعجلة مضاجع "بروكروستوس" .

نشعر بسطوة الليله المؤرقة خاصة تحت اشعة الشمس المحرقة .

محتويات الاكواخ - مقعدان ، رفوف فى الاعلى فيها لوازم وادوات . خفان من القش ، سلال على شكل قناني ، كل هذه اللوازم للمظهر ، موضوعة بدون استعمال .

بحيحة - هى اول قرية يمنية ، اينما تحتم علينا التأخر فيها ، وهى قرية صغيرة تتالف من عشرين - ثلاثين فناء ، وفناء حجرى صغير للخفير بقرب الطريق ، الافنية محاطة باسيجة من الاغصان المجدولة وفى كل فناء اثنان او ثلاثة اكواخ دائرية وحظيرة صغيرة للماشية ، والرخاء هنا اعلى مستوى منه فى الصحراء الساحلية القاحلة العجفاء ، تركض الدجاج فى الافنيه وتتغذى الماعز والخراف ، وهنا وهناك تتجول ابقار حدياء بنتوء على شكل حديبة عند الرقبة .

وراء القرية (المكشوفة كانها على راحة كف) نشاهد الحقول المخضرة ، بيادر عامة ، تنطرح حزم القش ، نشاهد الماعز والخراف ، التى تركض وراء السياج فى المراعى ، وفى البعيد عند سفوح الجبال تبدو اشباح كانها بيوت مشبكة بها ، وابتعد من ذلك تبدو قمم الجبال الذاهية فى السديم والضباب ، التى تعيش وراها حياة حقيقة ، كما يقولون .

ومع ذلك كله فليس هناك غرابة وغموض فى الشرق خاصة ، الذى يحلم به محبو الجمال ، ربما قليلا من مساحة افريقية ، هذه البيوت الطينية الدائرية بسقوفها المخروطية الشكل ، والادوات المزخرفة من القش ، والناس السمر نوى العظام الوجنية البارزة ، وكثافة المواشى البيتية الصغيرة - هذه هى الخصائص ، التى متبعا وصف افريقيا بها ، والتى انعكست هنا فى اليمن ، على الجهة المقابلة من ساحل البحر الاحمر ، او بالاصح المضيق الذى كان يفصل القارة الافريقية - عن شبه جزيرة العرب الحارة الواحدة .

بقايا الاحباش قوقاز فى " العربية "

من المحتمل ان هذا التشابه ليس محض صدفة فمنذ القدم تعرضت اليمن لنفوذ التأثيرات الافريقية ، وبعد طرد الاحباش ظلت العلاقات التجارية بين الحبشة واليمن مستمرة ، وما عدا ذلك ، فقد جلب الى اليمن عدد كبير من العبيد السود ، كما وصل كثير من السودانين لممارسة الصنع وطلب الرزق ، هاهى بقايا سيطرة الاحباش ، فى نفس الفناء الذى توقفنا فيه ، بضعة نساء حبشيات ، زوجات المالك السابق والآن اصبحن " مالكات فندق " بطريقتهن الخاصة ، تحظى تلك النسوة بشهرة واسعة ذات مغزيين ، كما عرفنا فيما بعد ، فى اوساط الرحالة الذين عبروا يوما ما هذا الطريق ، ان اصلهن الحبشى - الارثوذكسى يعطينهن بعض الحقوق او الامتياز لكثير من الانطلاق ، وعدم التكلف الذى لا يسمح به للنساء المسلمات التقاليدات والفزعاءات ، فلكل الرحالة الاوروبيين وحتى الاتراك الرصحاء يتذكرون " ببسمة لعوبة " فترة وصولهم الى هذا " الفندق " .

نحن للأسف لم نعرف هذا فعوقبنا بقساوة لمسلكننا غير اللطيف ، لم يكن لدينا متسع او رغبة فى الحديث ، فبعد ان شربنا كاسا من لبن الضأن ذهبنا فى نوم عميق ، ومع ذلك استيقظنا بعد ساعتين او ثلاث نتيجة لانكتام النسيم ، الذى لا يطاق والهواء الخانق فى الكوخ الذى لا توجد به نوافذ ، لقد سخن تحت اشعة الشمس الافقية ، فطلبنا ونحن - قمة فى الجهالة - نقلنا الى مسكن اخر حيث يكون الهواء اكثر بروده فدعانا العسكر الى منزل حجرى ، حيث يسكن " القمندان " بهيئة ضابط قديم ، وقد كان وقتاً ما فى الخدمة التركية .

يقع المنزل خارج القرية ، على مرتفع بسيط وله نافذتين يهب عبرها النسيم ، يعدون لنا الطعام ، دجاجة مسلوقة مسلوخ جلدها عنها والقشرة الدهنية بعناية (وهى الطريقة المحلية المعتادة فى سلق وشوى الطعام) ، يشرب مضيفنا الماء المعدنى المقدم له بشراهة ويدخن سجائر " اسمرالد " .

نسأله عن الوضع فى البلد ، لا بأس ، كل شئ على ما يرام ، يقول مجيبا ، سيكون كل شئ ميسر فى المستقبل ان شاء الله ، وكما نعرف ان الطبيب الايطالى قد وصل الى هنا قبل يومين ، وتوقف خمس او عشر دقائق فقط .

يقدم لنا معلومات اثناء الحديث عن مرتبات الجنود الذين يقعون تحت خدمة ملك اليمن ،

يستلم الجندي خمسة ريالات فضية في الشهر ، بينما يستلم الضباط خمسة عشر ريالاً فضياً ، كما تقدم التموين خزينة الدولة ، لأنه أفضل : قبضة من القمح يومياً هذا يقدم لنا مفهوماً أنه لا يمكن العيش بدون " بخشيش " .

نعرف أننا في منطقة مجاريد - وهي من أعمال قبلية قحرة الكبيرة ، تشمل هذه المنطقة كل ناحية الطريق التي قطعناها ، يقوم شيخ القبيلة بزيارتنا ، تلك القبيلة الواقعة في نفس المنطقة ، وهو شاب عيناؤه تشتعلان ، ذو وجه قليل الشعر ، حافي القدمين ، وعلى رأسه عمامة بيضاء ، متمنطق بجنبية مقبضها فضي ، وعليه حزام من الرصاص ، ينظر إلينا كما لو كنا حيوانات غريبة غير مألفة ، يقابلنا كالإيطاليين وذلك لأن الأجانب الذين ظهروا هنا حتى الآن قد كانوا من الإيطاليين بالأساس ، يندهش عندما يعرف أننا من روسيا السوفيتية ؟ أين تقع ؟ وهل هي كبيرة ؟ هو لا يعرف هذا ، لكنه يعلم أن روسيا قد ساعدت الأتراك في المحافظة على استقلالهم .

تحملون بضائع ؟ هذا جيد ، فقد كان في اليمن جذب ، الدقيق لا يكفي ، الأقمشة سيئة ، والأجانب لا يجلبون شيئاً حسناً ، أعطونا قمحاً وأقمشة وكذلك كيروسين وسكر ، وليكن كل ذلك أرخص وأفضل مما يعطونه الأجانب الآخرون ، حتى هنا ، أينما الأرض جيدة ، وأينما يجمع المحصول ثلاث مرات في السنة ، فإن القمح لا يكفي .

- كيف يعيش الشعب ؟ هل كل شيء آمناً ؟ نسأل دون مواربة .

لكنه لم يكن كريماً في الإجابة ، فهو يفضل طرح الأسئلة أكثر ، إجاباته تقليدية يغلب عليها " الحمد لله " المعتادة للخاص ، و " انشاء الله " فيما يتعلق بالمستقبل ، ومع ذلك تمرق نبرات غريبه في إجاباته ، يتضح أن قبيلته شاركت مع عسير في الحرب ضد الإمام ، أما الآن فلا بأس ، لقد هدأ رجال القبيلة ويؤيدون الحكومة المركزية ، إلا أنه يلمس أن هؤلاء " رفقاء سفر " وليس الدعامة الأساسية لصنعاء .

يخرج بعد أن شرب الماء المعدني ، نبقى نحن والمالك بجانب بضعة من المعسكر المرافقين لنا يقص أحدهم بحرارة ، كيف عاش بهدوء وسلام في قريته عندما كان طفلاً ، لكنه عندما كبر تشوق للعمل والحركة .:، والان يفخر بأنه في صفوف الجيش اليمن ، بأنه سيضحي بسرور بدمه في النضال ضد الانجليز ، الذين يهددوا باستبعاد وطنه الحر ، وبحماس لا يقل عن ذلك يتحدث عن الإمام كقائد شعبي ، يقود الشعب على طريق المجد والازدهار .

نرى ان هذا ليس رفيق " سفر " وانما من اكثر الفئات اخلاصا للقضية الوطنية ، انه من سكان الجبال ، التى لم تتأثر بالدعايه الاجنبية ، ولم تقع تحت تأثير فئة التجار الساحلية الرافضة ، نتيجة لمصالحها الانانية والذاتية .

نحاول ان نستفسر عن اشكال استخدام الارض فى هذه القرية ، يقولون لنا بان الارض هى ملكية فردية لكل بيت ، هنا لا توجد ملكية اقطاعية للارض ، وقرية بحبح هى قرية ذات امتياز ، تقع قرب اراضى خصبة ، وتقع على طريق كبير ، اما تلك القرى الواقعة جنب سفوح الجبال فوضعها اسوأ .

فى المساء نتحرك قدما ، الجبشيات الغاضبات يخرجن الى ما وراء سياج القرية يتبعننا بوابل من التمنيات السيئة ، نحتر بصديق لا نعرف حقيقة الامر ؟ نفهم ذلك مؤخرا فى صنعاء ، نعترف بغلطتنا ، وان لم نعزم على تصحيحها مع ذلك .

لكن لا وقت للابطاء ، هيا الى الامام ، فالجمال قد سبقتنا مع المتاع ، وهما هى بعيدة فى مكان ما فى المقدمة .

تقترب الجبال برتابة من الجهات الثلاث ، تخترق السهل الفسيح لفحات حادة جافة من الهواء الرملى ، التى تهب من الفجاج الجانبية ، وعلى جانب الطريق تتناثر قرى واسعة فيها اكثر من مائة فناء ، وترى قطعان الماشية الكثيرة العدد ، هنا وهناك تتجول اشباح منفردة من الجمال ، وهناك يثر على شكل حفرة يعلها عامودان فيهما عقلة .

اثنان او ثلاث من النساء السود بقيعات اسطوانية طويلة من القش لها حواف عريضة يشدون الحبل الممدود عبر العقلة ويسحبن دلوا على شكل كيس جلدى (قرية الماء) ، وجوه النساء مكشوفة ، فهنا ليست المدينة ، الحجاب لا ذكر له ، والمعيشة الريفية مليئة بالعمل الشاق الدائم سواء فى البيت او فى الارض ، لقد الغى هذا الحجاب فى حد ذاته ، الثابت فى محيط المدينة المنافق ، يساعد هؤلاء النسوة خادم ، يبدو انه اجير زراعى ، اسمر شبه عار ، يقدمون لنا الماء لنشرب ، الماء هنا ذات طعام مالح ، ومع ذلك فهى افضل بكثير منها فى القسم السنج من تهامة ، نعطى البخشيش ونمضى قدما على يميننا سلسلة جبال ضخمة فى راسها قمم تغطيها السحاب مثل جبال ارارات (*) . هذا جبل برع ، اعلى قمة فى اليمن ، يوضح لنا العسكر ، لكننا نعرف فيما بعد ان ذلك مبالغة معتادة ، فهذه الجبال ليست اكثر الجبال ارتفاعا فى اليمن ، لكنها وعلى خلفها السهول ، وهى مرتفعة قليلا عن سطح البحر تبدو فى الحقيقة عظيمة ، كما نعلم بانه فى اعالى جبل برع تنمو اشجار البن .

(*) - سلسلة جبال مشهورة فى ارمينيا

هناك يعيش ناس سعداء ، قال لنا العسكر .

شئ لا يصدق ، نحن الاوروبيين متعودين على ان العائشين فى السهول تكون حياتهم افضل ، وان الجبال قاحلة مقفرة ، اما هنا فى اليمن ، انما المدارات الاستوائية ، يتم اعادة تقييم القيم والمفاهيم ، الجنة - فى مرتفعات الجبال الباردة ، والجحيم على هيئة الحر ، والجفاف والاختناق - فى السهول .

تتحرك سلسلة الجبال على مقربة منا ، هناك واد صخرى نقطة مشيا ، نزلنا من على البغال هنا ينتهى القسم الذى يمكن اجتيازة من الحديد على السيارة ، حتى الايطالى الذى يملك سيارة خفيفة ، تحتم عليه ان ينتقل هنا الى الركوب على ظهور البغال ، مسافة سهلية قصيرة من الطريق ، ثم واد صخرى ضيق من جديد وفى قعر الوادى شيئا ما يشبه النهر ، هذه اول مياه فوق سطح الارض نراها فى اليمن .

والسهل الطويل الى قطعناه صار بعيدا فى الخلف ، وسرعان ما اختفى فى عتمة الليل الحالك ، نتوقف ساعتين فى قرية كبيرة اسمها عبال ، ونأكل دجاجة مسلوخة من جديد ، نتحرك قدما بعد ان انتظرنا طلوع القمر والمدى ان نتحقق باللمس من الحقيقة المعروفة نظريا والقاتلة بأن القمر بالذات وليس الشمس هو الكوكب الاساسى ، الذى ينظم حياة الصحراء ، الشمس خبيثة ، قاسية ، قاتلة ، نختبئ عندما تشرق تحت السقائف ، ننزل حمولة البغال وننسى بلا حول ننتظر عتمة الليل ، وحين يقبل المساء ويبرز القمر نتحرك فى طريقنا هكذا يصير واضحا لماذا يعتمد التقويم الاسلامى الأشهر القمرية كأساس لحساب الزمن .

لقد اصبحنا على ارتفاع عالٍ ، نصعد بطريقة غير ملحوظة فى السهل ، ونصل تدريجيا الى ارتفاع بضعة مئات من الامتار ، نتحرك على هضبة مرتفعة ، تهب برودة ورطوبة من الجبال القريبة جدا ، هنا تسقط الامطار كل يوم تقريبا ، وفى هذه المنطقة المضاءة بنور القمر نشاهد الاشباح الجبارة لاشجار الاثل ، التى تختلف بحده عن اشجار تهامة الهزيلة الكسيحة ، هنا اشجار الاثل كثيرة الاغصان وافرة الظلال ، رغم انها ذوات جذوع معوجة ايضا وملامحها مغلوطه بشكل متشنج ، تبدو فى الغسق وكأنها تنانين تتلوى احيانا ، او كأنها بشر يحتضنون بعضهم احيانا اخرى ، او توحى و كأنها رجال القى براسه الى الخلف ، ينظر الى السماء فاتحا ذراعيه على اتساعهما .

الحر ، الاختناق ، العرق ، والعطش وكان شيئا لم يكن ، الليل البارد الساكن ، اشباح الاشجار والرسوم المبهمة المعتمدة للجبال المعلقة فوقنا ، بالضبط ، كل هذا يفرض علينا ان

ننسى اننا فى شبه جزيرة العرب البعيدة ، قرب خط الاستواء ، واننا على بعد بضعة الاف الكيلومترات من شواطئ الوطن ، لقد قام البغل الاغبر القبيح والعنيد ينقلنا خلال بضعة ساعات من الطريق من قيظ الصحارى العربية الى سفوح القوقاز الباردة التى نعرفها . هذه قرية حجيل ، مركز الناحية ، هنا يجب علينا ان نتوقف من اجل ان نغير الجمل ، وجملنا كان صالحا للمشى فى السهول فقط ، فى حين للجبال جمال اخرى تعودت على طرقها ، وازضافة الى ذلك فانه من هنا يبدأ الصعود الشاق فى الجبال ، والذهاب فى الليل امر صعب ، لهذا نتوقف للمبيت .

مرة اخرى اسرة مفتولة من القش ، تحت سقائف من القش ، يثب خادم تركى مسرعا ، ودون ان ينبس بحرف ، يبدأ يتحسس اضلاعى ، ويهز رجلى ويدائى ، ادفعه بغيدا برعب ، يبتعد حانقا ، لقد اراد ان يعمل تدليك ما بعد الطريق ، وهو المتبع فى هذه الاماكن ، لهذا كان تعزى غير مفهوم له ، يقولون لنا فى الصباح انه يجب التأخر الى ما بعد الظهر ، لان التحرك ظهراً سيكون حارا ، وبالإضافة الى ذلك فان الجمل الذى استبدلناه بالآخر غير جاهز بعد ، لان جميع جمال سكان المنطقة محملة من قبل الخزينة ، بدفعة جديدة من الاسلحة الايطالية التى وصلت الى الحديدية هذه الأيام ، وهذه الاسلحة هى عباره عن ذخائر خشبية صغيرة ، مرصوفة فى ساحة بقرب بيت عامل المنطقة . تتألف مما يقارب مائة جمل باركة تحت ظلال اشجار الاثل ، او ببساطة تحت اشعة الشمس الطالعة ، تمضغ حزم الدريس المرمية امامها كعشاء ، من اجل ان تجمع قواها للرحيل فى اعماق الجبال ، هناك اينما توجد ضرورة للاسلحة ، واغلب الجمالة كهؤلاء ذوى لحى شائبة ، اجسامهم مخترقة ملوحة بلون احمر نحاسى ، يلتحفون عباءات خفية ممزقة ، واحزمه غليظة حول الخصر يجلسون بشكل دائرى يأكلون طعام الصباح ، وبيوت القرية ، ليست على شكل البيوت الطينية السابقة ، انها معمورة من الحجر الغشيم ، والشكل الخارجى للبيوت على نمط واحد : اربعة اركان حجرية خالية من الجمال ، وسقف من العوارض مغطى بالقصب او القش ، والماشية هى تلك الابقار الحدياء ، اثوار ، حمير ، ماعز ، ضأن ودجاج ، لكن لا تحس افريقيا فى هنا ، لا باسلوب البناء ، ولا بملامح الوجوه السمر لكنها تخلو من ذلك السواد والنمط الخاص الذى يقربهم من الجنس الزنجى الحبشى ، هنا ليست تهامة ، وانما ارض نصف جبلية ، والقرية التى صارت مركزا اداريا منذ عهد قريب تعيش على الزراعة ، فى كل جوانبها حقول يانعة موزعة على مدرجات الشعاب المتلاصقة ، فالماء هنا وافر ،

لا يوجد هنا سوق بالمعنى الشرقى ، توجد بضعة حوانيت صغيرة فقط ، حيث يمكن شراء التبغ والكبريت أو صنادل خفيفة وبضائع أخرى مثل الدخن ، الذرة ، قشر البن التى تستخدم هنا بدلاً من البن ، الحقول الآن هامدة ، العمل فى البيت يتمثل بالعناية بالماشية ، وجلب الماء من البئر الواقعة على مقربة من القرية ، أو إشعال الموقد لتحضير الطعام ، كل هذا يقمن به النساء ، أما الرجال فائهم منزعجون من قيظ النهار القادم ، يقعدون صامتين فى الظل يدخلوا النارجيلة ، ايقاع الحياة بطيء ، تعبر النسوة من وقت لآخر من البئر الى البيت ، يحملن على رؤوسهن الجرار الطينية الطويلة ، يركض الاطفال عراة كما خلقوا ، بأجساد مسلوخة هزيلة ويبطون باريدة فى الغالب ، هناك صبي عمرة اربع او خمس سنوات يسير بتؤدة ووقار ، يقهقه المتفرجون عليه يصرخون بشيء ما ، اما هو فيصرخ مرتعشا بصوت كأنه ليس صوته ، يغطى عورته بيديه ، ثم يهرب لا يلوى على شيء ، يتضح انه لم يجرى له الإختان فى وقته ، لهذا يشاكسونه بالعملية " الدينية " التى ستجرى ، والتى يكون مجرد التفكير فيها باعث على الرعب والوحشية لديه .

البغال والخيول

تتحرك بعد منتصف النهار ، يتعرج الممر فى مسيل صخري لسيل قد جف وانكمش فى فج ضيق ، وبعد ان يلقى بنا فى الفج الصخري ، الذى يضيق مع كل خطوة ، نمر بين الاشجار والاحراش ، ونصل عبر مضيق ضيق الى شعب آخر ، بين كتلتين صخريتين كأنهما قد وضعتا خصيصا كحاجز ، وعلى شكل منحدر صخري يمتد عبر الجبال ، على ارتفاع شاهق وبين اسنة الجبال نرى بالكاد سودة ملامح القرية من كل الجهات تسمى المنطقة صيفن ، وفجأة تقترب البغال الى منحدر الفج مباشرة ، تبدأ تضرب بخطواتها الطريق الشديد الانحدار والمتعرج ببطء ومثابرة ، نسمع اصوات البغاوات ، ونشاهد اشباح القروء المنتقضة ، وخلال خمسة عشر - عشرين دقيقة يكون الفج بعيدا فى مكان ما فى الاسفل ، فى حين تواصل البغال خطوها المنتظم الى الاعلى فى المرتفع الشديد الانحدار .

ابداء اقدر الخصائص الرائعة لتلك الشغيلة المتواضعة ذات الاربع ارجل ، البغال والحمير خصوصا ، متميزة وفريدة يفظانتها ، وقوة احتمالها وجلدها ، يكون الرحيل عليها مرضيا ومقودها حسن ، تصفر فقط بصوت منخفض ويسير الحيوان بدون حث او تعجيل ، يتحسس بحذر كل حجر ، دون ان يتعثر ابدا او يشاكس او يخاف او يحيد عن الطريق ، تذكرت

عفويا ويتقزز الخيول حينها ، المستعدة دوما ان تجفل او تجمع لاي سبب ، سواء لرؤية شىء مجهول او لازعاج مفاجىء ، كما ان الخيل تتوقف عن طريقها اذا ارخى عنانها ، واذا نهزت فأنها لا تسير في الغالب او ضربت بالسوط ، فاما ان تكون مستعدة للاندفاع بسرعة واما بالسقوط منهكة ، قد يقال هناك خيول فطنة وجريئة وهذا صحيح ، لكن البغال والحمير في مجملها تتميز بالذكاء والحساسية والهدوء وقوة الاحتمال ، بالإضافة الى ذلك فالبغال قد ورثت افضل الصفات " المعنوية " لأبائها الحمير ، والقذرة الجسدية فقط لامهاتها الخيول ، ان البغال والحمير تعتبر استثناء مميذا بقيمتها كحيوانات - برولتارية ، لا تماثلها الخيول - الارستقراطية الغبية والحرنة .

وإثناء التنقل الطويل على ظهور البغال كثيرا ما يخطر على البال : لماذا صار مألوفاً في الادب التغنى بالحصان الطائش والعاجز ، فى حين تكون البلادة والغباء مرادفة للحمار المحب للعمل والذكى ان البحث عن توضيح ذلك ليس امرا صعبا ، اذا راقبنا خصائص الحمير فى التنقلات البعيدة ، الحمار مثله مثل الحصان ، كائن مستغل من قبل الانسان ، لكنه حين يخضع الحصان ويطيع الانسان حتى النهاية وبدون حيدود ، يجر اى حمولة حتى لو كان فيها خطر انفصام ظهره ، يسير تحت ضربات السوط حتى السقوط ، بل حتى وهو يلفظ انفاسه الاخيرة فى حالة الموت يصمت دون الاحتجاج ضد القسر والاستغلال ، فان الحمار اكثر عنادا فى الدفاع عن مصالحه كحيوان مستغل ، فهو يتشبث فى مكانه فلا يسير اذا حمل اكثر من طاقته ، يتوقف اذا فرض عليه السير طويلا جدا ، ولا يتحرك من مكانه تحت اية ضربات ، لن يركض اكثر مما تسمع به قواه ، لكنه يعمل بامانة فى نطاق المهمة العادية ، اما اذا لم ينظم او اذا ضرب قلن يسيكت مثل الحصان الا يكتم المستكين ، بل سينهق محتجا بوحشية ، ويصدر اناث بطريقة بشرية ، يبدو معها ان اقصى سائق حمير سيق قلبه عند سماعها ، الحمار يحتج ، يخرب ، يغرب ، اذا ما تجاوز القسر عليه حدود مغبنة ، الحصان يذعن للقسر باستكانة وبدون حدود : انه يستعد للركض حتى السقوط او الانهك من حمولة فوق قدرته ، يساير نزوات الانسان بدون حدود ماشيا بخضوع حسب تعليمات السائس والراكب الذى يهزه ، اهل من غرابة ، فى ان يتغنى الشعراء الاقطاعيون بالأسوء والنمور والصقور الضارية ، المؤذية وغير الضرورية ، فى حين جعل الادباء البرجوازيون محط اعجابهم الحصان الاخفق المستعد للموت نتيجة طغيان راكبة ، والكلب الذى يجرس البيت يهز ذيلة امام صاحبة لكنه بينما كانت هذه الافكار المتقطعة تتزاحم فى راسى كان البغل قد وصل بى الى قمة الصخرة ، بخطو منتظم يزاحم جموع الحمير ملتقا حول الجمال الخرقاء الباركة طلبا للراحة ، يدخل فناء صغيرا ، فى

ساحة قرية مصغرة اسمها اصيل ، او بالاصح نزل من اجل توقف فى مركز القافلة المكون من خمسة او ستة بيوت فلاحية من الحجر .

نرى ان هذا ليس سوى بداية المرتفعات (رغم اننا قد وصلنا الى ارتفاع اكثر من الف متر فوق سطح البحر) ، سلسلة جبلية ضخمة جديدة ترتسم امامنا كالسور ، وخلفها صف اخر من الجبال ، وصنعاء ابعد منها التى طال انتظارها .

اصيل هى بوابة اليمن الجبلية ، هنا يبدأ اليمن الذى لم تدسه اخذية الانجليز ولا صنادل عسكر الادريس ، هنا سلطة الامام يحيى الراسخة ، التى تختفى وراء الجبال المنيعه على قوات العدو البرية .

وعلى كل ، توجهت الى شاوئشنا بسؤال (هل هذا هو اليمن الحقيقى ؟) (اقصد بذلك القسم الجبلية من البلاد) وكان واضحا ان طرح السؤال بهذا الشكل لم يعجبه .

اجاب قائلا :

اليمن كل مكان - هناك فى تهامة ، وهنا فى الجبال .

شعرت بانى قد ضربت على الوتر الحساس ، فالانجليز وعمالئهم يحبون كثيرا ابراز الاختلافات بين الجبل وتهامة سواء فى العلاقات الاتنوجرافية او الاقتصادية او الدينية ، هدفهم من كل هذا شق اليمن وافساد ذات البين بين اجزاء هذا البلد ، وردا على ذلك يسعى اليمنيون تجاهل هذه الاختلافات والتشكيك بها .

لكننى مع ذلك اشعر بوجود هذه الفوارق ، وان كانت ليس بتلك الاهمية التى يريد الامبرياليون تصورها يتحدث عن الفارق الهواء العليل البارد ، الذى تستنشقة رئاتنا بكل طاقاتها ، يتحدث عن ذلك ماء النبع الصافى البارد ، الذى نشربه من المفارق دون انقطاع مثل الجمال .

ناكل شيئا ما ، نشرب قهوه قشر الاباريق ، وننام فى السقف الاملس على البيت تحت ظلال شجرة الاثل العالية ، ونرى فى البعيد برج حراسة اسود ، واشباح الجبال الكثيفة ، يتنفس الفجر بروده ، ولا صوت سوى صوت مضغ الجمال الثقيل ورغائها ونهيق الحمير الراقدة ، يخرق السكون الجاثم ليل الاستوائى المظلم .

وفى اليوم الثانى نمضى الى الجبال ، تصوير الجبال اعلى فاعلى ، مضائق جبلية ، هضاب ، منحدرات ، ومرتفعات مرة اخرى ومضائق ، وهكذا قدما حتى سهوب صنعاء المزدهرة .

الباب التاسع

* جبال شبه جزيرة العرب

* البن

* المدرجات

* الحصون

* المشايخ الاقطاعيون

* مناخ

* القات

* الجواسيس

جبال شبه جزيرة العرب

امر غريب وشيء لا يصدق ، نعرف ان هناك صحارى عربية ، وان هناك " سهوب رملية فى ارض جزيرة العرب " ، اما ان تكون هناك جبال عربية ، حقيقة ، جبال عضية ضخمة ، مثل قوقازنا ، فهذا ما لم نسمع عنه شيئا فى السابق وامر غريب حقا ، نتأمل بشراهة شديدة السهول والسفوح الجديدة التى تظهر امامنا ، الى حيث تنقلنا البغال العنيدة الهادئة السير ، ومن الخيرات الاولى للجبال بعد الماء والهواء البن العربى الذى لا يضاهى .

البن

هذا هو البن الذى يسمى " موكا " فى اوروبا ، وذلك باسم الميناء اليمنى الصغير والفقير ، الذى ينقل عبره البن الى الخارج لأول مرة ، والواقع ان هناك اصناف عديدة من البن ، منها اربعة اصناف اساسية (المطرى ، الحيمى ، وغير ذلك) واصناف كثيرة لا تحصى والفارق بينها طفيف ، وبن " مخا " اصناف خليطة اعدت للتصدير خاصة ، وقد انعكست فى تسميتها بـ " موكا " ايضا بسبب الجهل الاوروبى ، شأنها شأن تسميات " ميكادو " او " بوجديخان " التسميات التى لم تطلق على الملوك ابدا فى اليابان والصين ، لكن القضية ليست هذه ، وانما فى ان كل اقتصاد اليمن الجبلى قد تطور حتى الآن تحت علامة البن ، البن الذى شكل المصدر الاساسى للعملة الصعبة للبلاد ، لقد اعطى تصدير البن امكانية خروج اليمن الى ساحة التجارة الدولية .

عرفنا ذلك فى الماضى ، وباضطراب كبير نتأمل الشجرة المتفرغة الخضراء ، التى تدلت عناقيد حبوب مائلة للاخضرار من هنا وهناك ، تتزاحم هذه الاشجار على ساحات ضيقة متقطعة فى المنحدرات الجبلية .

ان زراعة البن المعقدة تبدو كأنها تسير فى اتجاه يناقض التخلف ، والبؤس والظروف البدائية المباشرة فى البلاد ، تبدأ شجرة البن باعطاء الثمار بعد فترة خمس سنوات فقط ، وجيد يعرف عن هذه مالاشجار العناية بها اقتلاع النباتات والحشائش الضارة ، كل شيء يتحدث عن الجهد البشرى الضخم الذى يبذل من اجل هذه الحبوب المخضرة الخالية من الجمال .

العجوز احمد ابن صالح ، الذى عمل مدة خمسين عاما في معمل البن في الحديدية يصف تاريخ البن اليمنى بالعبارات التالية .

- بسم الله الرحمن الرحيم ، ونشكر الله الكريم ، الذى اعطانا حكمة التبصر بالكون ، ان اصدقائنا يطلبون كتابة تأريخ البن اليمنى ، الذى تشتريه كل الشعوب تقريبا ، معروف لكل بنى البشر فوائد البن .

فى عهد الملك سليمان ابن داود ، الذى اطاعة بمشيئة الله ، الجن والانس ، الطير والحيوان ، طلب سليمان من الله خلق شجرة تكون ثمارها شفافية للناس من النعاس والجنون والكوليرا ، فامر الله ببعث اقوى الجن الذين تحت يديه الى البلاد البيضاء بين القطبين ، ان يجلبوا الشجرة المباركة من هناك ، فاتى الجن بالبن والقات (سيأتى الحديث حول القات فيما بعد) .

يتضح فيما بعد ان الجن قد اختارت الى جانب الحبشة جاوه ومالابار ومن ثمة اليمن لزراعة البن ، لانها بلد وفير الخيرات تقع فيما بين خطى العرض اثنا عشر واربعة عشر في الشمال من خط الاستواء وفيها يكون امتداد الليل والنهار مناسباً لشجرة البن .

وبعد ذلك ينوه بمحدثنا الى المحاولات الفاشلة فى زراعة البن فى سوريا ومصر ، وباستخفاف يتحدث عن البن البرازيلى ، وانه يفسد بسرعة ، فى حين يظل البن اليمنى محتفظاً بنقاوته فترة خمس او ست سنوات ، كما يتذكر انه من بين مائة من الاوروبيين الذين يشربون البن خمسة اشخاص فقط هم الذين يشربون البن اليمنى الخالص ، فى حين يشرب الآخرون خليطا ، ويشير باسى الى انه فى اليمن نفسها يشرب البن ثلاثة من كل الف ، فى حين يكتفى الآخرون بشرب قشرة البن ، التى يعمل منها مشروب لذيل منعش ، يحل محل الشاهى .

والواقع ، انه خلال كل فترة تواجدى فى اليمن كنا نشرب البن بالطريقة التركية عند الوجهاء الرسميين والمشايخ الكبار فقط ، أما الجماهير الاساسية من العرب فهى تشرب برمتها مشروبا من قشرة البن ، لاستطيع ان احكم على خصائص قشرة البن ، لانى لم اشربه سوى مرتين او ثلاث مرات اثناء الطريق وتبدو هذه الغسالة انها مشروب فردوسى .

ما السبب ؟ يبدو انه نفس السبب الذى كان صيادو الفولجا لا يتناولون الكافيار ، فى حين اعتبره الاجانب بحق مادة روسية اصيلة ، لقد اندهشنا من ان البن لا يتناوله سوى ثلاثة من كل الف فى اليمن .

وبالنتيجة فان اجزاء الشمس الاستوائية فى الجبال تلك ، المملوءة بالعصارة والاريج
للانصاف الجبلية غير المدروسة ، تظل لذاته محرق لمن يصنعها ، فالقلاح البدوى يبيع حبوب
البن على المحتكر او يعطيها ضريبة للخرانة او للشيوخ الاقطاعى ، فى حين يترك لنفسه شيئاً ما
اخر ، يبعث المشايخ والمحتكرون البن الى الحديدية نصف مصفى ، وهناك يصنف ويبيع فى
اكياس ، ثم تنقله البواخر الاجنبية الى ما وراء المحيط .

البن هو العصب الرئيسى الحيوى للبلاد (مثل الحج فى الحجاز) ، يثير الاوروبيون هذا
العصب لبلد متخلف قليل الخبرة فى احاييل التجارة الخارجيه ، تستغل الشركات الاوروبية عدم
وجود اسطول تجارى يمنى وتجار ذى علاقة مباشرة بالاسواق الخارجية (لا يدخل الهنود
هنا) حتى تفرض اسعارها على البن اليمنى ، وبهذا تثبت هذه الاسعار فى مستوى منخفض
وبشكل جشع ، وثمان الطن من الصنف الجيد من البن " موكا " يقرب من مائة جنيه استرلينى ،
ان سعر الكيلو روبل واحد تقريباً ، فى حين يكون شراء الكيلو الواحد بصعوبة بمبلغ من
سبعة - الى ثمانية " روبلات " ، ومع ذلك فانه ليس بنأ يمنياً صافياً ، وانما يخلط مع البن
الحبشى والبرازيلى الرخيص .

البن هو اول عامل اقتصادى يميز القسم الجبلى من اليمن ، نظرا لتبدل التربة والطقس
ومستوى الرطوبة والميزة الثانية (اسجل ذلك حسب توالى الانطباعات) انه وراث حضارة
قديمة - المدرجات الزراعية المنحوتة على منحدرات الجبال الصعبة ، الابنية السكنية القديمة ،
التي تم بناؤها منذ قرون كثيرة خلت يقول البعض انها منذ الاف السنين .

ارى المدرجات مع اشجار البن فى وقت واحد ، ينمو البن فى هذه المدرجات فى الغالب اى
فى المساحات المحفورة فى مرتفعات الشعاب ومنحدرات الجبال ، هذه المدرجات المسورة
بجدران من الاحجار والمفروشة بين جوانبها طبقة سميكة من الارض المجلوبة ، حتى يكون
احيانا كل المنحدر الممتد عشرات الكيلومترات يشكل مدرجات تشبه التجاعيد .

المدرجات

هل تتصورون ؟ منحدر طولاه عدة كيلو مترات بزاوية ميلان ثلاثين - اربعين درجة ، لا
يستطيع البغل ان يسير فيه فى اكثر الاحيان ولا الماعز الراكض دائماً ان هذا المنحدر مقطع
الى قطع صغيرة بطيات اصطناعية مفروشة بتربة خصبة طرية ، تنمو فيها اشجار البن ،

وتخضر الاراضى بالقمح والذرة ، من وحتى حفر الطبقات الحجرية فى الجبال ، من الذى نقل التراب ، واسندها بركائز حجرية ضخمة وتعلم ان ينشئ الزراعه المعقدة لنباتات طويلة العمر ؟ الواضح : ان من عمل هذا ليس البد وانصاف العراة ، اولئك الاميون الذين لا يملكون سوى محراث وبندقية ، الذين يتطلعون بفضول من خلف زوايا اكواخهم ، اسال العسكر ؟

- متى ، ومنذ اى عهد تعلم اليمينيون بناء مثل هذه المدرجات ؟

اتلقى جوابا لا يتغير :

الله وحده يعلم هذا ، يفترض ان يكون قبل بضعة الاف من السنين .

والمباني السكنية ؟ قلاع ضخمة ارتفاعها ثلاثة طوابق ، ليست مثل بيوتنا ، انها بيوت مبنية من الحجر المنقوش فيها نوافذ صغيرة ، عملت على ارتفاع بضعة امتار من الارض بغرض الامان ، بكوات وابراج وكرنيشات وحواف نائبة ، وسلالم ونافورات وبرك اصطناعية فى الفناء ، يحيط بالقصور حائط حجرى عريض انها قلاع من القرون الوسطى ضخمة ، لا تستطيع حتى المدافع تحطيمها . تقع القلاع على المضائق الجبلية فى الغالب وعلى القمم او فى اذيال الجبال العصية حيث يكون المدخل من جهة واحدة فقط .

الحصون

واذا سألت :

- متى بنيت هذه القلاع ؟

يكون الجواب نفسه :

- الله وحده يعلم ذلك . نحن نعرف انه عاش بها اجدادانا واجداد اجدادانا .

صحيح ، ان مثل هذه القصور ليست ضرورية الان لا يستطيع احد ان يحتوى بها من احد ، لانه لا يعيش بها لا المشايخ ، ولا الاغنياء ، انما اولئك الرثا الثياب المنهكون شانهم شان اولئك الذين يتكدسون فى الخيم فى السهول ، لا احد يشاغلهم ، لان قطاع الطرق والمجرمين بالمعنى القديم فى القرون الوسطى لا وجود لهم ، اما امام قطاع الطرق الجدد ، امام الطائرات والمدافع الانجليزية ، وامام المستغلين المحليين ، فان هذه الجدران الحجرية لا تجدى شيئا .

لكن هذه القلاع والمدرجات الزراعيه تظل شاهدة على حضارة عظيمة ، وقعت ارث لقبائل بدوية متخلفة تاخرت فى تطورها ، هذه القبائل المتعرعة فى ظروف الرعى والزراعة البدائية لم تعرف ولم تستطع استخدام منشآت الري العظيمة التى بناها اسلافهم الاكثر تحضرا ، اولئك الذين لم يكونوا فى حاجة للعملات والمتاع ، التماثيل الحجرية مرمية وكأنها نفايات قديمة فى كهوف مأرب التى تنهب من قبل المضاربين ، انهم لم يريدوا ولم يقدروا علي الحفاظ على حضارة مملكة سبأ وتطويرها ، لكنهم وحسب قدرتهم يستخدمون المدرجات الاصطناعية ، التى حولت منحدرات الجبال الجرداء الى رياض مزدهر ، فى القلاع العريقة الشامخة المعبرة عن بقايا الثقافه القديمة يعيشون فى اسمال بالية بين الدخان والوساخة .

تتكون اللوحة ، كما لو ان روما بثقافتها العريقة العهد ، بالقصور وسواقي المياه ، حتى بتلك المدرجات التى لم تكن معروفة لا فى روما ولا فى اى مكان فى العالم ، لقد اخلت وانقرضت ثم غمرتها شعوب جديدة متدفقة من الخارج ، تلك القلاع التى لم تحرق ولم تخرب من قبل البرابرة كما فعلوا فى روما ، وانما قطنها ناس بسطاء فحولوها الى اكواخ متواضعة ، ولا يذكر بانها قلاع الا مظهرها الخارجى .

والان تؤكد هذه " القلاع " الافتراض الذى عبر عنه انجليز فى عام ١٨٥٨ فى احدى رسائله الى ماركس بشكل مرئى :

" هناك اينما عاش العرب فى العربية الجنوبية (اى فى اليمن) بشكل حضرى ، فانهم قد كانوا حسب اليراهين شعبا متحضرا مثلهم مثل المصريين والاشوريين ... الخ ومنشأتهم يؤكد ذلك " . (ماركس ك . ، انجلزف . - المؤلفات الكاملة . المجلد ٢١ صفحة ٤٨٤) .

وعلى كل حال لم تحول كل القصور الى اكواخ .

فهناك قصور مفروشة بشكل فاحش وبعد ان صعدنا مضيقا جبليا رئيسيا رأينا قصرا شامخا ارتفاعه ستة - سبعة امتار على تل بجانبنا ، وكأنه قد من ثلاث قطع منفصلة ذات ارتفاعات مختلفة ، تبدأ النوافذ التى تستخدم ككوات فى نفس الوقت على ارتفاع ثلاثة - اربعة امتار من الارض - تحيط المتاريس الحجرية بفناء صغير ، التل مزروع كله بالصبار ، طريق منحنى بشكل دائرى يودى الى البوابات .

المشايع الاقطاعيون

نشاهد فى الطريق مجموعة من الناس ، يتوسطهم شيخ اشيب اللحية فى ثوب ابيض فضفاض وفى خصرة جفل فضى وعلى راسه عمامة خضراء ، وبقرية خادمت بدويات انصاف عراة بقمصان مفتوحة وبعيد عنهما شاب اسمر نوجه حاد وعلى رأسه قبعة من القش .

ينتصب امامى كل محيط القرون الوسطى ، الشيخ الاقطاعى ، مالك القصر ، اثنان من الفلاحين (خدم او مستأجرون) ويهودى قادم من المدينة المجاورة ، يحتمل انه وصل للاتجار او لصفقة مالية .

نتبادل التحيات مجاملة مع الشيخ ، ثم نجيب على سؤال لماذا وصلنا .

- تجار روس ، ذاهبون الى الامام للتفاوض حول التجارة .

ينتهى فضولة ، اطلب منه السماح بتصويره هو وكل الموجودين معه ، يوافق على الطلب لكنه يرفض ان يكون اليهودى معه وقد كان رفضه بحزم وذلك لان اليهودى لا يستحق ان يكون معه فى صورة واحدة وهو الشيخ ، ومع ذلك فقد استطعت ان التقط اليهودى - الذى تعمد التأخر فى الطريق - فى الصورة مع الشيخ .

المشايع ، اليهود ، المستأجرون والفلاحون - هذه هى الميزة الثالثة التى تميز منطقة الجبال عن تهامه .

تبرز هذه الميزة بوضوح خاص لاكتمال النمط الاقطاعى النموذجى فى القسم الجبلى من اليمن ، واذا كانت العلامة المميزة لتهامة هى الاساس القبلى ، والخلافات الموجودة ، وكل المشاكل والتناقضات تدور على اساس النظام القبلى ، فاننا فى الجبال لم نسمع تقريبا عن القبائل والمشايع وزعماء القبائل ، وبدلا من هذا تبرز صور المشايخ الاقطاعيين ، مالكي القصور ، والاراضى الزراعية الواسعة ، المراعى والمدرجات الزراعية فى الجبال .

وهذا الفارق مع ذلك ليس لصالح تهامة ، انه يتحدث عن ان الاقطاع فى الجبال قد تبلور ، بمشايعه وفلاحيه المزارعين ، بعسكره وتجاره الحضريين المحليين (بشكل غالب من اليهود) ، بالطرق الراقية لفلاحة الارض ، لقد سبقت الجبال تهامة بكثير ، تهامة التى تمارس الرعى والزراعة البدائية ، بسكانها ذوى النمط القبلى او ببساطة النمط العشائرى - البطريركى ، يعيش سكانها انصاف رعاة ، هنا فى الجبال مملكة الملك " ارتور " الاقطاعية

المبكرة من القرنين السادس والسابع ، أما هناك فى تهامة ، فإن الناس لا يزالون يعيشون حتى الآن نمطا بطيريكيا - قبليا ، وإن كان يمثل بدوره مرحلة أعلى بكاملها عن النمط الرعوى - الصحراوى لبدا الحجاز .

مرحلة تاريخية كاملة - فى خلال يومين من الطريق فى شبه جزيرة العرب ، هذه المنطقة العذراء فى الحضارة العالمية ، تحت الجواجز الرملية ، تحت اشعة الشمس الحارقة ، مثل المومياءات الفرعونية احتفظت بذاتها بضعة عهود من حياة البشرية ، عهود بدأت تهتز وتتخلل فقط تحت مطرقة الحرب العالمية ، تحت رنين الذهب الامبريالى وتحت دوى الثورة الاشتراكية . هذه هى اول الانطباعات عن الجبال ، وهى تتعزز وتتكامل فى كل مراحل الطريق اللاحقة .

نتسلق راحقين من فج اصيل نعبر بضعة مرتفعات على الممرات المتعرجة المملوءة بالاحجار وخمائل الصبار على جوانبها ، نصل الى منخفض واسع ، وبعد ان ندور حول اطرافه نصل الى مدينة مناخة ، حيث يجب ان نتوقف مرة اخرى .

تقع مناخة على المضيق الجبلى الرئيسى فى الطريق الى صنعاء ، تمتد على جانبيه المضيق ، ومنها تبدو سفوح الجبال الواسعة والتى تتحول تدريجيا الى شعاب وسهول ، تغيب فى الافق الضباب الازرق ، نشاهد قري منفردة على المنحدر الغربى تتخللها المدرجات الخضراء من القمح والذرة .

وفى الشرق نرى فجاً متعرجاً يتحول بعيداً فى الاسفل الى سهل اغبر بلا لون ، ثم سلسلة جبلية شاهقة من جديد ينبغى ان نصل اليها فيما بعد .

مناخة

مناخة - مدينة شرقية نموذجية من مدن القرون الوسطى ، اهتمت تحت تأثير تجارة القوافل النشطة ، هنا المرحلة الأساسية ، فهى فى منتصف طريق القوافل السائرة من الحديدة الى صنعاء ، ولهذا فان الساحة الصغيرة مملوءة بالجمال الباركة طلباً للراحة ، الحمير تنهق والبغال واجمة ، مجموعة افنية للتوقف فى بضعة شوارع - واسواق ، منطقة سكنية صغيرة ومزروعات الذرة على السفوح ، وعلى الساحة بقرب الطريق الكبيرة مباني حكومية تلغراف ، سجن ، فناء يستخدم عنبر للقوافل فى نفس الوقت ، ومكان لوقوف القوافل الحكومية . وعلى

مسقط الجبل اينما ترفع (المدينة) تقع قلعة مراقبة فيها حامية صغيرة ، كان الاتراك يقعدون بثبات فى هذه المدينة فى عهد الامبراطورية العثمانية : لهذا لا يزال فيها طريق معبد ، وبها قباب جميلة لخزانات المياه وبيوت الخلاء بناها الاتراك من الحجر المنحوت ، تلك البيوت التى لا تتناغم بشكل كامل مع نمط حياة البلاد البدائية .

فى السوق كثير من الحوانيت فيها بضائع عاديه من الحبوب ، الدخن ، الذرة الشامية ، قشر البن ، وعلى العكس من اسواق تهامة يوجد هنا كثير من البقول والخضروات فى مثل هذا الوقت الخيار والطماطم وحتى الفواكه مثل المشمش والليمون المجلوبة من صنعاء ، نبتلع بشراة هذه الثمار الاولى " فى العربية السعيدة " . وان كانت قليلة وقد فقدت طعمها نظرا لطول الطريق الجبلى الصعب والقاسى من صنعاء . وفى حوانيت الاقمشة كثير من النسيج المحلى : ابسطة بيضاء بحواش حمراء ، قطع كبيرة ثخينة من قماش احمر مخطط ، يستعمل بدلا من السجاد ، مصنوعة من القطن المحلى يدويا بمساعدة انوال بدائية مثل تلك التى شاهدها فى الحديدية ، هذا القماش القوى المتين ، والى جانب هذه المصنوعات الرائعة ، توجد وفرة من الاقمشة القطنية الرديئة والرخيصة التى ادهشتنى بوجود الماركات عليها والمصنوعة فى المعامل اليابانية فى شنغهاى ، وقد رسمت عليها حروف صينية ، وقد تأكدت فيما بعد ان هذه الاقمشة اليابانية الغليظة اضافة الى المنسوجات الاخرى تغطى السوق اليمنية النائية ، تتنافس حتى منسوجات ما تشستر ، هذا بغض النظر عن ان اليابانيين لم يوجدوا بشكل مباشر فى اليمن ابدا ، اذا لم نأخذ بعين الاعتبار واحد ما من غرباء الاطوار منهم الذين يصطادون بعض المنتجات البحرية على السواحل قرب جزيرة كمران ، هذه الكائنات البحرية التى تشكل المادة الوحيدة للمستوردات اليابانية من اليمن والتى تسمى باللغة العربية " فرج البحر " وهى الجملة التى لا تجد مقابلا لها فى اللغة الروسية الخجولة أو لا توجد ترجمة لها فيها ، ومع ذلك ليست المسألة هنا ، فقد تذكرت نقيضا لذلك حديثا مع بعض الرفاق فى الهيئات التجارية ، حيث اصابهم الرعب لمجرد الافتراض بانه يمكن اقامة تجارة مع بلد ليس فيه مقومات تجارية بطاقم من العاملين لا يقل عددهم عن عشرين شخص كما هو مألوف ، وبما ان الاحتفاظ بمثل هذا الطاقم فى البلدان العديده يعتبر خسارة فقد استنتجوا بسعة افق روسى حقيقى : يعنى ان التجارة مع البلدان العربية رعبه وخيال ، وليس لها نصيب من قبل رجال الاعمال الواقعين الصائحين ، حسبما يعتبرون انفسهم ، فى حين يملأ اصحاب المعامل اليابانيين الجزيرة العربية ببضائعهم من المخازن فى بومباى بمساعدة شبكة متشعبة من الوسطاء (الهنود غالبا) بكل بساطة فى نفس الوقت ، وما يلفت النظر الى جانب الاقمشة القطنية اليابانية ، المصنوعات

الحريرية الصينية مثل الجوارب ، المناديل ، واشياء اخرى صغيرة من النوع الرديء بما فيه الكفاية (وقد اقتنعنا بذلك من التجربة الخاصة حيث تمزقت الجوارب فى يوم واحد) ، وتبدو هنا وهناك خردوات الحديد الالمانية - النمساوية والتشيكية ، سلع صغيرة ، خيوط ، مصابيح يدوية ، زجاج الفوانيس الخ ، اما البضائع الامريكية فتتمثل فقط بصفائح الكروسين استندرات اويل ، والبضائع الانجليزية غير ملحوظة .

١٠ نمر على التلغراف : وهو عبارة عن غرفة صغيرة ، ومدير التلغراف هو نفسه عامل التلغراف الوحيد ، يستند بمرافقيه على المنضدة ينقر على الجهاز رسالة عاجلة ببطء ، وحين دخلنا ينهض ويحيينا بوقار ، من الواضح اننا قد ازعجناه ، لان الوقت فترة ما بعد الغداء ، وهو جالس يمضغ القات وقد وقع فى حالة يكون الحديث فيها من الاعمال التى اقل ما يرغب فيها ، ساعات القات ... قد ذكرناها سابقا ، هى اكثر الساعات نعيما فى حياة اليمنى ، ففي هذه الساعات من الواحدة حتى الثالثة بعد الظهر تقريبا ، لا يستطيع فيها الفقير المدقع فقط متعة تلمس حزمة الاوراق الخضراء المحتاطة مسبقا ، ووضع نتف صغيرة منها فى الفم ومضغها يتلذذ يمسح بها لعاب سقف حلقه وعندما يكون المقل جماعيا تتخلله صيحات منفردة ، تعكس حالة الابتهاج نصف السكرانة التى يرفع فيها ما ضفوا القات نفسا من دخان النارجيلة بالدور ، ويرتشقون فى النادر من ماء باردا مشبعا بالبخور من اكواب صغيرة .

القات

وتحت علامة القات " مثل الفودكا عندنا المعروفة بقدر ملغوم " تمر الحياة ليس فى الريف اليمنى فقط بل وفى المدينة ، ان حزم الاوراق الخضراء الجذابة تعتبر سببا اساسيا للتبذير ، للتخلف عن العمل وسببا للجريمة ، واكمالا لكل ما تقدم فان القات يضعضع صحة المخزنين المتهورين ، كما يستخدم القات مصدرا لربح ملاك المزارع الصغيرة المزروعة بالاشجار اللطيفة المظهر ، والتى لا يتجاوز حجمها شجيرة اليلك ، ونتيجة لمضغ القات ، الذى يتم تعاطيه بدلا من الكحول والتبغ الى حد ما ، وكذلك بدلا من مجموع المتع ووسائل الترفيه المعدومة فى هذا البلد المفلق الذى يرجع ذلك الى صرامة العادات والانلاق ، فان نصف السكان يقضى وجوههم الصحى ، كما يصابون بمجموعة من الامراض المزمنة حيث انهم يتحولون الى مخدرين عاجزين ، والنضال ضد القات لا يصعب بسبب وجود ظروف معيشية خصوصية متميزة فقط ، بل ولاستحالة استبداله باشكال ترفيهيه اخرى ايضا ، وبسبب العادة القوية العنيدة منذ غابر

الزمن ، لقد وصلت هذه العادة الى مرحلة طقوسها الخاصة ، يحكى ان الامام يحيى الذى لم تنعدم فيه طموحات التقدم والاصلاحات الجزئية فى البلاد ، فكر تحت تأثير الأطباء بالحد من استعمال القات الى درجة معينة ، وكبداية توقف شخصيا عن مضغ القات ، الا ان هذه " البدعة " واجهت بتذمر قوى من العلماء مفئلين بمجموعة من المشايخ المؤثرين ، وكشفت للرئيس الروحى والمدنى كل تناقض سلوكه مع نمط الحياة المتوارث عن الاجداد والذى ترسخ منذ القدم ، وتحت تأثير الغيورين بصرامة على الاصلة الوطنية والمشجعين بدون شك من قبل ملاك مزارع القات وتجاره ، اضطر الامام للمهادنة ، حتى انه نفسه كان يمضغ القات بعد الغداء ، كى لا يعطى رفضه للقات صفة مبدئية او قطعية .

ضيفنا مدير التلفزيون بالشامى ، وسلم لنا فى نفس الوقت برقيات تحية من سيف الاسلام محمد من الحديدة ومن عامل باجل ، هنأنا سيف الاسلام بسلامة الرحيل الى صنعاء ، التى سماها " عاصمة الخليفة " ، فى الجملة الاخيرة اشارة الى ان المؤمنين التابعين للمذهب الزيدى يعتبرون الامام خليفة لقاطبة المسلمين ، اينما يكون مقره عاصمة للمسلمين ، وعلى كل حال تضمنحل هذه الصيغة فى محتواها فى واقع الحياة القاسى ، الذى لا يقدم اية امال لتحقيق امال الجامعة الاسلامية .

يشعر مدير التلفزيون بانه ممثل السلطة العليا فينطبق بخطاب حول الخصائص السيئة للبضائع الايطالية ، معبرا عن امله فى ان تكون البضائع الروسية على مستوى الامال المرجوة ، ثم نفترق بعد ان تبادلنا المجاملات .

فى النزل الصغير يخبرنا قائد حراستنا انه يتحتم علينا الانتظار للسفر الى اليوم التالى ، وذلك لأنه لا يوجد جمل نستبدله بالجمال الاول ، واطافة الى ذلك فقد بدا البغل الذى كان بصحبتنا يعرج ، وان السلطات قد ارسلت طلبا الى الامام حول اذا كان يمكن تغييره ببغل اخر ، انتظار جواب الامام مسألة فى غاية الاهمية ، وقد اقترح علينا ان ننام بهدوء ونسافر صباح اليوم التالى : وفى تلك اللحظة لم نتقبل بجدية حجته فيما يتعلق لا بامكانية تدخل الامام فى مسألة تغيير بغل باخر ، فارجعنا سبب التأخر الى نوافع سياسية ما او ببساطة رغبة العسكر فى الراحة فى مدينة ملائمة نسبيا على حساب " الرجال المشهورين " .

لا شك ان الأخير كان واحدا من الاسباب ، لكننا اقتنعنا فيما بعد ، ان واقعة الاستغاثة من السلطات المحلية فى حد ذاتها الى العاصمة حول مصير حيوان حكومى لا تشكل بحد ذاتها امرا عجيبا ، فاذا لم يكن الطلب مقدما الى الامام ، فانه سيكون فى كل الاحوال الى اقرب

مساعديه الوزير (يشبه رئيس الوزراء) القاضى عبدالله وانه سيكون مشغولا يبحث مسألة يمثل هذه الاهمية ، الجهاز البيروقراطى فى اليمن بسنيط بما فيه الكفاية ، فاصغر القضايا توجه الى الإمام او الى رئيس وزرائه . .

الجواسيس

لقد لاح لنا فى توقفنا الاول وعن قرب ، لاحظنا نشاط مختلف النماذج الغربية ، التى من الواضح انها تتحرك باوامر احد ما من الخارج ، وقد ظهر هذا بشكل جلى خاصة فى مناخة ، فى النزل الصغير يلاحقنا رجل رث الثياب بعناد ، يسعى دون اى طلب منا ان يتحدث عن مأزق الامام ، وبناءا على ما يقول يبدو ان كل السكان اطلاقا معبأون ضد الامام ، الجنود يهربون ، التجارة توقفت ... الخ .

الجميع يتعطشون لوصول الانجليز ، يخافون من الدمار الذى ستترب عليه غارات الطيران ، الكل يعانى من الضرائب الباهظة .

نحاول التهرب منه ، وذلك لان معلوماته تاخذ صفة المغالاه والتحيز وتتناقض بشكل ملموس مع مجموعة من الوقائع المرئية ومع الانطباعات المباشرة التى حصلنا عليها نتيجة الاحاديث مع اشخاص اخرين ، ورغم ذلك فهو لا يكف عنا ، يتململ ، يساعد فى جلب الاشياء يسعى مزاحمة العسكر الذين يرافقوننا .

نرجوه مرة ثانية ان يكف ، نهده بالشكوى الى العسكر ، وحين رأى انه ليس لديه اى شىء اخر يطلب " بخشيشيا " (للشاهى) والوداع ، ينزع حزامه ويحدثنا انه كان فى حينه خادما لجيكوب ، وكأنه مطلوب تأكيد ذلك ، ابتزنا محتالا ريالين فضه ، ومع ذلك ظل يتابعنا طول الطريق بثبات عن بعد ، ولم يفقدنا من لمح بصره حتى وصلنا صنعاء نفسها .

بطريقة او باخرى نرتب انفسنا للمبيت ، هناك جبال ، والاثاث الداخلى للبيوت ليس مثما هو عليه فى تهامة ، لا توجد هنا الاسرة المقتولة من القش ، نتمدد على مصاطب من الطين داخل الغرفة التى ارضيتها من تراب يوقظوننا عند الفجر وبعد ان شربنا كوبا من اللبن نمتطى البغال وبعد ان اصبحنا خارج المدينة فى طريق معبد واسع بداننا النزول فى فج عميق ، وتتحول الطريق المعبدة الى طريق مملوء بالحجارة ، التى لا تستطيع الخطو عليها سوى البغال ، فهى تجد بمهارة المكان الملائم لوضع الحوافر دون ان تفقد نقطة استنادها ودون ان تقع فى الهاوية الفاغرة .

من حين لآخر نصادف قوافل الجمال الطويلة ، التي كان يجب علينا ان نبتعد عنها بالقدر الممكن ، وسبب ذلك أن السير المنتظم للجمال الذي لا يلوى على شيء (لا ينظر الى ما حوله) وهو حامل رزمة او حزمة معلقة على جانبية ، قد تؤدي اما إلى ان تدفع الراكب المقابل الذي اصطدم بها الى الهاوية ، واما ان تلتصقه بالصخور وتسحقه مثل الرغيف ، كان المنخفض شديد الانحدار ، وكانت البغال تسير بسرعة ، وبعد ساعتين وصلنا الى سفح السلسلة الجبلية الى سهل خانق محترق .



الباب العاشر

* من مضيق الى مضيق

* مدقق

* التركس الشاكس و " شخص " فى الحديدة

* الجراد والاعلام الحمراء

* المنجم

* نتائج الرحلة

من ضيق الى ضيق

فى نهاية المنخفض ، هناك حيث يتحول الفج الى سهل جاف مملوء بالصبار ، يستقر مقهى عند السفح ، كوخ ضيق صغير يتكون من اربع او خمس زوايا ، مرصوص باحجار غير منجورة ، يمتلكه بدوى واهن بثياب رثة ، نادانا بالحاح لنستريح ، نتوقف ، يصب لنا فناجين من قهوة القشر ، ويعد لنا على الفحم بيضاً زنخا من الدخان ، وقريبا منا يحوم ابنه ، صبى فى السابعة او الثامنة من العمر .

ما هى اهتمامات من يعيشون فى هذا الكوخ على حافة الطريق ، ما هى الغايات الاجتماعية المثلى لصاحب هذا المقهى ، نسأل الصبى .

— ماذا تريد ان تكون عندما تكبر ؟

نظن انه سيعبر عن رغبته فى ان يصبح عسكريا ، ضابطا ، قاضيا ، موظفا ، شيخا ...
فما هى الطموحات التى يمكن ان تكون لدى صبى هذا المالك ؟

— اريد ان ابقى فى هذا المقهى طول حياتى مثل ابنى .

صبى سعيد ، مثله قنوع متواضع جدا وبسيط جدا تحقيقه ، يشترط ان تظل اليمن ثابتة لا تتغير عشرات السنين القادمة ، وحينها سينتقل هذا الكوخ المبنى من الاحجار من الاب الى الابن ومن الاخير الى الحفيد ، كانه ضمانه لثبات مثلهم .

لكننا للأسف ، عرفنا فى صنعاء ، بان الحكومة اليمنية تشق طريقا جديدا صالحا للسيارات من الحديد الى صنعاء ، ستمر هذه الطريق بمناطق اخرى تماما ، وتعبّر شعاب وسلاسل جبلية مغايرة ، وحين ينتهى شقها ، وهى مسألة ستكون فى الاعوام القادمة ، فان سير الحمولات الرئيسى سيمر بها قاطعا الطريق من البحر الى العاصمة فى يوم وليلة ، وبهذا ستفرغ ناحية مناخة وشعابها بالكامل من القوافل المارة بها ، وعند ذلك سيتحتم على مالك المقهى واولاده القنوعين ان يتركوا كوخبهم وان يذهبوا الى المدينة طلبا للرزق ، ابدأ ، فان المستقبل القريب جدا لليمن يحمل فى طياته افاقا غير متوقعة لصاحب هذا المقهى ، الفارق فى غبطة ونعيم مشكوك به فى كوخه .

وداعا ايها الصغير السعيد المفكر بواقعية ، لن تكفيك نزعاتك العملية الواهمة طويلا ،

قدما نصل الى سهل تتخلله اكمام صغيرة .

السهل حار مثل سهوة تهامة ، تبطىء البغال خطوها ، تجتاز سلاسل الجبال بصعوبة ومنخفضات ينبت فيها الصبار ، تمر خمس ساعات فى الطريق ومناخة لم تختفى عن الانظار بعد ، مناخة المفروشة على مرتفع المضيق الجبلى البعيد ، نمر مرة اخرى مروراً قصيراً فى مقهى نائى على حافة الطريق ، ثم تتحرك قدما ، نرى تلالا جديدة اكبر ، واشباحا غريبة متفرقة للجمال المتناثرة على كل التل من السفح حتى القمة ، تقضم النباتات الشوكية بشراهة ، وفجأه يبدأ العسكر ينادون بكل اصواتهم مترنمين بمختلف النبرات :

— احمد بن محمد المطرى ! احمد بن محمد المطرى !

وعلى سؤالنا ، ماذا يعنى هذا الاطراء او التبجيل ، يجيب العسكر بان كل الارض التى نسير عليها لعدة ساعات يمتلكها الشيخ احمد بن محمد المطرى ، تعتبر المنطقة باكملها ملكا له ، وكل من يمر بها عادة ينادى باسمه يكرره فى مختلف المقامات .

محقق

نصل قرب المساء الى سهل جديد واسع وفى نهاية السهل جبل فى قمته قصر محقق ، هذا واحد من المراكز الادارية المهمة ، رغم ان سكانه يشكلون حامية صغيرة ومحطة تليفراف ، نتوقف للمبيت على جبل مقابل له ، حيث تقع قرية صغيرة بنفس الاسم .

لا يوجد فى هذه القرية لا التلغراف ولا السلطات ، كما لم يخطر احد بوصولنا ، يتوجه شاويشنا بنفسه ليبحث لنا عن مسكن ، كل الاكواخ مكتظة ، وبعد عدة محاولات استطلاعية فاشلة يشير الشاويش الينا على احد الاكواخ ، وحين بدانا نرتب انفسنا بجانيه ، لم نكن ندرك بعد ان اكملنا انزال حمولة البغال ، حتى ظهرت امرأه من مكان ما ، اتضح انها صاحبة الكوخ ، تمطرنا بسيل من الكلمات الغليظة داعية على رؤوس العسكر ، وربما رؤوسنا ايضا ، بكل لعنات السماء المختلفة .

نطلب مرتبكين توضيحا للقضية ، اتضح ان العسكر العابرين قد اضجروا السكان المحليين بتوقفهم اللانهائى فى هذا المكان ، اولئك العسكر الذين يطلبون الغذاء المجانى ، واحيانا تصاب الممتلكات بخسائر اخرى ، حتى اصبح وصول اى عسكرى الى الكوخ ينظر اليه بانه مصيبة او كارثة دورية ، والحالة كهذه ، يزداد غضب الامراه ، لان الشاويش الذى يقود جماعتنا

لم يهتم بسؤالها مسبقا عن امكانية مبيتنا حتى من قبل المجاملة ، وفى سبل السباب المسعور يبدو كما لو انها افرغت التذمر المتراكم ضد العسف الذى يقوم به العسكر والصف الطويل من الضيم والمضايقات .

نعلم انه لا نعتزم شغل الكوخ ضد ارادتها ، حتى اننا بدانا فى رص العقد التى كانت قد فتحت . حينها يسوى الامر ونحصل على " الموافقة المعنوية " ، وكان الشئ الرئيسى انه بعد ان عرفت انها لن تخسر هذه المرة ، هدأت وبدأت تطهى الطعام لنا ، امتد ينا على الاسرة المتقلبة قرب المدافىء تاركين للعسكر الاندساس تحت قبته الخائفة .

التركى الشاكى و " شخص " فى الحديدة

يحل الليل سريعا ، امامنا سلسلة جبال جديدة طويلة ، يجب ان نقطعها غدا لكى نصل فى اليوم التالى الى صنعاء ، ننتهى من أكل الدجاجة التى لا تتبدل تنتظر النوم بلذة ، وفجأة ينتصب امامنا ، نموذج غريب آخر كما فى مناخة ، تركى شائب يبدو ذلك من طربوشه المهترى ، متعب معقر من رحلة طويلة مشيا على الاقدام ، يبدأ يؤكد لنا بحوية ويتشفى انهيار الحكومة اليمنية :

- يهرب الجميع من صنعاء ... الامام بسياسته انهض الجميع ضده ، توقفت التجارة مع عدن ، والبضائع مفقودة ، والطائرات الانجليزية على وشك الوصول الى صنعاء ترمى بقنابلها ، لكن السكان لا يخافون من الانجليز ، انهم على استعداد للترحيب بهم كمنتقذين لهم من الامام . يشقشق بعبارة واحدة يكررها عدة مرات .

- فليأتى كائن من كان .

نسعى الى استقصاء " انحداره الاجتماعى " باهتمام . يتضح انه تاجر تركى ، ذاهب على عجل الان الى الحديدة فيبحث عن بضائع ، بدا يتباكى على اوقات النعيم ، حين كانت سلطة الامبراطورية العثمانية تقبض بيدها على هذا البلد واعطت مجالا واسعا للتجار الاتراك للكسب ، اما الان فان الاتراك يرحلون من اليمن ، لان التجارة تنتقل قليلا قليلا الى التجار العرب ، ظل هذا التركى متذمرا ، يتذكر باسى الايام الخوالى حينما كان فى بحبوحة من العيش .

الصورة واضحة : بقية عفتة من المحتلين الاتراك ، ممتلىء بالحقد على اليمن المستقل ،
يتمنى له كل اخفاق وفشل ، يساعد بكل قوله اعداء اليمن ، ينشر كلمه بكلمة تلك النمائ
المستفزة ، التي سمعناها منذ توقفنا السابق من قم " خادم جيکوب " .

وفي نفس الوقت - كما عرفنا فيما بعد - كانت قد وصلت الى الحديدية شخصية مؤثرة ،
من الواضح انها مرتبطة بالانجليز (احد الوزراء المصريين السابقين التابعين للانجليز) وقد
نشرت هذه الشخصية مثل هذه الاخبار وازافت اليها معلومات اخرى وقد كانت هذه الشائعات
تهدف بالاساس الى ما يلي :

وجه الانجليز الى الامام انذارا نهائيا ، يطالبون بحل مشكلة المناطق المتنازع عليها
(المحتلة من قبل الامام) وبمجموعة من التنازلات الاخرى ، بما في ذلك اعطاء حكم ذاتي لتهامة
، وانه خلال الايام القادمة ستلقى الطائرات الانجليزية قنابلها على كل المدن اليمنية بما فيها
العاصمة ، والاسطول الانجليزي سيمسح الحديدية من على وجه الارض ، ستنتفض القبائل ضد
الامام وستنتقل السلطه الى يد شخصية اكثر مقبولة لدى الانجليز ، وما دام هناك متسع من
الوقت ، يجب التنازل ، واقناع الامام بتقديم تنازلات ، وطلب المسامحة من الانجليز .

في هذه الايام ، ظهرت بارجة انجليزية على سواحل الحديدية ، وكأنها صدفة ، وقد كررت
هذه الشخصية بالحاح تشير باصابعها عن يمين ويسار باتجاه البحر :

- اترون ، انهم قد اتوا ، اذا لم يكن اليوم فغدا سيبدأون القصف .

وحين اصبح واضحاً ، ان الحكومة رفضت مطالب الانجليز بالتنازل ، اكدت هذه
الشخصية يجزع :

انتهى اليمن ، ليس له من خلاص .

وفي نفس الوقت حاولت هذه الشخصية ، اقناع الوجوه المؤثرة في الحديدية بالاقدام " من
اجل المصالحة الوطني " على استبدال الامام يحيى بشخصية ما اخرى ، ولو حتى على نطاق
تهامة ، لقد كانت التربة غير ملائمة لتجار الحديدية ، فرغم انهم قد ارتبطوا بالشركات الاجنبية
ويتاعهون تحت التأثير المتعاضم للسلطة المركزية ، التي تسلك الى ارباحهم التجارية ، الا انهم
لم يتجرأوا على الدخول في صراع مكشوف مع صنعاء ، لان علاقتهم بالسوق الداخلي وخوفهم
من التنكيل غلبوا على انفسهم واستسلموا استسلام الكمبرادور المتذبذب ، وبالمناسبة ظهرت
هذه الشخصية " امام رفاقنا الذين بقوا في الحديدية ، محاولة اقناعهم باخطارنا تلغرافيا عن

الموت الذى يهددنا فى صنعاء ، وعمل كل شىء من أجل عودتنا من الطريق بأسرع ما يمكن .
وهكذا ، انه اجزاء متفرقة ، من انطباعات متقطعة كانها محض صدفة ، وقليلًا قليلًا
تتضح الصورة المعقدة للشبكة العنكبوتية من الدسائس والاستفزازات ، التى ينسجها بمهارة
رؤساء عدن المجريون ، وقد تأتى لنا لاحقًا ان نصطدم بنتائج وظواهر هذا العمل فى صنعاء .
اليوم قبل الاخير من رحلتنا ، صعود طويل وشاق ، نعبّر المنطقة ، التى اشتهرت بانها
المقل الرئيسية لنشاط الثوار اليمنيين فى عهد الاحتلال التركى ، نرى هنا وهناك على قمم
التلال ، ابراج المراقبة التى بناها الاتراك ، نتوقف فى الظهيرة فى قرية صغيرة اسمها سوق
الخميس ، هنا تبدأ منطقة مزارع البن مرة اخرى ، وسهل الحيمة المشهور غير بعيد من هنا ،
هذا الوادى الذى سمي باسمه صنف من اصناف البن اليمنى ، اتى الينا تجار البن يقترحون
علينا عقد صفقات مباشرة هنا للتخلص من وسطاء الميناء ، كما ياتى الحكام المحليون ، بدأ
احدهم حديثًا مفتوحًا مع قائد حرسنا حول المثل السياسية " للاعضاء النشطاء " من المجموعة
العسكرية اليمنية ، يثبت لنا بان اليمن مؤهلة لتوحيد شبه جزيرة العرب تحت سلطتها ، بل وحتى
توحيد الهند ومصر ، حيث يوجد اتباع ومريدون للامام . نرى ان هذا هو برنامج الحد الاقصى
، الموجود فقط ارفع همة فئه نشطه واسعة ، ثم عرفنا فيما بعد واقتنعنا بانه لا يوجد لدى
الايواساط اليمنية الحاكمة مثل هذه الاهداف ، وانها تفكر بطريقة اكثر واقعية ، تطمح لان يتعزز
استقلال اليمن فى حدوده الداهنه ، لانها فى قوتها الانتاجية بهذا القدر ، اما طموحها فى
التوسع فلا يتمثل الا بشكل الحاق بعض المقاطعات فى الشرق والجنوب الشرقى (مارب
وحضرموت) .

الى الامام قدما ، نمشى اعلى فاعلى ، لقد أصبحنا على ارتفاع اكثر من ثلاثة الاف متر
فوق سطح البحر ، وعلى طريق واسع مقوس الشكل ، تتعرج حول منخفض سحيق ، مغطى
بطيات كثيفة تتألف من مدرجات البن ، ندور حول وادى الحيمة ، الذى تتصاعد من قوارته
سحب مظفرة ، وبعد ان نخلف بمجموعة مضاب صخرية ، تهبط الى نهر صغير ، حيث تبدأ
طريق معبدة صالحة بما فيه الكفاية لعبور السيارات ، وقرب الجسر وعبر النهرين صف من
المبانى الحجرية ، هذا هو سوق الخميس ، حيث يشتغل السوق يومًا فى الاسبوع (يوم الخميس
(لكل المنطقة ، لكن السوق الان خالى ، لا يرى احد فى المبانى الحجرية ، نتابع سيرنا فى
الطريق المعبد الواسع ، الذى لم نتوقعه ، نتحسر على عدم وجود سيارة يمكن ان نبلغ بها
صنعاء خلال ساعتين او ثلاثة .

تتخرج الطريق على مضربة سهلية مارة بالمضائق الجبلية القليلة الانحدار ، بين الاراضى الخضراء الشبيهة برقعة الشطرنج ، تخضر مزارع الذرة والقمح ، وتصادف قرى ليست من الاكواخ البسطة وانما من مباني ضخمة تتألف من ثلاث او اربع طوابق ، يقال انها بنيت قبل الف سنة ، كلها قصور قرووسطية بكوات وابراج مراقبة ، تقع على المرتفعات تلتصق بمرتفعات الجبال ، لا يمكن الوصول اليها فى حالات الهجوم الا من جهة واحدة فقط ، نشاهد خرائات المياه الحجرية الواسعة التى بناها الاتراك على طول الطريق المعبدة الرائعة ، لقد ارمقنا ، تعد الساعات المتبقية للوصول الى متنة مكان المبيت الاخير .

فجأة ينتعش مرافقونا ، يتبادلون النظرات بهلع ، يشيرون الى سحابة غبراء بعيدة .

الجراد والاعلام الحمراء

- الجراد ، الجراد - نسمع الاصوات المتقطعة .

نحلق فى السحابة الغبراء ، نرى كيف تتسع متحولة الى سديم كثيف ، تغطى الافق الذى كان صافيا قبل برهة قصيرة ، نمضى نصف ساعة واذا بنا ندخل فى عمق هذه السحابة من اسراب الجراد المنتشرة .

تضربنا الحشرات بأجثحتها ، تصيب اذاننا ، كما تصيب البغال وترتمى اكاداسا على الطريق تشكل غطاءا كثيفا تخطو حيواناتنا عليه وكأنها تخطو على بساط .

ومن حولنا - ارض ... مزدهرة ، زرع اخضر يتحرك بالكاد من البرودة الطرية للهضاب الممطرة ، لقد طوقتها الجموع الشرهة بكثافة .

نضال ؟ ... لكن ايمكن ان نسمى هذا نضالا ؟ ... ففى بعض الاماكن المنفردة التى تقطعها السواقي يركض اناس منفردون ، غالبيتهم من النساء والاطفال يلوحون بمراوح كبيرة مخشخشة ، ان طرد الجراد من الحقول بهذه الطريقة تشابه تقريبا طرد سحابة ممطرة بطلقة بندقية ، فقط فى بعض الحالات وحين يكون الريح ملائما يستطيع بعض المحظوظين الفرادى جعل اسراب الجراد المتدفقة على قطع ارضهم تنتقل الى قطعة مجاورة قبل ان تلتهم الاخضر واليابس ، لكنه بشكل عام ، يبدو الانسان ضعيفا عاجزا وكائنا حقيرا امام جحافل الحشرات النهمة التى لا تقهر ، تلتهم الجراد بالدور كل الاراضى ، مستغله العادة الذاتية لمالك الارض ، الذى يسعى للمحافظة على ارضه فقط ، ولا يهتم بجاره قليلا ، ولو نهضت كل القرية وتعاونت

على طول الخط فى مكافحة الهجوم بقوة موحدة ، لكان من المحتمل تحقيق نتائج ما معينة ، غير انه لا ذكر للنضال المشترك . تلويحات ، خشخشات بهيجان شديد ، تركض النساء والصبيان بهستيرية بمراوح كبيرة ، لكن بالكاد يستطيع واحد بالمائة طرد العدو الجاثم .

... وفيما بعد ، بعد شهر ونحن فى طريق العودة ، نشاهد قطع الارض السوداء المحروثة من جديد ، بدلا من الزرع الاخضر والاعصان الناضجة ، لقد اكلت الكتلة الجسيمة النهمة الزرع ، وتابعت هجومها قدما ، فى اعماق البلاد حتى وصلت الى الصحارى فيما وراء الجبال القائية

تذكرت كيف لاحظنا اسراب الجراد فى جدة ايضا ، القادمة من الصحارى الى سواحل البحار ، التى تناثرت حتى على سطح سفينتنا ، غير ان الحجازيين فى تلك الارض القاحلة ، لم يلعنوا هذه الكارثة بتاتا ، وانما كانوا يجرفون اسراب الحشرات فى اكياس ويعدون منها غذاء ، يمتصون الجراد بشراهة بعد ان يرموا باجنحتها القاسية ، لا شىء فى صحارى الحجاز يمكن ان تلتهمه الجراد ، بل على العكس فان اقواء البشر الجائعة هى التى تلتهمها .

الصورة النسبية عن الخير والشر مفهومة ، فالجراد فى الحجاز هو نعيم هبة السماء ، ليس الجراد هو الذى تغذى به اليهود المذكورين فى الانجيل بدلا من " السميد " ؟ ... بينما يعتبر الجراد شرا رئيسيا ، مأساة ، يقضى على ثمار عمل الانسان الدؤب فى " اليمن السعيد

لا يمكن الحديث عن تنظيم الدولة لمكافحة الجراد ، فالمكافحة تتم بالمراوح والخشخشة فقط ، واحيانا بالاعلام الحمراء التى كتبت عليها الدولة " لا اله الا الله " باحرف بيضاء من اجل ان يكون النجاح حليف مطاروى الجراد ، لقد كان غريبا بالنسبة لنا ان نرى هياكل نصف عارية خلف الاراضى المغمورة بالجراد ، وهى تلوح بالاعلام الحمراء كانت هذه الهياكل تركض من طرف الى اخر ، وكانهم ثوار يحملون يافطات الدعاية ، هنا وهناك ترفرف ، لكنهم يلوحون بها ليس من اجل الانتفاضة وانما نوبة عجز ، يحاولون صد الهوام الحغيرة الضعيفة التى تحولت بقوة جموعها الى جيش غارم لا يقهر .

نقترب حتى نصل الى مكان خالى (وكل السكان فى الاراضى التى طالتها الجراد) ، سيكون مبيتنا الاخير فيه .

يسمى هذا المكان فى الخرائط التركية سنان باشا ، باسم الجنرال التركى الذى احتل اليمن فى وقت عصيب ما ، يصدم هذا الاسم الاذان اليمنية ، ويسمون هذا المكان بكلمة قصيرة

"متنة" التى تعنى "مدينة" صغيرة بكل بساطة .

وهذه المدينة الصغيرة "تقطعها طولا وعرضا خلال خمس عشرة او عشرين دقيقة فيها بضعة منازل قديمة ضخمه ، وخزان مياه واسع تشكل مركزها ، وبجانب الخزان مبنى تشغله الحامية والسلطات ، نسكن فى احدى البيوت ، فى الطابق الثالث ، نشاهد من اعلى السقف الاملس المزارع المحيطة الخضراء ، والجبال القريبة والبعيدة ، وقطيع من الجمال السارحة التى تأخذ مكانها بين جدران القناء الحجرية القريبة من دارنا .

الجو بارد ، الريح تصفر ، تنتابنا رعشة ، الارتفاع هنا اكثر من ثلاثة الاف متر ، يكون الجو باردا فى الليل حتى فى الصيف .

يقدمون لنا الدجاجة المغلية التى لا تتغير ، المسلوخة الجلد والدهن ، يجيبوننا بـ "مافيش" المستمر حين نسأل عن وجود اى طعام اخر ، لقد كانت كلمة "مافيش" تتخلل كل رحلتنا من الحديد بثبات .

والخمسة والثلاثون صنف من العنب التى حكى لنا الشائب عنها فى الباخرة ، كل هذه الاصناف توجد على بعد عشرين او ثلاثين كيلومترا من هنا ، اما هنا فلا توجد سوى البدائية والشحه نفسها ، تلك الشحه التى صادفتنا على طول الطريق من الحديد.

المنجم

يقطع تاملنا ظهور منجم ، عجوز طويل نصف عارى وفى يده مسبحة ، ياخذ يقرأ المستقبل ، نوافق ببعض الابتسامه .

يقدم لنا سبحات الكهرمان ، يطلب منا دلکها بالبشرة ، يجعلنا هذا ناسف على الموافقه التى اعطيناها له ، غير ان تراجعنا صار متاخرا ، يبدأ المنجم بالتحديق فى المسبحة يهمهم بشىء ما ، يخيب املنا ، فبدلا من ان يتنبأ بالمستقبل او يعطينا تنبوء حول الحاضر ، الذى يمكن ان يكون شيقا لمعرفة نفسيته ، نسمعه يعدد امراضا فينا ليست موجودة فى الواقع ويقترح علينا معالجتها ، هذه الامراض غير موجوده فينا ، نرفض طلبه ، ونشكر خدماته ، ثم نطرح على العجوز سؤالا مباشرا ماذا يفكر عن رحلتنا ونتائجها المحتملة ؟

لا يخلو جوابه من خبث :

- اهدافكم القريبة ستبلغونها اما البعيدة فلا .

الجواب غير مرغوب فيه كثيرا .

نسأله ايضا :

ماذا تفكر عن الحرب : هل تتوقع الحرب ، وبماذا ستنتهى ؟

هنا يستسلم العجز ، انه مستبعد للتنبؤ بمستقبلنا ، لكنه لا يرى مستقبل بلاده .

- الجاب عن هذا ، الله وحده يعلم - يقولها بصراحة ، وفجأة يتوجه اليها ينتقل الى

الهجوم المضاد .

- قل ماذا تفكر انت عن الحرب ؟ هل من المؤكد ان الانجليز سيطيرون ويدمرون قرانا ؟

ينتقل دور التنجيم الى ، رغم عدم وجود مسبحة عندي ، لقد حرمتنى من امكانية الانتقام من محدثى الذي اجبرنى على ان افس الوسخ المتراكم فى قرون المسبحة .

اجبته بلهجة اقل صوفية او ابهام :

- ان يطيروا او يرموا القنابل ، هذا امر كبير الاحتمال ، اما ان يدمروا القرى والمدن

فهذا قليل الاحتمال ، لانهم لا يستطيعوا ان يلحقوا بها اذى كبيرا .

نتائج الرحلة

تخالصنا ، هو ايضا غير راضى عن اجابتي المراوغة ، يقترح مرة اخرى اشفائنا من جميع الامراض الوهمية نتوابع ، اعطيناه بقشيشا ، ثم يذهب .

يحل الظلام ، اخرج الى السقف المستوى ، تهب ريح حادة باردة ، وبقايا المزارع التى التهمها الجراد مخضرة بشكل باهت ، استحضر فى فكرى المراحل التى قطعناها من الرحلة ، تهامة الغبراء المضنية ، اشجار الاثل الخضراء فى سفوح الجبال ، الحيود الصخرية فى مضائق الجبال ، اشجار البن المتواضعة ، الصبار الشوكى الخبيث ، الخطو العنيد للبغال اللطيفة التى لا تتعثر ، الابراج التركية العديمة النفع ، قصور المشايخ ، الجمال البلدية ، الحمير الذكية الحثيثة ، البغال الصبورة الواثقة من نفسها ، الببغاوات ، القروء فى الاحراج والجرادين فى المنعطقات الصخرية .

البشر السود ، بدو تهامة الذين نخرهم القيظ والغبار ، سكان الجبال الرشيقون ذوي
اللحي السوداء العسكر المعممون واشربة الذخيرة فى اجسادهم النصف عارية ، واقدامهم التى
حوالتها قيظ الطرقات الى نعال جلدية .

المساحة الشاسعة الخالية قصور المشايخ التى تحيط باسوار منيعة ، الفلاحون الذين
ينضحون عرقا فى المزارع والحقول ، الاعلام الحمراء ضد اسراب الجراد ، المشايخ النقيو
الدم على صهوات الجياد الاصيلية ، الجمالة ذوي الوجنات الناحلة ، القوافل المربوطة بسلاسل
طويلة ... صفائح الكروسين وصناديق الذخيرة على ظهور الجمال والحمير ، قطعان الضأن
والماعز التى تقضم الحشائش الشحيحة من اجراف الصخور ... رمال ، خضرة ، صخور ،
مضائق جبلية ، سهول - وها هى الرياح الباردة الحادة الان ، وامامنا اخر سلسلة جبلية تحجز
العاصمة .

اعود الى غرفتى ، وهى مليئة بالذباب ، رائحة الدخان الحادة تتسلل من المطبخ ، يغلق
رفيقى النافذة ، وعواصف الرياح حادة عنيفة ، ننام لاول مرة منذ عبورنا قناة السويس
والنوافذ مغلقة ، امتطى على السرير المتقل الذى يئن وانام اخر نومة فى الطريق الى
صنعاء .

الباب الحادي عشر

- * " الامام مستاء "
- * في عهد الاتراك ام الآن ؟
- * الطبقات الاجتماعية في اليمن
- * وادي صنعاء الخيمه البيضاء في صنعاء
- * النسور في القاذورات

"الإمام مستاء"

انهضوا بسرعة ، لقد اشرقت الشمس ...

يصرخ العسكرى بالحاح ، يقرع باب غرفتنا بلا كلل ، لسنا ضد ان نواصل النوم
ايضا ، الطريق قد اخذت حقها ، لكن لا وقت للراحة .

انهضوا سريعا ، الإمام مستاء .

نعلم ان القضية ليست في الامام ولا في استيائه ، فالامس ، اليوم الثالث من الرحلة ،
حين استعجلنا مسرعين ، نسعى لكسب يوم زائد ، وحين حثينا البغال ، حاول العسكر انفسهم
اعاقة حميتنا بنفس هذه الحجة .

- لا يجب الاسراع ، هذا صعب على البغال ، سيكون الامام مستاء .

حساباتهم مفهومة : سابقا ارادوا السير ببطء ، غير مكثرين ، يحصلون على طعام جيد
من " الاجانب الوجهاء " ، اما اليوم - فانهم بهذه الطريقة او تلك - فهو يوم الوصول الى
العاصمة ، وهم يرغبون بالوصول اليهم باكرا ، كى يدركون الغداء والراحة حتى المساء ، - وما
هو الامام - مرة اخرى حجة وسبب للاسراع هذه المرة .

نتذكر ، ان كل الموظفين ، جميع سائقى الجمال والحمير ، والتجار على طول الطريق
كانوا يرجعون جميع الذرائع والاعذار الى الامام ، وما عدا الامام ، الله هو الحجة الوحيدة
لتبرير اى شىء كان الذى يتحمل الامام باستكانة ويقدر اقل من الصحة ، كل المسؤولية عن
مختلف ظواهر التقصير والتهاون والمماطلة وقد تحتم علينا ، فيما بعد ، فى صنعاء الدخول فى
مماحكة مع عمال التلغراف ، الذين كانوا غالبا ويعناد ما يؤخرون مراسلاتنا مع الحديدة ،
يعللون ذلك تعطيل الخط بمشيئة " الله " : لقد كانوا يريدون على محاولتنا الساذجة المستعجلة
حين نستفسر متى سيتم اصلاح الاعمدة التى اسقطتها العاصفة يريدون دائما بجواب واحد
مفحم ببساطته المقنعة :

- عندما يشاء الله (ان شاء الله بكره) .

ان " كلمة " الله فى شبه جزيرة العرب ، تشبه قانون رياضى ، تعنى كل ما هو غير مرئى

ومجهول ، وجملة " ان شاء الله " هى واحدة من أكثر العبارات العربية الكثيرة الانتشار ، تلتصق هذه العبارة فى حقيقة الامر بكل عظة او حكمة ، تدل على الاستمالة الدائمة للتنبيق الدقيق فى ظروف العفوية البدائية ، واذا الصقت " ان شاء الله " باى عبارة تتعلق بالمستقبل ، فانها تضيف عليها علامة التقريب .

- متى سنصل الى صنعاء ؟ - نسأل مرافقينا بفارغ صبر .

- خلال ثلاث ساعات إن شاء الله - يجيبون علينا

وهكذا سنصل صنعاء اليوم " ان شاء الله " ، نستنشق الهواء البارد العليل بشراهة ، نحدق فى اخر سلسلة جبلية تفصلنا عن وادى صنعاء يرفرف الهواء بعيدا بهدوء ، نشاهد سنابل الذرة والقمح مخضرة ويانتظام فى الحقول التى لم تمسها الجرار التى تزحف جانبا فى مكان ما .

نشاهد القصور المتعددة الطوابق على الجوانب ، والبيوت الطينية الملحقة بها ، القرية تتكون من مباني متكدة ذات قالب واحد ، تحيط بها اسوار حجرية ضخمة وبوابات وحيدة تغلق ليلا ، تتعرج الطريق فى السهل ، تغوص احيانا منحدره ، وحيانا تزحف متسلقة الى الهضبة المرتفعة ، نمر على صخرة ضخمة ، بحجم ناقوس القيصر مخفور بداخلها وبها فتحة كأنه باب ، انها ملجأ لا يمكن ان تخترقه الامطار والرياح فقط ، بل والرعد والبرق والرصاص والقذائف ، لا يعلم احد منذ متى هذه الصخرة هنا ، مثلما لا يعرف احد تاريخ ظهور صنعاء ، وتاريخ بناء القصور والقلاع التى مرينا عليها فى الطريق ، والاستفسار غير مجدى ولا ينفع ، اذ ان الجواب واحد هو : يعلم الله وحده متى بنيت ، نمر بقرب مباني مبهمه مليئة باسرار التاريخ القديم ، قرى ، منشآت ، ادوات ، نحملق فيها بنهم ، وكل الاجوبه على اسئلتنا هى اجوبة هادئة وقصيرة باستمرار :

- لا ندرى ... الله يعلم هذا ...

فى عهد الأتراك ام الان ؟

نسأل عن موضوع اخر ، حول الحياه الفلاحية ، هل كان الوضع افضل فى عهد الاتراك ام الان ... يؤكدون ان الوضع صار افضل ، كانت السلطه سابقا فى المناطق تخضع للمشايخ بدون رقابة ، كان الشيخ يعطى الأرض للفلاحين ، وربما يقرضهم البنود ، وياخذ مقابل كل ذلك

ربعا على شكل نصف المحصول ، ويدفع قسما صغيرا من قيمته النقدية للخزينة التركية ، وكان الفلاحون يخضعون خضوعا كاملا للمشايخ بدون حدود .

وحين خرج الاتراك وتعززت سلطة الامام فى صنعاء ، ضعفت له سلطة المشايخ فى المناطق ، وبرز موظفوا الامام المرسلين من العاصمة ، يجمع هؤلاء الموظفون العشر بانفسهم حيث استغنوا عن وساطة المشايخ ويسلمون الضرائب لخزينة الدولة ، لم يختفى العنف والغبن عند الجباية بطبيعة الحال ، لكنه ضعف مع ذلك ، يبدو كما لو ان تحصيل العشر وضرائب المشايخ لم تطبق ، المشايخ مستاعون ايضا لان الفلاحين اصبحوا يقفون بتادية الطاعة العسكرية فى الجيش الامام متخطين بذلك المشايخ ، وبدأت تظهر المدارس فى القرى ، وتقوم الحكومة بتنظيمها ، كما تقلص تاثير رجال الدين المحليين ، غير ان بوادر التحسن هذه ليست كبيرة ، لكن مجرد حادثة ضعف سلطة المشايخ فى المناطق ، الخضوع لسلطة حكومية موحدة عامة ، امر يشجع السكان ، الذين يرون فى السلطة المركزيه ممثلة بشخص الامام ، ضمانه من نوع ما ضد العنف الجائر الذى ساد سابقاً .

يتضح لاحقا ان الضرائب لم توزع بالتساوى : ففى الوقت الذى يدفع فيه الفلاحون عشر المحصول على اقل تقدير ، يتملص اصحاب المدن من دفع قسط الى الخزينة يقدر باثنين ونصف فى المائة من محصول ايجار بيوتهم ، كما يحدد هذا القسط بمقاييس ما قبل الطوفان ، حسبما قال لنا احد الملاك " كلمة شرف " ، ويضبط غياب القروض على الفلاحين بقسوة ، والبنوك لا ذكر لها (لقد حرمها القرآن) ، ومن اجل الحصول على القرض يجب التوجه الى الشيخ ، والشيخ لا يعطى الا التاجر فقط ، رافضا بمرارة اخذ الربح (الى حرمه القرآن) ، لكنه بدلا من ذلك ياخذ حصة الاسد من الربح الذى سيجصل عليه التاجر بفضل هذا القرض فيما بعد ، وتصل هذه الحصة الى ثلث ربح التاجر ، يظل الضمير ساكنا (فالقرآن لم يحرم ذلك ورسول الله لم يخدع) ورأس المال يتضاعف

الطبقات الاجتماعية فى اليمن

اما الشيخ فيعطى الفلاحين سلفة لأفلاحة الأرض المؤجرة منه احيانا . ثم يسترد هذه السلفة بربح عيني زائد بالاضافة الى نصف المحصول الذى يحسب على شكل ريع للارض . والتجار لا يدفعون الضرائب كما يعفى ماكوا المواصلات منها ، وذلك لانه يفرض العشر

على البقر والماعز وما شابه ؛ لكنه لا يفرض على دواب النقل والمطايا ، هذا مريح للتجار بدرجة اولى من جديد . وذلك انه يجعل نقل البضائع من الموانئ الى عمق البلاد والعكس رخيصا ، يتكسب من هذا الملاك الميسورون فى الريف ايضا ، الذين يمتلكون مجاميع من دواب النقل ، التى يستخدمونها لنقل البضائع وعلى هذا الشكل يتكون سلم اجتماعى فريد ، يقف فى اعلى السلم المشايخ الاقطاعيون الذين يمتلكون سلطة سياسية حقيقية ، وامكانية استغلال الفلاحين ، ونوعا من الضغط على التجار ، ويمتلك الاخرون بدورهم سلاحا قويا فى التأثير على المشايخ ، ويستحوذون على قسم من ارباحهم لأنفسهم ، يلعبون دور الوسيط ، يشترون البن والحبوب وبضائع اخرى من المشايخ فى مجالاتهم مباشرة ، وحين تصل هذه الى الميناء تباع البضائع من جديد يدفع التجار ضرائب قليلة ، ولا يزاحمه احد فى حرية التكسب

ويكون الاخير على حساب المشايخ جزئيا ، وعلى حساب الفلاحين بالدرجة الاولى ، لانه يشتري البن منهم بثمان ارض ، ويبيع البضائع الاجنبية عليهم بربح خمسين فى المائة - او مائة فى المائة .

وفى الاخير يجبر الفلاح على العمل لحساب الجميع : للخزينة التى يدفع العشر لها والقيام بالخدمة العسكرية ، والشيخ ، الذى يدفع له نصف الغلة ، كما يقوم الفلاحون بتادية عدة اعمال حسب نظام " السخرة " ، للتاجر الذى يقدم له امكانية الكسب بالتبادل البضاعى ، ان كل مجموعة من هذه المجموعات الاساسية الثلاث تنقسم بدورها الى مجموعات من الفئات المختلفة :

تتميز فئتان اساسيتان من الاقطاعيين - المشايخ ، الفئة الاولى من ابناء الارستقراطية القديمة المالكة للارض ، انها تتألف من الملاك القدماء الذين ورثوا الارض ومزارع واسعة ، والفئة الثانية الاكثر تأثيرا بينهم هم السادة الذين يدعون انحدرهم من سلالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، هؤلاء هم حملة التقاليد القديمة الاكليركية رجعية فى اليمن ، وهم من الناحية الاقتصادية سلالة متجمدة أفلة ، غير قادرة عضويا على التكيف للظروف المتغيرة فى شبه جزيرة العرب الهامده ، التى بدأت تهتز فى السنين الاخيره فقط ، مصادر دخلهم الاساسيه هو ريع الارض ، الذى يستلمونه على شكل بضائع مجببة وفقا لنظام المناصفة ، تتراكم فى مخازنهم احتياطات الحبوب ، الصوف ، الجلود ، التى تحفظ فى صناديق جامدة بدون حركة ، واكداس الفضة والذهب والاحجار الكريمة ، الاقمشة ، السجاد ، الاوانى والاسلحة ، انهم يحتقرون التجارة ، ولا يفكرون بالصناعة ، ويعطون البضائع المكسدة للتجار من حين الى

آخر لاعادة بيعها ، بينما هم يقعدون بلا حراك على السجاجيد ، يدخنون النارجيلة ، يمضغون
القات يتصفحون الكتب الصفراء او يتتعمون فى مخادع نسائهم الكثيرات اربع زوجات
شرعيات ، بالاضافه الى عدد غير محدد من الجوارى ، يمنعون حتى التفكير باى نزعة جديدة
كانت ، يفكرون بشكل مقدس ظل ثابتا لم يتغير منذ عهد نوح ، وملكة سبأ ، وسيظل هكذا ثابتا
لا يتغير الى ابد الابد ، مستعدون بشراسة مقاومة كل محاولة لتصنيع البلاد ، واقامة علاقات
مع الخارج ، يخيفهم منظر السيارة ، يعدون الوقوف امام عدسة التصوير عيبا ، ويعتبر
بالنسبة لهم حتى الامتناع عن القات تدنيسا للمقدسات ، مثلهم العليا هى شبه جزيرة العرب
المتحجرة الثابتة مثل القصور التى لها الاف السنين والتى يعيشون فيها ، العمل فى الارض
نصيب سواد الفلاحين ، التجارة والحرف - يمارسها " اليهود الكلاب " المحتقرون ، اما هم
فانهم حملة تقاليد الماضى التليد ، وملزمون بالحفاظ عليه وعلى عقوبته فى الصراع ضد الكفرة
الاجانب .

- هؤلاء - البلاد ، الذين يرون الكفر وعدم الاستقرار فى كل مكان ، حتى انه لم يسلم
الامام وابناؤه من نكدهم اللاذع المتعنت .

بدأت هذه الفئة تفلس ، تتضال ، قليلا قليلا ، تصبح جزءا من الماضى تضحل حتى فى
اوساط المشايخ الاقطاعيين ، نسمع اصوات اقطاعيين محدودين جدد ، لا يقبلون الموت احياء
فى العفن العظيم ، وانما يسرعون فى السير قدما ، من اجل ان يغالبوا الرياح الجديدة ، يمتلك
هؤلاء الاقطاعيون اراضى مزروعة واسعة ، لكنهم لا يمتلكون وراء ظهورهم حملا ثقيل من
النسب الرفيع ، لا يتقززون من التجارة والحرف ، ولا يباليون ابدا بترك الارباح للتجار الهنود
واليهود ويتفاخرون بالصمت وملاعبة مسابحهم ، يسعون بانفسهم ، عن طريق العمل الماجور او
السخرة ، فى تصفية البن وديغ الجلود ونقلها الى الميناء ، يسعون لبيع بضائعهم فى الخارج
مباشرة او عن طريق متعهدين مؤجرين ، ولا يأنفون من شراء البضائع الاجنبية فى الميناء -
الكروسين ، الدقيق ، ونقله الى داخل البلاد من اجل اعادة نقلها ، لقد عرفوا سحق مراكمة
الثروات غير المثمرة ، يسرعون الى الاندفاع فى البحر العارم بالمضاربة التجارية التى
يجعلونها جهلا بسيطا ، كى لا يتركوا لليهود والاجانب الاثراء على حسابهم المشايخ ، هم هذه
الفئة الاقطاعية ، التى تطورت الى فئة من التجار - الصناعيين ، التى تعززت فى فترة الحرب
حين سقط دور التجار الاتراك واليونانيين - تزايدت هذه الفئة بفضل انحدارها من الاسر الثرية
للملاك الزراعيين ، ظهر مشايخ جدد اتوا من المناطق النائية فى البلاد ، هؤلاء المشايخ من

الملاك الاثرياء ، والسماشرة صاروا يجمعون فى ايديهم اراضى وعقارات الاسر الارستقراطية المفلسة مشيعة الامبراطورية العثمانية " التى صفيت كطبقة " ، لقد تزعزعت اركان الاقطاعيه القديمة ، والقسم العنيد من الارستقراطية القديمة فسر القرآن بما يلائم العصر بعد ان اغمض عن عينه تقاليد الاسلاف ومد يده لملاقاة الناشئين الجدد ، وبدأت تتشكل وتتعرز طبقة جديدة من الاقطاعيين ، الذين اتخذوا شكلا تجاريا - صناعيا اكثر قرب الى العصر ، لا يستنكفون المضاربة المالية والتجارة المكشوفه ، يركبون السيارة بكل ارتياح ، وبزهو واضح يعرضون انفسهم بمختلف الازواح امام الات التصوير .

يشربون النبيذ الذى يشترونه من اليهود ، دون ان يتركوا القات ، لا يخافون من العلاقة من الخارج ، بل على العكس ، انهم يسعون بعجلة على نزع احتكار الارباح من التجارة الخارجية من ايدى الهنود واليهود ، ولا يبتعدون عن امتلاك متاعا اوروبيا فى بيوتهم ، يلبسون الاحذية الاوروبية بل وحتى يلبسون احيانا ارضاء للموضة ، نظارات لا حاجة لها ، على عيونهم السليمة الصقرية ، يحلمون بجلب المكائن الزراعية وبناء معامل النسيج ، لم يعد " التدين " بالنسبة لهم عقيدة جامدة ثابتة لا تقبل الجدل . يميلون للسخرية من اخوانهم فى الطبقة الاكثر تخلفا ، كما انهم يقرأون الصحف المصرية ، هؤلاء هم القسم الاكثر تقدما من الاقطاعيين ، الذين يعدون كوادر البرجوازية التجارية - الصناعية المستقبلية فى اليمن وهذا القسم هو اكثر قاعدة اجتماعية قربا من الحكومة فى البلاد .

التجارة ، البرجوازية ، يمكن تمييز فئتين اساسيتين منها شأنها شأن البرجوازية فى بلدان الشرق ، الفئة الاولى - هى النموذج التجارى الكمبرادورى ، تجار الجملة ، الذين يرتبطون بالسوق الاجنبية مباشرة وممثلى الشركات الاجنبية فى اليمن ؛ لقد كانت التجارة الكبيرة والعلاقات الخارجية قبل الحرب تقع كلها فى ايدى العناصر غير العربية : الاتراك ، الهنود ، اليهود ، اليونانيين والفرس ، لم يعد الاتراك الان موجودين ، لكن الهنود فى الحديدية واليهود فى صنعا والمناطق الجبلية الاخرى ، ما يزالون يحتلون وضعا مهيما فى التجارة الخارجية للبلاد ، اما الاماكن التى خلت بعد خروج الاتراك واحتلتها العناصر العربية ، فانها لم تنزل قليلة بعد ، هذه الكوادر الكمبرادورية هى القاعدة الاساسية للمجموعات المتأثرة بالانجليز ، وصنيعا للمعارضة ضد السلطة المركزية ، والحديدة هى عشهم .

الفئة التجارية الاخرى هى من التجار الصغار والمتوسطين ، ملاك الجمال وقوافل الحمير ، الذين يتاجرون داخل البلاد ، يوزعون البضائع ويشتررون المواد الخام من كل زوايا اليمن فى الجبال والسهول .

تتألف هذه الفئة من الملاك فى القرى ، واصحاب الحوانيت الصغيرة ، والحرفيين والصناع الصغار ، انهم عماد سياسة الامام ، وهم ما يمكن تسميته بالجناح اليسارى لجماعة السلطة ، هؤلاء هم الفئة الاكثر روح وطنية من قسم البرجوازية - الاقطاعية فى اليمن ، انهم يمقتون الكمبرادوريين ، الذين احتلوا اكثر المواقع الاقتصادية ، ربما يحلمون بانتزاع حصتهم من الفطيرة على حساب الامبرياليين والعملاء الكمبرادوريين ، يستعدون بنشاط لتأييد الصناعات الزراعية للحكومة ، شق الطريق الجديد ، امتلاك اسطول بحرى ، وذلك لان هذه المشاريع تعد بتوسيع حجم السوق الداخلية ، وتقلص تأثير الكمبرادورية والامبريالية وتطور الصناعة الداخلية ، معطية امكانية تشغيل رؤوس الاموال المتراكمة ، يؤيدون النزوع الى السيطرة على سواحل المحيط الهندى ، الى عدن وموانئ حضر موت ، نمت هذه الفئة وتعززت خلال فترة الحرب وتزحف الى مواقع الكمبرادورية ، مزينة التجار اليهود والهنود من اعشاشهم .

يبدو ان كل هذه الفئات والشرائح ، لا تشمل الا وسطا اجتماعيا صغيرا نسبيا فى اليمن (عشرة - عشرين بالمائة) ، اما ملايين الجماهير من الفلاحين فهى بعيدة عن تلك الاوساط المشتركة بهذا الشكل او ذاك فى السلطة ، وهذه الجماهير الفلاحية التى تدب حولنا نحن الرحالة بعيدة عنا والاقتراب منها ليس بتلك السهولة ، او التحدث معها ومعرفة حياتها المعيشية ، ومعرفة احتياجاتها ونفسياتها ، يراقبنا مرافقونا العسكر بيقظة ، ثم كانوا فيما بعد فى صنعاء يراقبون كل من يدخل منزلنا ايضا ، كان الفلاحون الذين نتحدث معهم يتهربون عادة من الاحاديث الصريحة ، او يجيبون على كل الاسئلة بحضور العسكرى المرافق باجابات تقليدية يغلب عليها " لانعرف " " الله يعلم " " الحمد لله " " كما يشاء الله " ، وحين نستفسر عن مساحة الارض وكمية المحصول وما شابه ذلك ، كنا نصطدم بكثرة من مقاييس الوزن والمساحة المجهولة لنا ، نتحير فى ترجمتها الى مفاهيم معروفة لنا .

من غير الممكن اطلاقا تحديد نوعية الارض ، حيث تختلف بشكل حاد :

رمال تهامة ، التربة الاكثر خصوبة فى سفوح الجبال ، المدرجات الجبلية ، التى تتطلب مع ذلك مجهود ضخم ، التربة الخصبة فى السهول الجبلية ، مقدار الماء فيها ، عدد مرات الحصاد فى السنة (مرة ، مرتين او ثلاث مرات حسب خصب المنطقة) نوعية المحصول فى هذه المنطقة او تلك (البن ، الذرة ، القمح ، البساتين ، الحدائق) - كل هذه المعطيات متفاوتة اطلاقا ، ومن الصعب توحيد كل هذا فى مقام واحد .

وما يلفت النظر بجدّة ، الفئة العليا من الفلاحين ، الملاك ، القاعدة الاجتماعية للكوادر

البرجوازية الحديثة ، ملاك الحوانيت الريفية ، اصحاب الحانات ، ملاك المنازل والمقاهى ، ملاك البساتين ومزارع القات ، اصحاب الجمال ، او اعداد كثيرة من البغال والحمير - وسائل المواصلات ، الصرافون الريفيون ، تمتلك هذه العناصر اراضى كثيرة ولديها اجراء يكون من الاطفال وقصار السن فى الغالب .

الجماهير المتوسطة الواسعة ، تمتلك كوخا من الطين او من الاحجار المرصوصه على جناح السرعة ، قطعة ارض ، محراث ، بقرة حذاء وحمار ، بضعة دجاجات - هذه هى ملكية الفلاح المتوسط ، الذى يمشى باقدام حافية ، لا تشعر بحر احجار الطرق الساخنة ، تلبس بلوزات وفوط مصبوغة بالنيلة ، عمامة وعكاز (فى الجبال) ، اجساد مسودة نصف عارية (فى تهامة) ، ارغفة الذرة ، عصيدة الدخن ، قليلا من اللبن - هذا هو الغذاء الرئيسى ، حزمة من اوراق القات الغليظة - هى المتعة الوحيدة ، العمل الدؤوب فى الارض ، نقل الحطب الى البيت ، رعى الماشية ... ترعاة الزوجة - واحدة ونادراً زوجتان (وثلاث او اربع زوجات لدى التجار ، وزوجتان او ثلاث لدى الملاك) .

الفقراء ... فى ثياب رثة ، يعيشون فى اكواخ نصف مهدمة ، لا يملكون لا ثور ولا جمل ، حمار بائس فقط ومحراث يدوى لفلاحة الارض ... للعمل عند الشيخ او الميسورين بالنخاسة ، يأكل حفنة من حبوب الدخن بدلا من الغذاء ، وورقتين مصغرتين من القات فى وقت الراحة احيانا ، جسم مجروح اكلته القروح ، اقدام حافية ، ورأس مكشوف ، وتبغية وديون لا تنتهى ، اطفال بيطون بارزة بوجه مقرح - هذا هو النصف الاكثر من الريف اليمنى .

وكوادر البروليتاريا الريفية : الى جانب الفقراء هناك العبيد الذين جلبوا من افريقيا عن طريق القوة والاستدراج ، اناس وصلوا الى هنا على القوارب من وراء البحر فى محاولة للتجارة من غائلة الجوع والابوة ، فاصبحوا كالمستجير من الرمضاء بالنار ، يغيرون نوعا من العبودية بنوع اخر ، وهناك صنف اخر من العبيد هم الاسرى من القبائل المعادية ، ويختلف عنهم قليلا انصاف العبيد ، الفلاحون الذين ادقمهم الفقر ، وفقدوا الامل حتى فى حقهم بالمحافظة على كوخهم ، يستبدلون السخرية المستمرة بالعبودية الدائمة تقريبا ، يكتفون بما يتفضل الشيخ والمالك من الطعام ، وبامرة يعملون من مطلع الشمس حتى غروبها ، والمالك حق معاقبتهم الجسدية ، وهو مخير فى ان يتخلى عنهم ، او يرسلهم الى شيخ اخر ببساطه ، قتلهم محرم فقط ، يبدو ان هذا هو القيد الشكلى الوحيد للعسف الاقطاعى .

ومن فقراء الريف تتشكل الكوادر فى معامل البن ، والورش الحرفية ، العتالون والرعاة ،

والجمالة ، ان كل نهيرات نصف البروليتاريا ستصب مستقبلا فى المجرى الوحيد للبروليتاريا الصناعية والزراعية .

والاسمنت ، الذى يمسك وينظم هذه البنية الاجتماعية ، هو الجيش ، الضباط العرب الجدد ، الجهاز الوظيفى - العسكرى ، هذه هى القوة الحقيقية ، التى تسعى الفئات العليا فى اليمن ، والاقطاعيون بواسطتها تعزيز سلطتها وجبروتها ، وازاحة فئة الوجهاء الاقطاعيين والكمبرادوريين الى الدرجة الثانية عن طريق الحلول الوسطية من جهة ، ولجم استياء الجماهير من الفئات الوسطى والفقيرة من جهة اخرى ولا ينبغي ان ننفى طموحهم لتقليص نفوذ الامبرالية وايجاد دولة مستقلة فى ذلك الجزء البعيد المقطوع والمعزول فى شبه جزيرة العرب ، يبلغ تعداد الجيش ما يقارب خمسة عشر الفا ، ويمكن ان يتضاعف بسهولة حتى يصل الى ثلاثين الف جندي ، لان نظام واساليب الجيش هو حسب النموذج التركى .

ومن اجل ان نختتم هذا العرض المختصر للطبقات الاجتماعية فى اليمن ، يجب ان نتحدث عن رجال الدين .

خلال الرحلة الى صنعاء وفيما بعد ، اثناء تواجدها فى صنعاء ، لم نلاحظ دورا خاصا لفئة رجال الدين كمجموعة اجتماعية ، لا يتميز ائمة المساجد وعلماء المناطق الصغيره فى الريف اليمنى بشئ كثير عن بقية الفئات الاجتماعيه ، بذلك التميز الذى يعيشون فيه فى الحجاز وبقية البلدان الاسلامية الاخرى ، انهم هنا يندمجون مع جماهير السكان الاخرين ولا يتميزون عنهم ، ينبغي اعادة ذلك ، فى اغلب الظن الى ان الدين والدولة قد نميا معا ، الى درجة ان الدين اصبح محتكراً للخاصة الارستقراطية الاقطاعية العليا ، ابتداء بالامام - الملك - رجل الدين الاول ، ثم اغلبية المشايخ ورؤساء الجيش ، ان كل هؤلاء لهم نفوذ فى الجانب الدينى فى نفس الوقت ، وان كانوا قد تركوا لرجال الدين المتخصصين الوظائف الدينية البحتة فقط ، حيث ان فئة رجال الدين مجسدة فى الطبقة الاقطاعية ، الامر الذى يعطيها صيغة اكليركية تنتسب بها كل اجراءات الدولة ، ولو كانت البخور تستخدم فى مناسك العبادات الاسلامية ، لقلنا بان رائحة البخور ستذوب بذاتها فى العصير الاقطاعى ويفقد وجهه الخاص المنفرد .

لهذا السبب او ذاك ، ومما يلقت النظر ان التدين الخارجى للجماهير الشعبية ، هو هنا اقل بكثير مما هو عليه فى الحجاز ، بل وحتى فى بلدان الشرق الروسى حتى الاعوام الاخيرة ، لم نلاحظ فى اليمن التضرعات والصلوات الحاشدة عند الفجر وقبل غروب الشمس ، ولا الصلوات التى تفوح خلالها الروائح العطرة ، انهم يصلون هنا بعد الوضوء بقليل

من الماء ، واذا لم يوجد الاخير يكتفون بقبضة من الرمل حتى ولو كانت من ارض غير طاهرة يتيممون بها ، ولم يكن يراعى فروض الصلاة بورد سوى الشاويش من بين المقربين الذين رافقونا ، فى حين كان بقية العسكر (واغلب الظن انهم من " المتدينين " بما فيه الكفاية) لا يعاونون بالصلاة ، حيث كانوا يؤثرون الراحة يغنون بكسل قدب شعلة النار .

انى ارتب هنا على عجل وتشوش نتائج انطباعات الطريق (حينها كانت هذه الانطباعات اقل وضوح) ، حين كنا نتأرجح على ظهور البغال ، ننتظر بفارغ الصبر رؤية الرسوم المجهولة لصنعاء الفاتنة .

لكن صنعاء لا تزال بعيدة ، ولا نرى حولنا سوى الاراضى الخضراء او سلاسل الجبال الغبراء ، تصبح الطريق متعرجة وغير مستوية ، واكوام الحصاء والحجارة تخل بسير البغال المنتظم ، ها لم نعد نشاهد لا قرى ولا حتى اكواخا منفردة لا من قريب ولا من بعيد ، لقد خلفنا وراعا بعيدا طريق " الثلاث ساعات " التى وعدنا العسكر بها ، والتى بانتهائها سنكون " ان شاء الله " قد وصلنا الى المدينة المنشودة كما يفترض .

واضى صنعاء الخيمة البيضاء فى صنعاء

البغال تسير ، والوقت يمضى ، وصنعاء لا ترى ، والطريق لا تدل على ان المدينة قريبة ، لقد أصبحنا نشاهد حمير الركوب ليس الا ، نصادف مرتين مشايخ لابسين ثيابا فاخرة من قمصان حريرية يمتطون جياد عربية اصيلة فى طريق العاصمة .

اصبحت الطرق اكثر وعورة ، اختفت الخضرة ، ولا توجد سوى الصخور والمساحات الشاسعة المفروشة بالاحجار ، تصعد البغال بخطو منتظم على المرتفع الخفيف الانحدار ، وعلى اليمين ترتفع ذورة صخرية شاهقة ، نصعد فى مضيق جبلى نرى ... سهلا لا مقناهيا اخضر ، مغطى بلثام هوائى متموج ، ينبسط بعيدا ، فى العمق الاسفل تحت اقدام بغلانا ، انبهرنا من الوهلة الاولى ، لم يكن بمقدورنا تفحص التفاصيل ، ولا نرى سوى بحيرة من الخضرة لا شواطىء لها وفى وسطها نرى المدينة مفضضة كخيمة بيضاء ، وفى الافق تتناثر الحيود الضخمة للجبال الوحيدة المقطوعة من جهات متفرقة ، وقليل قليلا تتضح الرؤية ونبدأ نميز التفاصيل ، تبدو امامنا كتلة المدينة الناصعة البياض فى وسط رقعة الشطرنج الخضراء للأراض المزدهرة وقد تميزت المدينة بشكل واضح ومقسم : مآذن المساجد ، السقوف

المسطحة ، بضعة سلاسل من المنال العالية ، والمرتفعة في مختلف اطراف المدينة ، يتعرج سور قلعة مسنن بخط متكسر ، ويأبراج في زواياه ، كبقع خضراء محاطة بحواش بيضاء داكنة ، تتناثر فيها ضياع المشايخ ، كما تتناثر في الضواحي مثل بقع صغيرة غبراء اكواخ الفلاحين ، بعيدا من المدينة ، على بعد خمسة او ستة فراسخ ، تعشعش مجاميع صخرية من القرى المجاورة من كل الجهات ، من على السهل الاخضر تبرز جبال مسننة منفردة ككتل خرقاء ، وبعيدا في الافق ، الى الجنوب ، والشمال - الشرقى تحصر هذه الجبال السهل ، وتبتعد كشريط ضيق الى هناك - الى شواطئ المحيط الهندي والرمال المجذبة لصحراء الربع الخالي ، ومن جهة الشرق المقابلة لنا يشمخ جبل نقم الضخم ، وكأنه فوق المدينة مباشرة ، وعلى قمته تستقر مراكز الحراسة .

ومن منحني الجبل الاسود ، الذي كنا بجانبه ، تنحدر طريق معبدة الى الاسفل بشكل متعرج تصل حتى سهل بقرب قرية صغيرة غارقة في المزارع - اعقاب صنعاء - تنطلق قدما ، محددة باعمدة التلغراف ، تخترق بوابة قاع اليهود مباشرة وهو الحى الذى يشكل الجزء الغربى من العاصمة .

تسير البغال الثابتة الرصينة ببطء ، وكما تبدو تلك المسافة من الطريق طويلة ، والتي يجب قطعها من اجل الوصول الى صنعاء ! نترجل من على البغال ، نعطيها للمرافق ، ليقودها بدون عجل عبر المتعرجات اللانهائية للمنحني الجبل ، فى حين تتدحرج راسا على عقب الى السفح عبر ممر ضيق عمودى تقريبا ، تلك المتعرجات التى لا يكون من اليسير السير عليها الا للانسان والحمير .

فى كوخ طينى صغير عند السفح يستقبلنا كهل رث الثياب بسلة من التين الطازج ، هذه هى اوائل ثمار " اليمن السعيد " ، التى سالنا عنها باستمرار خلال الطريق دون نتيجة ، وكان الجواب علينا بكلمة " مافيش " التى لا تتغير .

تلهث البغال تحرك أذانها ، تتبعنا بنظراتها الحائرة ، لم ننتظرها ، نقترّب من قرية صغيرة ، تتألف من منزلين او ثلاثة ، وعنبر للقوافل، وخزان مياه واسع وحديقة خضراء ، هذا هو المخفر الامامى لصنعاء ، جزء من قرية عصر ، المتخفية جانبا وراء السور الحجرى المرتفع ، وهنا ، يقربون لنا كوزا من ماء صنعاء ، تلك المياه التى يحلم بها سكان الحديدة بيأس ، ان افضل هديه هى قارورة صغيرة من الماء ، من ينتبّه ليوصلها الى السواحل البحرية الحادة ، يقدمون لنا ليمونا اصفر فاتحا ، نقشره ثم نأكله ، انه حلوا المذاق كثيرا ، اكثر حلاوه

من البرتقال ، اراد عساكرنا اعداد الطعام لنا ، دون ان يخافوا من غضب الامام ، لانهم ليسوا ضد ان يتغلبوا ، وقد استخدموا معنا حتى الخداع ، يؤكدون ان المدينة المنبسطة امامنا ليست صنعاء ، وانما هي اليهود ، اما صنعاء فانها بعيدة وراء الجبال ، لكننا نصير هذه المرة قساة نرفض التوقف ، لاي نوع من الغذاء نقول للعسكر " الامام سيستاء غضبا - نضرب العسكر بنفس سلاحهم بدون رحمة ، - الامام سيستاء اذا علم اننا تباطئنا عند دخول العاصمة ، هيا بسرعة " .

النسور في القانورات

استاء العسكر ، وخاب املهم ، لقد كان في حساباتهم انهم سيتفدون حتى التهمة في نهاية الامر ، وقبل ان يعودوا الى الحراسة في الحامية ، يتحركون يدمدمون يشتمون ، تلف عبر الطريق الدائري حول سور المدينة ، ثم تقترب من باب السياج البوابة الرئيسية بصنعاء .

القيظ على اشده ، سحابة من الغبار تلف المدينة ، تنظر النسور الينا بثبات ، اينما استقر سربهم وفي جانب البوابة تنبش في ركام النفايات التي جلبت من المدينة ، وهكذا استقبلنا البجع البيض في مرفأ الحديد ، وعششت الخفافيش فوق رؤوسنا في باجل ، وهنا تنبش النسور في اكوام القانورات على بعد عشر او خمس عشرة خطوة من الطريق .

ليس هذا رمز ؟ ، تفقد النسور هنا عظمة رحلتها المكوكية المصطنعة ، دون ان ترغب في التحليق فوق السحاب ، تفضل النباش في اكوام نفايات المدينة ، على كل حال لماذا نتسائل ، اذا كان حتى ملوك ارض العرب ، الذين انسلخوا عن عظمتهم الغابرة ، يتحولون تدريجيا الى مهنة اكثر تواضعا ، وان كانت اكثر انتاجية ، الا وهي المشاغل الادارية والاقتصادية ، وصولا حتى الى حل المخاصمات والمقاضاة الصغيرة عند عقد الصفقات التجارية ! .

لكن يوجد لدينا وقت للفلسفة . تتقدم البغال بخطو ثقيل متعب ، تحت الاعمدة الضخمة للبوابة ، الحارس المناوب ، الذي لم يشعر بقدمونا مسبقا ، يتفحصنا بحيرة ، يستمع الى توضيح مرافقينا بعجلة ، نحن في الساحة : في احدى الجهات يمتد شارع طويل فيه دكاكين صغيرة للخضروات والبقول واللحوم ، يعج بالقبائل اللابسين معاطف زرقاء وجنبية في الوسط ، يجول الصبية ذهابا وايابا باكشاكهم يصرخون باسماء البضائع والاطعمة ، تشق الحمير والبغال طريقها عبر حشود الناس غير المنتظمين ينتصب امامنا سور نرى خلفه مبنا

حسننا من اربعة طوابق ، انه قصر الامام ، وهناك ايضا تحت اشجار الاثل المترامية مبنى من طابقين ، هى الصيدلية ، نشاهد قبة خزان مياه صغيرة الى اليسار مبنى على شكل حائط ، يقود بابه الى ساحة اخرى ، هنا توجد ادارة صنعا ، وعلى الساحة الصغيرة يطل برج مراقبة ، على طول الحائط المحيط بالمقر الملكى مباشرة ، تمتد الطريق الواسعة ، يسير فيها عساكر مشاه والخيالة ، تؤدى الطريق الى المدخل الرئيسى لقصر الامام ، ثم تمتد قدما الى الشمال عبر البوابة المواجهة لباب الروضة ، ان هذه الطريق هى جزء من الطريق العظيم الممتد من عدن الى سوريا ، وخلال قرون كثيرة كانت هذه الطريق الشريان الاقتصادى فى شبه جزيرة العرب ، تسمح بالمرور لارتال القوافل وعشرات الالاف من التجار والحجاج القادمين من سواحل المحيط الهندى وحتى اسوار مكة والمدينة وقدما الى سلسلة جبال لبنان ، هذه الطريق التى اقفرت الان وفرغت ، ولا يوجد هنا الا بوابتان فى الطرفين المتقابلين لصنعا يذكران بعظمتها الغابرة ، التى تبخرت مع دخان الآلات البخارية ، التى تنقل الحجاج والبضائع الان .

نحن فى صنعا .

الباب الثاني عشر

* الانطباعات الاولى عن صنعاء

* شقشة الآبار

* " ابن الامام "

* القاضي راغب

* الدعاية الايطالية

* في انتظار الثارات الانجليزية

* الاستقبال الرسمي للامام

الانطباعات الاولى عن صنعاء

بعد ان انتظرنا قليلا من الوقت فى الساحة ، بين الحشود المحيطة بنا من التجار ، والعسكر ، الجمالة ومجموعة لا تحصى من الصبية ، نمر عبر بوابة الادارة الى ساحة كبيرة ومن ثم عبر شوارع ضيقة مليئة بالاسوار الطينية نصل الى البيت المخصص لان نعيش فيه ، العسكرى النعسان المتمنطق بجنيبه فى خصرة بالضرورة ، يفتح البوابة التى تصر ثم باب البيت يقودنا عبر سلم نصف مظلم الى غرفة مفروشة بالقطائف ، عبر الفسيفاء المتعدده الالوان لزجاج النوافذ ، نشاهد بساطا اخضرا من الحشائش فى حديقة هادئة فواحة ، وبعد ان خلعت ملابس الطريق التى اسأمتنى ارتمى بارنياس على الفراش الموضوع هناك على القطائف مباشرة ، انظر عبر النافذة ، محاولا ان املئ نفسى بالانطباعات الاولى للعاصمة " الخالدة " صنعاء فى عراققتها التى لا تبلغها عين المؤرخ هى ايضا مدينة " خالدة " مثلها مثل القاهرة اثينا وروما .

الهواء مشبع بقيظ صيفى ، زجاج النوافذ المتعدد الالوان يتلألأ بأشكال مختلفة (مثلثات ، دوائر ، لواب ، وأشكال هندسية مختلفة) ، وبكل الوان قوس قزح ، فى الجدران تبدو كتابات جذابة منمقة ، مقاطع من اشعار الشعراء العرب القدماء ، نشاهد عبر ستائر النافذة بعيدا اوراق الصبار العريضة ، اشجار السرو ، والملاح الاستوائية والمترامية من اشجار المشمش ، ان كل المنطقة التى وراء النافذة هى حديقة خضراء كثيفة ، تقطعها فى بعض الاماكن اسوار طينية ، تفصل ملكية مالك عن اخر ، وبعيدا ، وراء الحدائق ، تنتشر منابر المآذن والمنازل الطينية المتفرقة التى يضيق اعلاها ، المكونه من ثلاثة - اربعة طوابق ، المحاطة بالحدائق ، بسقوف مسطحة ونوافذ رباعية الاركان الشبابيك .

هذا الحى خارج المدينة ، لا يوجد هنا التجار المتجولون فى الشوارع ، ولا اصحاب القوافل العابرة ، ولا تسمع هنا اصوات الناس والمواشى ، الا انه لسبب ما فان الهواء تخترقه موجة من الاصوات التى لا تهدأ ، تلك الاصوات تشبه اصوات سرب من الديوك الرومية فى فترة الصيف ، كان هذا الرنين الذى لا يهدأ لا يسترعى انتباهنا خاصة فى البداية ، لقد تعودنا على الوضع العام الى حد بعيد ، ندرك فى ساعات ما بعد الغداء فقط ، حين يهدأ فجأه ثم يعود مرة اخرى عند المساء .

شققة الأبار

هذه القرنية " زغرودة " سمفونية صنعا الرئيسية ، اللحن الانتاجى ، الذى تتسم حياة المدينة بطابعه ، لا تستطيع التقاط مصدرة مباشرة ، ابدأ اخمن بان الطيور ليست هى التى تصدر هذه الزغرودة ، اخرج الى السقف المستوى ، اشاهد الجبال بعيدة ، والصور الذى يحيط بالمدينة من كل الجهات ، وعلى السور مدافع صغيرة ، مرتفعة الى اعلى الطائرات المعادية ، نشاهد وراء الحدائق الخضراء فى حيننا كتل المباني البيضاء فى القسم الاساسى من المدينة العربية ، المزينة قليلاً بمآذن المساجد ، ابحت من اين تأتى هذه الشقيقة التى لا تهدأ ، وبعد محاولات بحث طويلة عديمة الجدوى ارى : جملاً مضنى يصعد على مرتفع منحدر تدريجياً بين حاجزين طينيين ، يقوده صبي حافى القدمين وعلى رأسه عمامة لا تتغير ، وحين يقترب الجمل من قمة هذا الحاجز الطينى الضخم ، يلتف عائداً ادراجه فى نفس الطريق الى اسفل ، يشد الجبل بقوة ، عبر جذع شجرة مهذب يدور على قمة الحاجز ، ثم تبدو قربة من الجلد تصعد من اعماق البئر ، ينكسب منها الماء بصخب الى حوض مبنى هناك ايضا ، ومنها تسيل المياه عبر مزاب الى الفناء ، تملأ البراميل ، والاحواض والقنوات التى تروى الحدائق والبساتين ، هذا هو العصب الرئيسى ، الذى يحرك اقتصاد " العربية السعيدة " حتى الان ، هذا هو اساس رخاء " المدينة الخالدة " صنعا

فى هذه المنشآت المتواضعة الخرقاء تكمن مرحلة تاريخية كاملة : ففى تهامة يغرفون الماء بالادلء من خزانات المياه الطينية الكريهة الرائحة ، او ينشلن النساء الماء بايديهن من الآبار الوحيدة المحفورة فى افضل الحالات ، ثم تنقله الجمال بالبراميل للمستخدمين ، اما هنا فيستخدم شىء ما يشبه الماكينة : بكرة صغيرة فى حلقة تصر ، هنا نرى امامنا منشآت طينية ، وقوة الشد الحيوانية وشبكة من القنوات ، يشكل هذا الفرق مقسم المياه ، ويحدد نموذج التطور اللاحق فى تهامة التى تعيش فى مرحلة ما قبل الاقطاعيه ، والمنطقة الجبلية التى توجد فيها مبادئ الزراعة والصناعة .

ابن الامام

يكون اليوم الصيفى قصيرا فى المناطق الاستوائية ، يساوى طوله طول الليل تقريبا ، يبدأ الظلام فى الغرفة الساعة السابعة ، اول زيارة رسمية : يبلغونا بوصول " ابن الامام " ، ارتبكنا نتيجة لوصول مثل هذا الضيف الكبير ، يزول الارتباك سريعا حين عرفنا ان لقب " ولد الامام " يطلق على كل المقربين من الامام ، ويدخل ضمن ذلك المستشارون والخدم ، وكان الضيف القادم هو واحد من موظفى الامام ، لا يختلف مظهره الخارجى كثيرا عن القبلى الضابط العادى المتواضع الملبس " المختار " من اوساط الشعب البسط ، لحية ضيقة ، عمامة ، جنبية ، نظرة مفتوحة سمحة (اما ما يختفى وراء هذه النظرة ، فهذه قضية اخرى) ، يحيينا باسم الامام ويستفسر عما اذا كنا نحتاج لشيء ما ، هذه هى الطريقة المعتادة بما فيه الكفاية للتحية التى يستحيل الاجابة عليها دون الاعراب عن الارتياح الكامل ، والامتنان لاستقباله واهتمامه ، اعلن لنا بان الامام يعتبرنا ضيوفه ، وان الخدم التابعين لنا هم تحت تصرفنا الكامل ، بضعة عبارات اخرى ، الاستفسار عن الصحة ، تبادل المجاملات ، ثم يخرج ، يسود الظلام ، نلتهم العشاء المعد لنا تحت ضوء فانوس الكروسين بشرامة : بيض مقلى ، خضار ، وقطع من اللحم ، اخرج مرة اخرى الى السقف المستوى ، تسود الهياكل الضخمة التى تحيط بنا ، تبدو كأنها قد مالت على المدينة لتلتصق بها ، انتهى المؤذن من آذان صلاة العشاء فى المسجد المجاور ، تشتعل الاضواء فى نوافذ البيوت هنا وهناك ، يرتسم الهلال فى الجنوب ، القريب من الافق ، تقريبا على جوانب الجبل الاسود بوضوح بارز ، الهواء جاف وبارد ، السكينة الشفافة الحادة تلف المدينة الهامدة ، اهبط الى الاسفل عبد سلم منحنى دون ان ادق جبهتى بسقوف الابواب الواطئة ، افتح النوافذ الموجودة بشكل كامل (ان العرب مثل الروس : يخافون الهواء ، لهذا ينامون والنوافذ مغلقة) ، انام كحجر على المرتبة الوثيرة المرمية بين القطائف الفارسية الثمينة .

تخطر لى فى الاحلام نماذج تاريخية - ادبية مختلطة غير متتابعة : التجار الاجانب ، سفراء جير بيرشتين واوليارييا ، الذين تواجدوا فى موسكو فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، اليانكى من كونيكتيكوتا فى زاوية مارك توين ، الذى وقع فى مملكة ارتور فى القرون الوسطى ، آلة لولس للزمن ، التى تنتقل البشر مئات وآلاف السنين الى الماضى والحاضر .

افيق من النوم ، والشمس ساطعة تفشى الابصار ، والذباب يزحف اسرابا على الوجه بلا رحمة ، الهواء مقعم يشقشقة الآبار واريح الحقائق المحيطة ، اتذكر انى فى القرن العشرين ، فى البلد الذى يريد بوسائل بدائية ان يلحق (ولا يأمل بالسيف) بالبلدان الرأسمالية فى الشمال البعيد ، يقوم بمحاولات خرقاء غير منسقة كى يخرج من مملكة الحمير الناهقه ، والآبار التى تصر الى عالم الآلات الكهربائية ، والراديو ومحركات الطيران الهادرة .

القاضى راغب

يدخل العسكرى بهدوء ، ومعه مذكرة من الامام ، يحيى فيها قدومنا ويبلغنا بانه مسافرا الى منطقة الضواحي وادى ضهر ، وانه أو كل اجراء كل المباحثات حول القضايا التى تهمنا الى القاضى محمد راغب حتى عوته من الوادى ، نحتار بعض الشيء ، لقد حرضونا فى الحديدية ضد القاضى راغب ، ونصحونا بعدم فتح اى حديث معه ، لقد كانت تلك النصيحة لعبة العناصر التابعة للانجليز ، وكان الأخير مصدرها حيث اتضح فيما بعد ذلك ان تلك " الشخصية " اخافت سكان الحديدية الحساسين ، من ابعاد القصف الانجليزى ، والان يتعين علينا اعادة ترتيب خططنا ، افلا يمكن الاخذ بعين الاعتبار مذكرة الامام الخاصة لكننا لا ندرك ان نفكر بكل شىء حتى النهاية حتى نسمع ، تالية على الباب ، يبلغنا العسكرى بمجئى القاضى راغب .

يدخل شيخ نحيل اشيب بلحية ضيقة على شكل اسفين وعيون حادة خارقة ، عليه رداء ازرق وشريط عريض من الجوخ الاخضر عبر كتفه ، وعمامة بيضاء فوق رأسه وفى قدميه حذاء اوروبى لامع ، ينحنى بلباقة ، يفتح يديه وكأنه قدذاب فى بسملة ترحيب ، ولاننا قد دهشنا ينطق ببضعة جمل فرنسية لبقة بتتابع ، يتضح ان " الداهية القصير " قد ظهر بالمظهر العربى المنمق ، واخفى المظهر التركى الحديث المعاصر لقد امتلك طرق واساليب الصالونات الراقية فى اوروبا بما فيه الكفاية ، وبشخصية نرى ممثل تلك المجموعة من الاتراك ، الذين وصلوا الى هنا فاتحين واداريين للاحتلال ، ثم اندمجوا وتكيفوا فى هذا البلد الى ذلك الحد الذى جعلهم يبقون فيه حتى بعد سقوط السلطة التركية ، لكى يخدموا النظام الوطنى الجديد ، يخضعون لأولئك الذين اعتادوا فى الماضى على اخضاعهم ، لان تجربتهم الادارية ، وخبرتهم الثقافية ، وتعليمهم ومعرفتهم بالعلاقات الدولية ، كل هذا قد جعلهم يخدمون الطبقات الحاكمة فى البلاد ، التى كانت مضطهدة فى السابق من قبل نظام السلاطين ، الذين لم يبق لهم الآن سوى الأثر العثمانى .

والقاضي راغب هو أبرز ممثلي هذه الفئة ، عسكري عثماني قديم ، كان في الخدمة الدبلوماسية في سفارات الامبراطورية العثمانية في بيترودرج ، وباريس وفيينا ، عارف بكل حيل والاعيب نظام عبد الحميد ، وبعد ذلك انتقل الى الخدمة في المستعمرات وشغل منصب محافظ في بلدين عربيين (اليمن والعراق) ادركته الحرب العالمية وهو متحمل منصب عامل احد الاقضية في هذا البلد ، ظل في اليمن حتى انتهت الحرب ، اشترك مع القوات التركية والانصار العرب الذين انضموا اليهم في النضال ضد الانجليز ، وكان سير المعارك ناجحا ، وكانت عدن تحت تهديد الاحتلال التركي اكثر من مرة ، ومن اجل الدفاع عن عدن تحتم على الانجليز سحب كثير من القوات من جبهات اخرى ، وكانت المبادء بيد الاتراك طوال الوقت ، استسلموا فقط بامر من القسطنطينية نتيجة للانهيال العام للحلف الالماني - التركي ، ورحل القاضي راغب الى تركيا ، وهناك لم يدرك في ان يشارك مشاركة نشطة في الحركة الكمالية الوطنية التحريرية اذ لم يكن بمقدوره التكيف مع الوضع الجديد ، وبدلا من المكوث في المناصب الثانوية فضل العودة الى اليمن البعيدة ، كما قال ، لكي يساعد بقدر المستطاع اليمنى في بناء دولة مستقلة متقدمة .

على اية حال ، فانه ليس الوحيد هنا ، لقد بقي بضعة عشرات من الضباط والمدرسين الاتراك في اليمن ، يتنقلون في خدمة الامام ، وبمشاركتهم النشطة تشكلت مختلف وحدات اسلحة الجيش اليمنى (المشاة ، الخيالة ، المدفعية ، العربات ، اقسام الرشاشات) ، التي حلت محل فرق الانصار غير المنظمة ، تعتمد المدرسه الحربية على المدرسين الاتراك بشكل مطلق تقريبا ، تلك المدرسة التي تاسست في عهد النظام العثماني ، وهي الان تعد البديل من الشباب العربي ، الذي يغذى صفوف ضباط الجيش اليمنى الفتى .

هذه هي البقية من البشر في الارث العثماني ، التي استطاع بناء الدولة اليمنية الجديدة استخدامها واضافة الى هؤلاء بقي آخرون من المتذمرين المستائين والحالمين بالماضى ، الذي لن يعود ، وهؤلاء هم التجار الاتراك ، وملاك المنازل ، والحرفيون ، الذين فقدوا امتيازاتهم السابقة ، الذين فقدوا جزءا من املاكهم ، والتي اخذت مكانهم البرجوازية العربية النامية ، هذه البقية الحية القليلة العدد للامبراطورية العثمانية ، تجتمع تائهة في مقهى صغير في حي سوق صنعاء الواسع ، هناك يدخنون النارجيلة من الصباح حتى المساء ، يشربون اكواب صغيرة من القهوة التركية ، يلعبون النرد ، يتنهدون ناظرين لصورة السلطان محمد المعلقة على الجدران .

لقد استمعت الى الحديث المعسول الذي قاله راغب ، نقل لنا تحيات الامام ، وشرح

ذكرياته عن فترة تواجده في بتروجراد ، انتقى أسماء وزراء القياصرة وشرح حفلات الرقص والاستقبالات في قصر الشتاء ، وبلغه روسية مكسرة يتذكر الكلمات الاولى من اغنية غجرية عفنه ، اعتبر القاضي راغب انه ليس من قبيل الكلام الزائد التعبير عن اعجابه بالبلد الذي اتينا منه ، وكأنه لا يلاحظ ان اعجابه قد كان ببذخ بتربورج الفابر ، لا يلقي صدى عند محدثيه ، استعجلنا في امله ، حدثناه عن روسيا تلك وببتربورج القديمة لم يعد لها اثر ، ولم يعد البذخ القديم موجود الان ايضا ، كما لا توجد الجماهير الفقيرة ، هناك منشآت العمل ، لينينجراد العمالية ، منشآت الدنيبر ، بيوت الراحة للعمال والفلاحين في لفيدا وغيرها من قصور ومصايف القياصرة .

قلنا هذا ، لكي نوضح له بالكامل بداية علاقتنا ، وبكل تهذيب لازم تجعله يفهم بان الثناء على روسيا القديمة لا حاجة لنا به ، لا نتقبله كثناء يوجه الينا .

ومع ذلك لم يتأتى لنا هذا مباشرة ، لقد تطلب الامر ان نعيد الحديث هذا أكثر من مرة لكي يفهم راغب ، ان امامه اناس من بلد ثاني ، بعيدة الشبه ببتربورج الباهرة خالدة الذكر ، بالقصور ، حفلات الرقص الفجور ، المتهورين ، الكافيار وسمك الباليك الثمين ، وبدلا من الذوبان ارتياحا عند ثنائه ، نجيب بلطف بان هذا يجب ان لا يكون الان .

نرى ان راغب كان يتأكد من نتائج سبر الفور ، وكانت مناوراته على ما يبدو ، تكمن في ان يستوضح من نحن ، هل نحن نماذج قديمة من الموظفين ، لا تزال باقية تحت الرقعة الجديدة " بالتقاليد الروسية الاصيلية " وبالتالي اتينا الى الشرق بنوايا امبريالية مثل قناصل القياصرة القدماء ، ام اننا نختلف عنهم بشيء ما .

نعرف فيما بعد ، ان واحدة من الحجج الرئيسية لأعدائنا في اليمن (وليس في اليمن فقط) كانت تستند على ان البلاشفة ياتون الى الشرق بنفس الاهداف المصلحية الاستعمارية ، شأنهم شأن الروس القدماء ، وعن طريق " الاعجاب " (الذي لا يخلو من الصدق) وضع راغب امامه هدف استيضاح نفسيتنا ونوايانا وتقديم التقرير اللازم لمسؤولي البلاد ، وعبرهم الى فئات السكان الاخرى فيها بهذا القدر او ذاك .

كان اسلوبه اخر ، ليس اقل تميز ، رغبته في معرفة درجة صدقنا ، والتأكد من اننا لا نتستر او نقلد النوق العربي ، يوجه القاضي راغب سؤالا عن علاقتنا بالدين وبالمسيح وبمحمد صلى الله عليه وسلم .

الاجابة على هذا السؤال تحمل خطرا مضاعفا ، فانت تخاطر ، اما ان تظهر نفسك كملحد - داعية ساذج ، او ان تكون منافق حرياء ، نعطى اجابة متحفظة صحيحة وهى اننا لا نؤمن بالله ، ونرى ان مفهوم " الله " يستخدمه البشر لتوضيح كل ما هو مجهول ، غير ان الدين ضرورى للحكومات للتأثير على جماهير الشعب ، فالدين عندنا فى الاتحاد السوفيتى يبتلاشى ، وسينتهى المسيح عن الوجود فى القريب العاجل ، هذا اذا كان موجودا فى الحقيقة ، من المحتمل انه كان شخصية سياسية بارزة ، لكنه كان بالطبع شخصا لا يختلف عن الآخرين ، نحن لا نصدق المعجزات .

الدعاية الايطالية

نعرف فيما بعد ، ان جوابنا اصاب الهدف ، لاننا لم نخفى ما نعتقد ، لقد ضحضنا الشك باننا منافقون ، لقد اقتصرنا على صيغة متماسكة مختصرة ، واكدنا على عدم رغبتنا بالقيام " بدعاية " وبهذا لم نقدم سلاحا بايدينا للمترصدين ، وقد علمنا فيما بعد ان كل كلمة من كلماتنا وكل خطوة من خطواتنا كان الهدف ان تستخدم ضدنا ، لم ينام اعداؤنا : " فالدكتور " الايطالى ، الذى رحل من الحديدة عشية وصولنا ، والذى وصل الى صنعاء خلال ثلاثة ايام بفضل سيارته ، استغل كل هذه الفترة للعمل المحموم ، يحرص الامام نفسه ضدنا ، وكذلك اكثر مستشاريه نفوذا ، وكانت اساليب تحريضه لا تخلو من الفراة والتميز ، فبعد ان اقتنع بسرعة بسذاجة الحجة القائلة " لا تستقبلوا البلاشفة ، فانهم يقومون بالثورات فى كل مكان ، ويطيحون بالملوك " حين اقتنع بان هذه الحجة لا تخلق الاثر المرغوب ، لجأ هذا الايطالى الى مناورة مراوغة ، يكمن جوهره هذه الحجج فى ان البلاشفة مخادعون حين يقولون انهم يقيمون فى الشرق سياسة الصداقة مع شعوب الشرق ، وانهم يدعمون طموحها للاستقلال ، انهم فى حقيقة الامر ، ياتون الى الشرق بغرض المكاسب الاقتصادية واستغلال شعوب الشرق ، وازافة الى ذلك ، يستخدمون نجاحاتهم فى الشرق للضغط على انجلترا وتحقيق اتفاقية معها ، وما ان تعترف بهم انجلترا فانهم سيقطعون معكم جميع العلاقات ، وستصبحون بلا شىء ، والبلاشفة فى جميع جوهر الامر يتعاونون مع الانجليز يطمحون الى تحطيم الدولة اليمنية ومن ثم القيام باستغلال ثرواتها ، لا تثقوا بهم ولا تجروا معهم اية محادثات ، لانكم بذلك ستخسرون صداقة ايطاليا فقط ، وان تكسبوا شيئا بدلا عن ذلك .

هل ياترى اثرت هذه النغمات على العقول السريعة التأثر للفنئ اليمنيه الحاكمه ؟ ان مجرى الاحداث اظهر ان هذا الهمس لم يعطى اثرا حاسما .

كثيره شفافية هذه النوايا التى اجبرت ايطاليا على الصبح او التفريد بهذه الاغنية المنفردة ، لقد كان واضحا حتى للاطفال بان الفاشية الايطاليه قد كانت تتضايق بقدر ما اذا كان البلد الذى تعتبر نفسها " وصية عليه " او البلد الذى تعتبره مستعمرتها القادمة ، يقف على طريق سياسية خارجية مستقلة لتتخلص من براثن القط الفاشى التى لا تبدو أنها مخملية ، كما تعرض الايطاليون للشبهة بشكل كبير بسبب النتائج المخجله فى مدة عامين من تصرفاتهم فى اليمن ، وقد سبق ان شاهدنا فى الحديدة اصدقاءنا العرب يقولون لنا عن قارب ذى محرك ساكن على الرصيف .

- لقد اتى به الايطاليون ، فما ان اخرجوه من الباخرة حتى تعطل ... هذا هو حال كل البضائع الايطالية ...

وكنا حين نسال فى الدكاكين ، لماذا هذه البضائع او تلك سيئة ، نلقى جوابا واحدا :

- ماذا نعمل ... ايطالية ...

لقد صارت كلمة "ايطالى" تعنى " ردىء " ، " لا تجدى فى شىء " .

من الواضح ان نتائج الايطاليين لم تثر ثقة خاصة فى هذا الجانب ، ومع ذلك يبقى من الدجل شىء ما ، لقد كان اليمنيون حذرون عند قدومنا ، وكانوا " يفحصوننا " باهتمام وانتظام ينطلقون من الحجج الكاذبة التى اشاعها الدكتور الايطالى الوديع ، وكان لدى اليمنيين شكا من نوع اخر فينا الى جانب حجج الايطالى ، كانت هذه الشكوك تقوم بالاساس على اننا سنقوم بالدعاية الاحادية او ان نمط حياتنا سينهى التقاليد المعيشية والاخلاق المنافقة المتجمدة فى اوساخ رتابة القرون " فى المجتمع العربى " واننا بينقضى ضد انفسنا " الرأى العام " نخالف العشرات من كبار القوم ، من المشايخ ، نوى اللى البيضاء ، مثل هذا المجرى للامور لن يكون نافعا للامام ومستشاريه ، وذلك لانهم فى نهاية الأمر بهذا القدر او ذاك مسؤولون عن دعوتنا الى صنعاء ، واذا حصل لنا شىء فانه سيؤدى الى اضعاف بعض نفوذ الامام ، وسيقدم اوراقا رابحة للمعارضة الرجعية الوقحه فى تلك الفترة .

لكن لن نذهب بعيدا ، ولن نقدم محتوى احاديثنا بشكلها العملى الخالص ، لقد صار كل هذا من الماضى ، وكل هذا شىء معاش تجسد فى ورقة صغيرة من النوع السميك مرقشة

بالاحرف العربية المنمقة والممهورة بعدة توقيعات وختم الامام فى النهاية ، وكانت مهمتنا المتواضعة هى اظهارها وتصويرها على ورق سوفيتى عادى ، بمساعدة الحبر الطوبوغرافى البسيط لتلك الصور القليلة العدد المتبقية من تلك الصور الذهنية التى انطبعت بشكل اكثر قوة فى الكاميرا العميقة للدماغ ، فالزمن الذى مضى قد اوهى سطوعها الاولى ، والكثير من التفاصيل امتحت بشكل كامل ، وبقت رسوم مجملية واشكال عامه ، ما العمل فهذا هو نصيب الغالبية من اولئك الذين يقعون فى بلد مجهول ، ويحدث ان تكون مغمورا بالاعمال التكنيكية والسريعه ، فى توضيح ظروف تسويق البضائع ، وحل قضايا نوعية مختلف اصناف البن ، فى وسائل توصيل الكروسين ، فى اسعار السكر والدقيق ، وبغض النظر عن الاشياء الاخرى ، لا تستطيع تركيز كل قواك الفكرية لكى تتأمل الظواهر الخارجية ولا تدرك ان تطبعها فى مجال التقبل التعبيرى - الغنى ، ولتكن هذه مقدمه القصيره بمثابة تبرير خفيف لبهوت وعدم كمال هذه الصفحات ... بعد ان اجرى مقابله المطولة معنا ، يذهب القاضى راغب ، واعداء بان الامام سيستقبلنا بعد بضعة ايام ، حين يعود من مقره الصيفى فى وادى ضهر ، القرية الصغيرة خارج العاصمة ، الواقعة على بعد عشرة - اثنى عشر كيلومترا منها .

فى انتظار الثمار الانجليزية

لماذا خرج الامام من العاصمة ؟ نسأل انفسنا بلا ارادة ، الاحداث تتوالى ، والانجليز (وهذا لم يخفيه علينا القاضى راغب) اعلنوا قبل برهة بسيطة للامام مطالبتهم باخلاء منطقة الضالع وقعطبة ، وما يسمى بالمناطق المتنازع عليها ، التى استولى عليها اليمينيون قبل زمن قصير ، وقد قذفوا بضعة عشرات من القنابل من الطائرات على هذه المدن غير المحمية فى بداية ١٩٢٨ ، بهدف الضغط المعنوى " المعنوى " الشديد لكن اليمينيين لم يخرجوا ، وانما اكتفوا بنصح المبعوث الانجليزى جيكونب بسرعة الرحيل من صنعاء مطرودا ، فبدأ الاسد الانجليزى يغضب بشدة ، فارسل لليمنيين مطلباً رهيباً باخلاء المنطقة المتنازع عليها كشرط مسبق للمباحثات اللاحقة ، انتهت مدة الانذار النهائى - صار الجو مشحوناً وفى هذا الوقت يسافر الى " المصيف " .

نعرف سبب سفره فيما بعد ، لقد كانت المنطقة الصغيرة وادى ضهر تستخدم كنقطة يلتقى فيها رؤساء القبائل والمشايخ الاكثر نفوذاً من كل اطراف البلاد ، توالى الاجتماعات فى

قصر الامام اياما بلياليها ، حول اتخاذ وجهة مسيرة ركب الدولة اليمنية ، الذى لم يكتمل بناؤها بعد ، امام العاصفة الامبريالية القادمة ، امام شعاب النزاع الداخلى الذى اصبح وشيكا ، لم نكن نعرف كل تفاصيل ما يحدث فى ذلك الوقت ، وان كانت الاحداث تبين كذلك ظاهريا .

اخرج الى السقف المستوى لبيتنا ، وبعد ان استند بمرفقى على الحاجز الطينى المرتفع ، اتطلع بنهم الى المحيط القريب والبعيد ، محاولا استشعاره ، والتشبع باشعة الشمس المنصهرة وسخونة جو الاحداث الوشيكة الوقوع ، وبينهم انقل طرف وزجاج المنظار من الجبال والقمم البعيدة الى السور المسنن للقلعة ، الى منارات المساجد وحواجز البيوت فى الضواحي .

لا شئ ! سكينه وفراغ ، سوساسل الجبال المحروقة الغبراء هامة جرداء ، المح الحارس المناوب الذى يخطر على حائط القلعة بالكاد ، مدافع ميدان وحيدة ، رافعة مواسيرها بخراقة ناظرة الى السماء وكأنها تتربعد العدو المنتظر .

البيوت خالية ، والسقوف خالية ممطرة بالغبار .

مصارع شبابيك النوافذ مسدودة باحكام ، ولا توجد سوى هياكل الخدم تتجول فى الحدائق الخضراء يشتغلون بسقى الاشجار واحواض الزرع ، اما الملاك فلا وجود لهم ، وكأن اشعة الشمس الحارقة قد طردتهم بلا حول فى الزوايا العميقة للقصور المتعددة الطوابق .

يقبل المساء ، برودة الجبال الليلية تغرى كل حى للخروج الى الهواء ، لكن الشرفات والسقوف خالية كما كانت فى النهار ، وكذلك مصارع النوافذ واجمة ، والاضواء لا تشع وراء الستائر المسدلة عليها كالسابق ومن بعيد فقط ، يصل صخب قطعان الماشية العائدة والموسيقى الغير منتظمة للفرقة الموسيقية العسكرية فى القسم التجارى من المدينة .

نعرف ان كل السكان الميسورين قد تركوا المدينة ، وانه قد بعث كل التجار والموظفين والمشايخ باهلهم الى اعماق البلاد بعيدا ، الى القرى الجبلية غير الملحوظة ، كما هربوا الى هناك هم ايضا ، ويمرون على المدينة نادرا وللأغراض العاجلة ايضا ، وكانت عشرات البغال تعبر بوابة المدينة كل يوم تحمل ممتلكات الفئات الميسورة ، حتى فرغت بيوت الاثرياء وهمدت ، ولم يبق سوى الخدم يحرسون حدائق ومخازن الملاك الهاربين من حمى الحماس الوطنى ، وكان البيت الذى نعيش فيه ، واحداً من البيوت القليلة التى يظهر البشر فى سقوفها وفى شرفاتها نهارا ، وتتغامز الاضواء ليلاً .

فر الوجهاء والميسورون ، فروا قبل ان يروا الطيران المعادى بعد ، فروا فى زعر حيوانى

امام احتمال اقتراب الهجوم ، ولم يبقى فى المدينة سوى الشخصيات المسؤولة ، القوات العسكرية ، وبالطبع الآلاف من ابناء الشعب البسيط ، بقى الحرفيون ، اصحاب الحوانيت الصغيرة والمزارعون ، الذين لم يهربوا الى اى مكان لانه لا شىء لديهم يفقدوه ولا يوجد مكان يفرون اليه .

- لو كان اليمنيين جبناء مثل سكان صنعاء ، لاستسلمنا بدون قيد او شرط امام الانجليز بعد اول غارة طيران - بصراحة تحدثت شخصيات حكومية يمنية ، تجيب على حيرتنا بالنسبة لمثل هذا الذعر الواضح ، الذى اتخذ طابع غير مشرف - ولحسن الحظ فان الشعب ليسوا هم سكان صنعاء .

- بالاصح ليسوا وجهاء صنعاء - واضفنا ، وقد خرجنا عن نطاق المجاملات الدبلوماسية .

كان هذا اكيدا ، فالشعب الفلاح والعامل الحقيقى اليمنى لم يهتز حتى عندما بدأت الغارات وسقط عشرات البشر قتلى فى المناطق والقرى ، تمزقهم شظايا قنابل الطائرات .

الاستقبال الرسمى للامام

بعد بضعة ايام تتم اول مقابلة رسمية مع الامام برفقة القاضى راغب .

قصر الامام (هو مسكنه الشخصى ومقر عمله) يقع فى مسكن الوالى التركى السابق ، لا يوجد فيه اية خصوصية يمنية ، كل مقر العمل يقع بين اربعة جدران طينية ضخمة بابرار مراقبة فى الزوايا ، المدخل يمر عبر بوابات مزخرفة بنقوش منمقة ، تقدم التحية لنا فصيلة من العسكر وقفت صفا واحدا ، وبعد ان صعدنا على السلم الخارجى نمر عبر ممشى طويل الى غرفة واسعة مفروشة بالسجاد ذات اسلوب نصف اوروبى بمقاعد وكراسى ، نجلس ، يجرى حديث مع القاضى راغب ، وبعد بضعة دقائق يدخل الامام ، ننهض وتبادل التحية على الطريقة الاوروبية ، ثم نجلس بعد ذلك جميعا .

كان اسلوب الاستقبال هذا مدروس بشكل جيد ، تكمن القضية فى انه ليس من الملائم ان ينهض الامام امام " غير المؤمنين " وقررت فى نفسى انه لا يرغب مستقبلا ضيوفا وهو قاعد كما يفعل الملوك الاسيويون ، ولهذا اضيفت قواعد الرسميات ، التى لا تمس بكرامة اى من الطرفين .

لابسا قميصا وعباءة ومتنطقا بسيفه ، ومسبحة فى يده يذكرنا بعهد الانجيل ، حيث الملك والكاهن الاول شخصية واحدة ، وبحركات عصبية حادة يجلس على مقعد من المساند ، ومسبحة بمسبحته يمحطنا بالاسئلة .

هو فى ذلك السن الذى لا يمكن القول بانه عجوز بالكامل ، فهو متحرك ، منفعل ، مهتم ونشط فى الحديث ، يستفسرنا خلال ثلاثين او اربعين دقيقة دون توقف حول كل شىء ، عن صحتنا وكيف وصلنا وحول كل المشاكل الدولية ، ماذا يحدث فى المانيا ؟ هل تقوت بعد الحرب ؟ ما هو وضع الحكومة الحالية فى انجلترا ؟ ما هى طبيعة العلاقات بين الاتحاد السوفييتى وتركيا وفارس وافغانستان ودول الشرق والغرب ؟ هل ستستطيع الهند ومصر نيل الاستقلال ؟ ما هى طبيعة الوضع فى الصين ؟ من سينتصر الشماليون ام الجنوبيون ؟ .

يوجه الاسئلة واحدا بعد اخر ، والقاضى راغب واقف فى ، وضع احترام ، منحنى قليلا ليس دون صعوبة ، يكابد مهمته ليس ببساطه كتركى ، يترجم كلمات الامام الى اللغة الفرنسيه ، واجابتنا الى اللغة العربية ، وهذه المهمة شاقة لان الامام يوجه الاسئلة لا من اجل ان يكتفى باجابات عامه دون محتوى ، بل انه يعيد الاستفسار اكثر من مره ويدقق افكاره ، ينصت لأجابتنا باهتمام فائق ، ممعنا التفكير فيها بسرعة وفى نفس اللحظة ، ينقل ما تولده هذه الاجابات من تأثير الى هزات عصبية سريعة للمسبحة ، ومن حين الى آخر يضحك بحدة وعصبية ، وكأنه يطمح عن طريق الضحك اكمال ما لم يرد قوله بالكلمات ، وفى هذه اللحظات تهتز قامته المكتنزه قليلا ، تنتقل عيناه بالتناوب من احد محدثيه الى اخر .

انظر الى الوجه الحيوى للامام ، رغم انتفاخه قليلا ، بلحيه متمرجه وخدود منتفخة ، اتعجب من ان هذا الانسان الذى قضى كل حياته فى جبال وصحارى اليمن ، والذى لم يكن ولو مرة واحده ليس خارج اليمن فقط ، بل وحتى فى تهامه هذا الانسان الذى لم يرى البحر والجليد فى حياته ، ولا البواخر والسكك الحديدية ، ويتضح مدى فهمه لأعقد مشكلات السياسة الدولية الى هذا الحد او ذاك ، وابداء من وقت لآخر الشعور وكأننى طالب معهد يقدم امتحانا فى مبادئ السياسة ، لتذكر حياته ، اعوام التشرد الطويله فى صحارى وفجاج اليمن ، الحياه العسكريه القاسيه لزعيم ومنظم حركة المقاومة المعادية للاتراك ، التى ادت الى نجاح نسبي فى العامين او الثلاثه اعوام قبل الحرب العالميه فقط ، حين اعترف الاتراك بصلاحيات الامام الدينيه فى اليمن واعطوه امكانية القعود وتثبيت نفسه فى صنعاء ، وفى عام ١٩١٢ قام فى اليمن شكل خاص انتقالى فى ثنائية السلطة بشخص الامام والمشايخ وفرق الانصار من

القبائل من جهة ، والوالى التركى الجندرمه والقوات التركيه من جهة اخرى ، كانت هذه فترة انتقاله فريدة ، وكان كلا الطرفين يستعد لمواصلة الصراع ، فالأتراك يشقون الطرق المعبدة ويبنون القلاع ، والامام يقوم بعمل تحريضى فى اوساط القبائل ، يوحدوها حولة ، وشيئا فشيئا يكون الجيش ، لقد غيرت الحرب العالميه مجرى الاحداث ، لقد وضعت الطرفين امام عدو واحدا هو انجلترا ، التى احتلت منذ عام ١٨٢٩ عدن اليمنيه ، واصبحت العدو اللدود لليمن ، وفى مجرى الصراع ضد الانجليز اقترب اليمنيون من الاتراك الى الحد الذى كانت فيه اليمن اكثر الدول العربيه مرونة مع تركيا ، وبعد ان طرح صلح لوزان العلم التركى فى الارشيف فقط .

وبعد انتهاء الحرب بقى اليمنيون لوحدهم عمليا ، وبعد صلح لوزان الشكلي بقوا لوحدهم وجها لوجه ضد انجلترا ايضا ، وكان يتحتم عليهم خوض نضال طويل وعنيد ضدها ، فى هذا الصراع جرب العدو كل الاساليب لضعضعة الدولة اليمنيه الفتية ، بدأ من الاحتلال العسكرى للحديدة - فى الاعوام الاولى من صلح فرسال - ومرورا بتنظيم الانتفاضات الداخليه ، وتحريض الدول المجاوره (الحجاز وعسير) ضدها ، والحصار الاقتصادى ، والرشوه ، والتجسس ، والقصف بالطائرات فى صيف عام ١٩٢٨م مباشرة ، لقد تطلب هذا الصراع من الامام واعوانه ليس الشجاعة الشخصيه فقط بل والمهارات القتاليه والتنظيمية ، لقد كان الامام على رأس جماعات الانصار المنتفضين لضرب الفرق التركيه عديمة التنظيم والواقعة تحت قيادة باشوات السلطان الغبية والجاهلة ، ولكن مسألة النضال ضد انجلترا التى تجيد القتال بالهراوات وبالدينار ، بالطيران وبالتحريض ، فان مهاره لا تكفى ، وما هم الناس الذين لم يروا البحر قط ، والذين استشفوا كل ثقافتهم تقريبا من القرآن والسنة ، بدأوا على عجل يسلمون انفسهم وباستخدام المخلقات البشريه والماديه للارث التركى ، واكملوا تشكيل الجيش النظامى ، الذى بدأوه فى زمن الحرب ، وشرعوا فى بناء الصناعة ، وشق الطرق وامتلاك الطائرات .

اصبحت الصحف الاجنبيه ، وعلى راسها الصحف المصريه الوسيلة الاساسيه لدراسة السياسة العالميه ، وظهر الوعي بضرورة جلب التقنيه الاوربيه ، واقامة العلاقات التجارية مع دول الغرب ، بل وحتى ادراك ضرورة اقامة العلاقات الشكلييه مع البلدان الاخرى ، وهكذا كان الاتراك والايطاليون والالمان قد وصلوا لبناء البلاد بهذا القدر او ذاك ، واصبح الاجانب يتوافدون الى العاصمة ، وكانت الاحاديث التى تجرى معهم بمثابة مصدر لدراسة القضايا

الدولية الغامضة غاية الغموض ، وما هي النتيجة خليفة " النبي " ، ورأس اقدم سلالة ملكية فى العالم ، يعتبر فى تصور اتباعه انه يمثل الزعيم الروحى لعامة المسلمين قد وصل الى ادراك فائدة وضرورة عقد الاتفاقيات مع ممثلى اول بلد اشتراكى فى العالم الواقع فى طرف نصف الكرة الارضية الآخر .

تنتهى المقابلة الرسمية بعد حديث استمر ساعة ونصف ، يعطى الامام للقاضى راغب صلاحية حل جميع القضايا العملية معنا ، ينهض خارجا بعد ان عبّر عن امله بنجاح كل المحادثات ، اما نحن فنسير الى البيت بوقار .

الباب الثالث عشر

- * جهاز الدولة اليمنى**
- * القضاة ، الديوان ، المشايخ**
- * الاجهزة الادارية والارشادية**
- * الامام**
- * الوزير الاول**
- * سيوف الاسلام**
- * الزرانيق المتمردة**
- * محتغيو اليمن**

جهاز الدولة اليمنى

نعيش فى صنعاء اسبوعا اخر ، نتضايق ، فالحياة تمتد على وتيرة رتيبة واحدة ، المدينة فارغة ، والمدارس مغلقة ، لم يعد الزوار الصاخيون من ابناء الفئات الدنيا يتزاحمون امام بوابات الاستقبال والمداخل الامامية لبيوت الوجهاء .

السوق هادىء ، المساجد فارغة ايام الجمع ، لا وجود للاستعراضات العسكرية الباذخة على طريقة اسطنبول السلطانية ...

لكن فى المساء ، وفى ظلمة ما قبل الفجر الحالكة تدوى اشارات النداء من الابواق العسكرية ، وتلمع المصابيح مضيئه بالكاد اشباح مجاميع القوات المتحركة ، وعندما تضىء اشعة الضوء الاولى فوق افق المدينة ، نشاهد الفرق التى تسير تتمرن على المعارك الليلية مع العدو المنتظر تحت اسوار المدينة ، وعلى بعد ١٠ - ١٢ كيلو متر من العاصمة فى وادى ضهر تجرى مباحثات الامام المستمرة مع زعماء القبائل الذين وصلوا من مختلف انحاء البلاد على رأس قوات مجهزة على جناح السرعة ، السؤال يدور حول بقاء او فناء الوطن ، حول الحرب مع الانجليز او عدم الحرب ، لا تسير القضايا التجارية بالسرعة التى نرغب بها نحن الواصلون بوتائر الخطة الخمسية ، بداننا نفهم ان جهاز الدولة اليمنى ليس بتلك البساطة ، التى يبدو بها فى بداية الامر ، يبدو ذلك واصحا شكليا ، فرأس الدولة هو الامام ، ومع بضعة نواب (عادة خمسة) ، يحمل كل واحد منهم لقب " القاضى " (وراغب واحد من هؤلاء الخمسة) وكل واحد من هؤلاء النواب يرأس قسما خاصا فى جهاز الدولة ، وتحت امرة كل واحد منهم بضعة " مكاتب " تشبه الوزارات تقريبا ، والبلاد مقسمة الى عدة مناطق ، وعلى رأس كل قضاء " عامل " . والتقسيم الادارى بعيد عن التنظيم ، فالمناطق مختلفة من حيث اهميتها ، تكتسب احيانا اهمية مقاطعة مثل تهامة التى يوجد على رأسها الامير محم ابن الامام ، وعلى رأس المنطقة الشمالية الامير احمد الابن الاكبر للامام ، كما توجد مقاطعات صغيرة منسية يرأسها صنائع عديمة النفوذ ، كما ان مجالات تأثير " القضاة " مختلفة ، فالقاضى راغب يشرف بشكل مطلق تقريبا على السياسة الخارجية والصحافة ، ونائب اخر او مايسمى بـ " الوزير (الكبير) " ، القاضى عبدالله يشرف تقريبا على القضايا العسكرية ، والصناعة والمالية ، يعتبرونه رئيس وزرائه الفريد ، فى هذا الجهاز من القاضى حتى الموظف الصغير يسمون انفسهم بتواضع " خدم " الامام ، الذين يتعامل معهم الاخير حتى فى المراسلات

الوظيفية بصيغة المفرد ، لقد حذرونا من القاضي عبدالله حين كنا في الحديدة ، انه واحد من اكثر مستشاري الامام نفوذا ، وحين قابلناه في صنعاء اندهشنا من الحس السياسي الفائق لهذا الانسان ، وفهمه للمهام السياسية للدولة اليمنية وتداخل كل هذا مع التدين البدائي والسذاجة الطفولية المباشرة ، لقد انعكس فيه طرفا نقيض بين الاقطاعية الهرمة والافكار الوطنية المتقدمة التي تمتلكها بلاد ملكة سبأ .

واذا كان القاضي راغب ، ممثلا نموذجيا للعناصر القادمة المسلحة من غير العرب ، المستعدة مساعدة اليمن قدر طاقتها في تحقيق المهام الوطنية ، وان كان في حقيقته ارفع من الناحية الثقافية من المستوى المتوسط في هذا البلد ، لهذا فانه معزول نوعا ما عن الجماعات الحاكمة ، ولا يملك فيها جذور قوية بما فيه الكفاية ، فانه يتمثل في شخص القاضي عبدالله القسم التقدمي نسبيا من الفئة العليا اليمنية الاصل والقاضي عبدالله يمني حتى نخاع العظم ، وهو الآخر لم يرى باخرة اطلاقا ، ولم يشاهد البحر والجليد ، اكتسب تجربة ما من الاتراك ، الذين كان في خدمتهم اثناء فترة احتلالهم لليمن .

شاب (عمره يقارب ٣٥ سنة) يذكر مظهره بباريس جود ونوف ، بلحية عريضة كثيفة ، اجعد النودين ، بعيون ذكية معبرة ، يجسد القوة المنظمة في اليمن ، مشغول من الصباح حتى المساء ، يتفقد نشاط الاجهزة الحكومية ، ومراقبة صحة عمل الادارة العسكرية وغيرها من المنشآت الصناعية وتمويل الجيش وتدريبه ، هو مثل الامام والقاضي راغب يعمل من الساعة السابعة - الثامنة صباحا حتى منتصف النهار ثم يخلد بعد ذلك الى ساعات القات ، ويتجدد عمله في المساء ويستمر احيانا حتى ساعة متأخرة من الليل .

ورغم ان ثقافته قليلة ، فانه واثق بجديته من ان مؤسس صنعاء هو سام ابن نوح . والقاضي عبدالله داعية متحمس لافكار التصنيع في نفس الوقت ، يحلم بانشاء صناعة النسيج على قاعدة القطن اليمني الفائق الجودة ، وعلى الاحتياطي الضخم ، كما يؤكد على وجود الفحم الذي لم يستغل بعد .

لا داعي لضرورة امتلاك فطنة خاصة لملاحظة ان القاضي عبدالله ، شأنه شأن القاضي راغب ، فضلا عن نخبة الوجهاء الاقل بروزا في العمل ، هم في جوهر الامر يمثلون السلطة التنفيذية فقط ، يعدون وينفذون ارشادات وتوجيهات الامام ، يعتبرون " مستشارين " شكليا الى حد كبير وفي الجانب العملي فقط ، يخاطرون بالتدخل في التوجيهات المبدئية بقدر كبير من الحذر والتحفظ ، لا يوجد وراء ظهورهم لا انساب وجبهة ولا ملكيات واسعة ولا خبرة سياسية

طويلة ، ولا نفوذ دينى ولا علاقات واسعة ، انهم اخصائيون سياسيون في جهاز الدولة ، انهم محرومون من قاعدة اقتصادية ، وتعتمد كل قوتهم وتأثيرهم على مواهبهم التنظيمية والسياسية بشكل مطلق وعلى المقدرة الدؤوية فى العمل ، وهذا كما هو معلوم بعيد عن الكفاية لامتلاك سوت حقيقى حاسم فى القضايا المبدئية ، ولا يأخذ الامام فى مثل تلك القضايا انتباها لمثل هؤلاء المستشارين ليس شكليا فقط ، بل ولا حتى عمليا ، ومن المشكوك فى انهم يدعون ذلك .

يستطيع الامام القول عن نفسه اكثر من اى ملك اوروبى " الدولة هى انا " وذلك لانه فى يده ، الجيش ، جهاز الدولة ، الخزنة ، وثروة شخصية لا تحصى بشكل احتياطى من الذهب والكنوز الموروثة عن الاسلاف ، يمتلك نفوذا دينيا لا حد له ، ويمتلك افضل الاراضى فى البلاد ، وافضل البيوت والحدائق فى العاصمة وما حولها ، وفي صوامع ومخازنه تنكسب افضل محاصيل البن ، لقد آلت اليه كل ملكيات الاتراك المطرودين ، وفى يده كل اسس الصناعة المستخدمة فى صنعاء مثل ، محطة الكهرباء ، المطبعة ، مصنع السلاح (اشتراه من الايطاليين) ، والة تصفية القطن وطاحونة تدار بمحرك يعمل بالبنزين - اهتماماته الشخصية لا تتفصل عن الدولة تقريبا ، والى ذلك كالحد تشتد عرى ارتباط مفهوم ملكية الخزينة بملكية الامام الشخصية ، لهذا السبب يهتم الامام بكل شىء من تغير الوزارة فى بريطانيا الى تغير البغال للمسافرين من الحديد ، وهو يحكم ويدير بكل معنى الكلمة ؛ كل اليمينيين " خدمه " و " عبيده " ابتداء بالعبيد الحقيقيين وحتى الوزراء او بالاصح النواب .

يبدو للوهلة الاولى ملك مطلق بلا حدود ، لكنه كما ذكرت سابقا لم يكن بمقدوره الامتناع عن مضغ القات ، كما كان مضطرا الى منع ابنائه من الذهاب الى محطة الاذاعة لسماع الحفلات الموسيقية الاوروبية لان اتصال ابناء الزعيم الروحى بموسيقى غير المؤمنين ، يعتبر امرا غير مسموح به من قبل " الراى العام " المتمثل بمجموعة من المشايخ المتنفذين وفئة السادة المذكورين ، والاكثر من ذلك ان تلك الاغاني تذاع باصوات نسائية فى الغالب .

ان هؤلاء المشايخ ، الذين ينقسمون الى عدة فئات ، تربطهم خيوط كثيرة من علاقات الدم والملكية والدين مع كل فئة الوجهاء من التجار - الاقطاعيين فى اليمن ، يتابعون بيقظة كى ينفذ الامام ، الملك المطلق ، ارادتهم ، ويحمى مصالحهم ، هذه المصالح التى تعتبر مطابقة لمصالح الوطن والدين ، ان اقل مبادرة اصلاحية يتجرأ الامام عليها يستقبلونها بمقاومة ضاربة ، وبصعوبة بالغة يتمكن الامام ومجموعة من الوجهاء بطريقتهم الخاصة اجراء هذه - او تلك من التجديدات ، تلك البدايات مثل استخدام السيارة والدراجة البخارية ، السماح بوصول الاطباء

الاجانب (كان اوائلهم من الايطاليين) ، وبعث الطلبة الى الخارج (الى ايطاليا لدراسة الطيران) ، قد قوبلت بمقاومة عنيدة من قبل هؤلاء ، وتحققت بعد مناورات صعبة طويلة . اما ما يتعلق بتلك الافعال مثل عقد الاتفاقيات مع الدول الاجنبية (ايطاليا - الاتحاد السوفيتي فيما بعد) او قضايا الحرب والسلم ، فانه يجب ان يسبق ذلك قيام عدة اجتماعات ، مؤتمرات ، محادثات الامام وراء الكواليس مع المشايخ ... الخ .

وعلى العموم فان مجموعة صغيرة من زعماء مذهب الزيدية (مذهب اسلامي ايراني المنشأ يشغل مكان وسط بين السنة والشيعة) تعتبر وكأنها لجنة مركزية من نوع خاص لهذا المذهب ، الذي يمكن ان نسميه الحزب الحاكم في اليمن بمعنى خاص ، وفي هذا الوضع يعتبر الامام ليس اكثر من ممثل لهذا " الحزب " ، يجب ان يكون الامام منتخبا من الناحية الشكلية عن طريق مراسيم طويلة معقدة ، ومن الناحية العملية ينتخب الابن الاكبر للامام المتوفى عادة ، ومن الناحية الشكلية يجب ان توجد في الامام المنتخب اكثر من عشرة شروط " معنوية " (الشجاعة والرجولة والعدالة ... الخ) وقد صيغت في قانون خاص في المذهب الزيدي ، وينتج عن ذلك مبدأ خليط من المبدأ الوراثي والمبدأ الانتخابي ، الجمع بين السلطة المطلقة والمبادئ الدستورية الشيعية في نفس الوقت .

القضاة ، الديوان ، المشايخ

والمشايخ (الكبار والمتوسطون في اليمن يبلغ عددهم ما يقارب الفين شيخ) يعتبرون اكثر الفئات الاجتماعية نفوذا ، وكما اشرنا سابقا ، فانهم ينقسمون الى فئتين ، فئة ارسنقراطية اكيركية بليدة ، وفئة اخرى من الاقطاعيين الاقل رجعية تنمو قليلا قليلا الى طبقة تجارية - صناعية ، يعتبر خط الامام محصلة لهاتين القوتين ، ويحدد تألفها النهج السياسي الرئيسي ، تقع تحت تأثير المشايخ مجالس خاصة (كان عددها ثلاثة) ، دائمة الانعقاد لدى الامام ، يتكون كل واحد منها من اثني عشر الى خمسة وعشرين شخصا من اكثر المشايخ نفوذا ، واكثر هذه المجالس عددا ونفوذا هو مجلس القضاء الديني ، الذي يقف على رأسه اعلى شخصية دينية - شيخ الاسلام ، وهذه المجالس تلعب دورا حاسما في القضايا الرئيسية ، ومع ذلك تعتبر هيئات غير رسمية ، ولا يتدخل المشاركون فيها ظاهريا في القضايا ، وليس بمقدور الاجانب مثلا مقابلة اعضاء مجلس العلاقات الخارجية اطلاقا ، وانما يجب بحث جميع القضايا مع المستشار " الرسمي " كما هو في هذه الحالة القاضي راغب .

الاجهزة الادارية والارشادية

وفى كل الاحوال فان شهر او شهرين من التواجد في صنعاء غير كافى لمعرفة الوضع بوضوح بكل دقائق ماكنة الدولة ، التى هى ليست بتلك البساطة ، وبكل حيل الجهاز الحكومى و " الاجتماعى " ، التى بواسطته تتجاوز الطبقة الحاكمة مؤامرات العدو الخارجى الجبار ، ومقاومة العناصر المعارضة فى داخل البلاد ، وان تحل المهام الصعبة والمعقدة لاعادة بناء البلاد ، متجاوزة التناقضات الطبقية والقبلية والدينية .

الامام

ولا يزال من الصعب اعطاء وصف شخصى للامام ، ومن الصعب فهم اى من الافعال تمليها مصالح الامام الذاتية ، وتنفيذ بمبادرته الخاصة ، و اى منها تنفذ تحت الظروف الموضوعية ، و احيانا كثيرة تحت ضغط شيوخ " الاسلام " . يمكن باختصار فقط رفض التصور الذى ينشره عنه الصحفيون الاجانب كواحد من اكثر الملوك رجعية وبخلاً واستبدادا ، ومقارنته بالملوك العرب الاخرين ، تتكون هذه التصورات نتيجة للنضال العنيد ، رغم انها ليست واضحة دائما ، هذا النضال الذى يخوضه الامام ضد محاولات التغلغل الامبريالى فى اليمن ، ونتيجة للريبة الطبيعية التى يكنها للاجانب وبضائعهم ، بعد ان اقتنع من خلال تجربته مع الايطاليين ، فانهم مستعدون لخداعه فى كل خطوة وتوزيع كل بضاعة رديئة بمبالغ ضخمة ، وهكذا حلقت طائرة واحدة لبعض الوقت ، من اربع طائرات ارسلها الايطاليون ، اما بقية الطائرات فلم يكن بالمقدور حتى تشغيلها فقط ، كما ارسل الايطاليون بنادق من عهد الحرب الايطالية - الحبشية ، مقابل سعر باهظ ، وباعوا عليه سيارات قديمة غير صالحة ... الخ . الى درجة اصبحت كلمة " بضاعة ايطالية " تعنى فى اليمن كل ما هو ردىء ، وصارت كلمة " ايطالي " ترادف كلمة " المانى " عندنا فى الماضى لكل " اجنبى " وبالقدر الذى برز فيه شعور حذر من عدم الثقة بكل ما هو مستورد من الخارج ، فقد وجد تفسيره بـ " البخل " المزعوم للامام (الذى دفع مبالغ ضخمة على استيراد بضائع غير صالحة) ، وفى الحذر الشديد اثناء دفعة للنقود ، واضعا شرط مسبق هو ان تشغل السيارة المشتراة امامه .

وما دمنا قد توقفنا عند الامام ، فلنقتل بضعة كلمات عن ابنائه ، لقد قابلنا الامير محمد فى الحديدية وهو الابن الثانى للامام ، وبصفه الوجهاء مع مسحة من السخرية بانه فيلسوف وشاعر وحالم ، يعيش وحيدا ، خلاف غيره من الوجهاء ، الذين يتزوجون حريما كثار ، يكتب الشعر ، ويقرأ الصحف المصرية بمثابة ، هل ياترى اثر عليه تواجده فى اوربا (لفترة قصيرة اثناء سفره مع القاضى راغب الى ايطاليا بعد توقيع الاتفاقية) ام سعة اطلاعه ، هى التى اعطته مظهرا تقدميا ، لا يخشى من ان يعرض نفسه للتصوير ، والصعود على الطائرة ، فضلا عن سفراته الكثيرة بالسيارة ، كما ان تواجده فى الحديدية ، واتصاله المستمر بالوسط التجارى الكمبرالورى ، قد جعل منه حسب رأى الاجانب ، مهادنا بالنسبة لنفسه ومشاعر هذا الوسط ، كما ان لين طباعه وسرعة تصديقه كثيرا ما يكون السبب فى ان يجتمع حوله الكثير من المقامرين ، الذين لا يستطيع التجرد على رفضهم باستمرار .

الوزير الاول

ونقيضه اخوه الاكبر العهد احمد ، الذى يحمل لقب سيف الاسلام ، انه جبار ومقاتل شرس ، ينشر الخوف والذعر بين كل رؤوسيه ، لقد وصفوه بانه يحتفظ عادة ودائما بثعبان وفهد الى جانبه وبهذه الطريقة يجعل الوجهاء الذين يصلون اليه يرتعدون ذعرا وحين ياتى الى صنعاء من الجبهة بين حين واخر يحيط به محاربون وقحاء ، ويرتبط وصوله بالذعر العام ، كما يقال ، انه حتى الامام يتغير صوته كثيرا حين يتحدث مع ابنه ويخاطبه بلهجة بعيدة عن الترفع .

ولكى ينتهى عرضنا للبيت الحاكم اليمين يبقى ان نضيف انه الى جانب احمد ومحمد يوجد سبعة او ثمانية اولاد للامام فى عمد الطفولة والفتوه ، لا يتربون على نمط اقطاعى خاص يدرسون اللغات الاجنبية وبعضهم يقود الدراجة البخارية ، والبعض الاخر الدراجة الهوائية ، والتحديث يكشف عن نفسه .

وعلى العموم فان حياة الامام الاسرية تسير فى وضع محكم الاغلاق ، اتذكر انه فى احد الايام ابلغنا غير رسميا عن وفاة احدى زوجات الامام (زوجاته اربع) ، وحذرونا فى نفس الوقت من التحدث بهذا الشكل او ذاك عن هذا الموضوع عند لقائنا بالامام ، وذلك لان الوفاة ، والولادة او الزفاف فى القصر هى مسائل حياتية داخلية خاصة جدا ، وتعرف الاجانب عليها محرم .

لقد تحدثنا سابقا عن الطبيعة الاجتماعية للفئة الحاكمة لليمنى فهى تعتمد على الجيش والاقطاعيين الذين ينمون باشكال راسمالية ، وتتحالف مع البرجوازية التجارية الداخلية وحتى مع الاوساط الميسورة فى الارياف ، والقوة التى تعارضها هى فئة الارستقراطية الاكليريكية (المغلقة الدماغ) وزعماء القبائل الذين لا يحبون الخضوع للسلطة المركزية ، ان الصراع مع الزعماء القبائل العصاة يشكل جزءا رئيسيا من السياسة الداخلية لليمن ، ويعتبر القسم الجبلى من اليمن مرتبط بالدولة بقوة على وجه العموم ، وسواء شاء مشايخه ام ابوا فانهم خاضعون كليا للسلطة المركزية ، والعلامة الخارجية هى انتماء كل مشايخ القسم الجبلى لمذهب الزيدية ، وعلى عكس ذلك مشايخ وقبائل تهامة وما وراء الجبال فان اغليبيتهم ينتمون الى مذهب ، ولا يميلون ابدا للاعتراف الكامل ويشكل مطلق بنفوذ الامام الدينى والحكومى ، والذي يلعب الدور الرئيسى فى هذا التناقض ليس الدين بالطبع وانما الاقتصاد ، فقبائل تهامة وما وراء الجبال يقعون فى درجة ادنى من التطور ، ما زال اقتصادهم يحتفظ بالنمط الرعوى فى تهامة ، وحياة البداوة فيما وراء الجبال ؛ وبعد ان تعودوا على العيش على اساس وحدة اقتصادية مغلقة ، فانهم لا يميلون الى الرضوخ لجهاز الدولة فيقاومون محاولات السلطة المركزية التى تحملهم اثقال الضرائب وفرض الخدمة العسكرية .

ويستغل تذرهم من السلطة المركزية بمهارة من قبل الامبرياليين الاجانب الذين يقومون بدعاية حاذقة بين القبائل ، وفى اللحظة المناسبة يمدونهم بالنقود وحتى بالسلاح يدفعونهم للنضال ضد السلطة المركزية ، واكثر القبائل عنادا فى صراعها ضد الامام هى قبائل حاشد والزرائق ؛ تسكن حاشد فى شمال اليمن ، على الحدود مع الحجاز ، وتعيش قبائل الزرائق فى منطقة جنوب تهامة ، وهى منذ عهد قديم ، من عهد الاتراك مشهورة بالاصرار والعناد ضد كل محاولات التغلغل الخارجى سواء التركى او اليمنى فيما بعد .

ولنقدم كلمة احد الاصدقاء العرب ، الذين وصف لنا طباع هذه القبيلة وصراعها ضد الامام بهذه العبارات :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، الزرائق هم عرب ، لكن بينهم قبائل حبشية وسودانية الاصل يعيشون على الساحل والى الشرق منه ، وموانئهم هى (الجوى) وعليفقة ، وعين الدي والطائف وعاصمتهم بيت الفقيه ، بينهم تسعة آلاف من المسلحين الشجعان ، لكنهم يشكلون مع زوجاتهم واطفالهم وشيوخهم ما يقارب ثلاثين الف ، وقراهم تقارب الثمانين قرية ، فى ارضهم احراش يختبئون فيها اوقات الخطر ، وينمو فى ارضهم السمسسم ، البطيخ الاحمر ، الفول ، الذرة ،

وميناء الطائف من بين موانئهم الصغيرة ، انه قرية للصيادين ، وفي اثناء الحرب مع ايطاليا (عام ١٩١٢) قام بالتجارة الرئيسية مع الخارج بدلا من الحديد ، ويفضل هذا اثرى احد الصيادين الفقراء واسمه احمد الفتيلى واصبح اكبر تاجر فى الزرائيق ، لقد قام بتنظيم توصيل البضاعة الى الحديد والى اعماق البلاد ، واخذ مقابل ذلك قسما من الارباح ، كما اقام علاقات مع عدن ومصوع .

" والزرائيق لا يتزوجون قبل ان يبلغوا الثلاثين من العمر ، وعندما يتزوجون لا ينامون مع زوجاتهم اكثر من مرة واحدة فى الشهر ، يحبون اللبن والعسل بلا حدود ، جميعهم اغبياء لكنهم شجعان فى المعركة " .

عندما وصل الاتراك الى اليمن قبل ثمانين عاما ، رفض الزرائيق الخضوع لهم ، لم يدفعوا الاتاوات ، وفى عهد السلطان عبد العزيز جرت بينهم وبين الاتراك معارك كبيرة ، ثم خضع الزرائيق واجبروا على دفع ضريبة للحكومة التركية تقدر باثنين بالمائة من مجمل البضاعة المستوردة ، وثلاثة قروش على كل جمل يصل الى منطقتهم او يخرج منها ، وفى عام ١٣٠٤ هـ حدثت حرب بين الزرائيق وقبيلة فعار ، وكان الاخيرون قليلى العدد لكنهم اقوياء ، صلى شيخهم احمد مسكين يرجو من الله العون لى الله طلبة فاصابت الكوليرا الزرائيق وتوفى عدد كبير منهم .

الزرائيق المتمردة

" وفى عام ١٣٠٩ هـ عين التراك فوزى باشا الذي وصل من سوريا قائمقام على الحديد ، وكان هذا الشخص نبىلا ونزيها ، احبه كل اليمنيين بما فيهم الزرائيق ، ومع ذلك رفضت قبيلتها المجاملة والموازعة الخضوع للحكومة ، وحينئذ وصلت قوات تركية بقيادة الشركسى احمد بيه الى بيت الفقيه وهجمت ليلا على قريتهم ، واسر جميع مشائخهم واجبرهم على الاعتراف بسلطته او قتلهم ، وهكذا كان الزرائيق مجبرين على الخضوع ، وتوفى احمد بيه سريعا بعد ان شرب عن طريق الخطأ شرابا روجيا من عصير التمر ، فرح جميع الزرائيق ، وبعد ان اقاموا احتفالا بانحيا رفضوا الخضوع للسلطات التركية مرة اخرى " .

" لكن سعدى بيه الذي خلف احمد بيه يدخل مع الزرائيق فى معركة جديدة فيجبرهم على الخضوع وحينها تفرقوا فى كل الطرق الكبيرة وبدأوا بنهب وقتل المسافرين او احبار التجار

على دفع اتاوة على كل جمل مقدارها بضعة ريالاً ، وعندها ارسل سكان بلدة زبيد (يبدو انهم من التجار) برقية الى عظمة السلطان يرجون منه كبح وقمع هؤلاء المتوحشين ، فاصدر امرا لقائم مقام الحديدة وقام الاخير بتكليف يوسف بيه واخرين بهذه المهمة ، وبعد شهرين من القتال انهزم الزرائق واخذ المشائخ اسرى ، وحينها وصل رئيس مدينة الحديدة احمد شبراى باشا الى الزرائق ، واطلق سراح الاسرى واصبح يدفع راتبا لكل شيخ من اجل عدم قطع الطريق .

لقد كان نضال الزرائق ضد الاتراك متميز لانه يعكس عملية النضال ضد العسف العثماني ، وهو النضال الذى خاضته القبائل الزيدية بقيادة الامام ايضا .

- وقد انعكست فى هذا الصراع اساليب الشراء والاستمالة تلك التى مارسها الباشوات الاتراك ، بهدف تأمين انفسهم بواسطة معاضدة المشائخ المحليين والتجار فى النضال ضد السكان العصاة .

محتفيو اليمن

سرد محدثنا طويلا تلك المعارك التى خاضها الزرائق ضد الاتراك ، ثم ضد الانجليز بعد الحرب العالمية وضد الادريس حين احتل الحديدة ، والان يستخدم هؤلاء الفوضيون " من قبل الانجليز فى الصراع ضد الامام بطريقتهم الخاصة ، يناضل الزرائق بانتظام وعناد ضد كل محاولات التغفل فى اراضيهم من اى قوى غريبة عنهم ، ولا يستثنون فى ذلك حتى حكام بلادهم من اليمنيين ، والسبب فى ذلك ليس الدوافع الاقتصادية المشار اليها فقط بل وبسبب المغالاة والتطرف الفريد الذى استخدمه الجيش والادارة اليمنية فى الصراع ضد الزرائق ، حيث ان دعاة المركزية الاقطاعيين ، الخشنيين عديموا التجربة فى صنعاء كانوا يرسلون الى منطقة القبائل العاصية والمتمردة البلاد والعساكر الغلاظ الذين لا يملكون لغة الحديث مع رؤوسهم فى احيان كثيرة ، بلغة اخرى ، كانت لغة القتل ونظام الرهائن ونتيجة لهذا فقد استمر الصراع طوال عامى ١٩٢٨ - ١٩٢٩ بين الامام والزرائق ، ولا نعرف هل انتهى ذلك الصراع الان ام لا .

غير ان الصراع مع الزرائق ليس سوى اكثر الظواهر بروزا فى عملية النضال من اجل توحيد القبائل اليمنية فى جسم دولة قوى ، تخوض سلطة صنعاء هذا النضال فى ظل العمل

المضاد من قبل الإمبريالية وعملائها ، يمول الإنجليز والايطاليون الزرانيق بالسلاح على التوالي عبر موانئ بحرية صغيرة ، كى يكون من السهل على أولئك تهديد الامام ، حتى ينتزعون منه هذه التنازلات أو تلك ، وعلى وجه العموم فان عملية التوحيد هذه لا تزال بعيدة عن نهايتها ، حيث ان مجموعة من القبائل وخصوصا الواقعة الى الشرق من صنعاء ، وما وراء الجبال ما تزال غير خاضعة لنفوذ السلطة المركزية ، والصراع ما زال قائما .

الباب الرابع عشر

*** فـي ايام الغارات الانجليزية**

*** العملاء**

*** اضرب واهرب**

*** ثلاث صيغ**

فى ايام الغارات الانجليزية

تبدو صنعاء وكأنها قد اقفزت ، البيوت الخائفة فارغة ، همد السوق وانكمش ، المدارس والاماكن الغاصة بالناس مغلقة ، المعسكرات الحربية خارج اسوار المدينة منتعشة لوحدها فقط ، وفيها تنفث دخان مدخنة مصنع الاسلحة الصغيرة محمولة ، يسمع صليل المعادن ، والمجموعات العسكرية تسير بدون توقف على السهل بالقرب من اسوار المدينة ، تلوح المدافع والرشاشات ، كما اقيمت مراكز مراقبة على الجبال المحيطة ، نقلت كل الممتلكات الحكومية من المدينة او مخبأة فى جبل نقم ، حتى الطائيرة الوحيدة الصالحة للاستعمال ، والتي يقوم بخدمتها ثلاثة من المدربين الالمان ، امر الامام بتفكيكها واخفائها خصباً لهذا الغرض .

المدينة تنتظر الغارات الانجليزية ، وانتظارها ليس عبثاً ، فالطائرات الانجليزية قد اغارت على المدن الحدودية مثل الضالع ، قعطبة ، ذمار ، يريم تعز ، وصف آخر من القرى والاماكن قد جرب ماذا تعنى منجزات " الحضارة " ، الاخبار عن الغارات القارات التى بدأت تصل الينا فى البداية على شكل اشاعات من الاسواق قد حدثتنا بها شخصية رسمية فيما بعد ، تبدأ الطائرات تضرب المناطق الحدودية " المتنازع عليها " ، ثم تضرب العمق فيما بعد ، فتصل الى الاماكن الواقعة على منتصف الطريق بين عدن - صنعاء ، يجرى اللعب باعصاب ضيقى التفكير والفئة الحاكمة فى اليمن .

وصنعاء حابسة نفسها تنتظر الغارات ، الصباح فى صنعاء واضح وهادىء ، لا ربح ولا سحب فى السماء الزرقاء غير المتناهية ، فى هذه الساعات من الفجر تنطلق الطيور الفولاذية الكاسرة من عدن ، تحلق فوق صف من القرى والمدن ، لا تبحث عن المدن المحصنة ابداً او عن التجمعات العسكرية ، لا يتورعون عن رمى القنابل على القرى الامنة ، يهبطون حتى التلامس فوق الريفين الهاربين فى ذعر ، واكثر القتلى من النساء والشيوخ والاطفال ، يستمر هذا الاصطياد الدنىء حتى الساعة العاشرة ، ومن هذه الساعة يبدأ الطقس يسوء فى الجبال وتهب الرياح تدفع السحب فى زرقة السماء الملبساء ، وتهب اعاصير حقيقية ويتساقط المطر احياناً ، كان الطقس يحمى البلاد ، العاجزة ، ثم تعود الطائرات الى اماكنها تحت حماية طوابى عدن ، ويتنفس السكان الصعداء ، ينتظرون بهلع فجر آخر .

موجة التوتر العامه تلقنا نحن ايضا ، نحن كذلك نخرج فى اوقات الصباح الى السطح المستوى ، نوجه المنظار الى الافق البعيد ، حيث تمتد الطريق الى عدن غير الودية ، مختفية

وراء كتلتين ضخمتين من الجبال ، نرفض الاقتراح المعروض علينا بالانتقال الى الاماكن الامنة خارج المدينة ، ننتظر بفارغ الصبر نهاية الموقف المتوتر ، نشعر كما لو اننا نشارك فى الاحداث الجارية مباشرة .

نسأل انفسنا ماذا سنفعل عندما تبدأ الطائرات بالقصف ؟ هل سنذهب الى اقبية المبنى ام سنبقى فى السقف توجه منظارنا الى اعلى ؟ او الافضل لنا ان نخرج الى الحديقة ، لكى لا نقتل عبثا تحت انقاض البيت المنهار ؟ اين سنذهب فيما اذا سقطت صنعاء والحديدة وتحتم على الامام التراجع امام ضغط القبائل الممولة من الاعداء ؟ انذهب الى الشرق ، نسير عبر صحارى الربع الخالى المجهولة باتجاه شواطئ الخليج الفارسى ، ام نخطو مئات الكيلومترات الى الشمال فى طريق الحجاج الى الحجاز ؟ لا نعرف ، بل ولا نمعن التفكير فى هذا الموضوع بشكل خاص ، تبدأ العصبية الشرقية تتغلغل فى مسام تفكيرنا ، وفى نشوة تأملية ننصت لخشخشة آلة الزمن ، التى كأنها قد تحركت من محطة القرون وانطلقت الى الامام .

الاشاعات زاحفة ، تسبق الاحداث ، وتتناقض مع مجرياتها مباشرة احيانا ، لا تعكس هذه الاشاعات ما هو موجود فقط ، بل وما كان مفترضا ان يحدث حسب تخطيط العدنيين الملهمين .

تصبح انتفاضة قبائل حاشد فى الشمال والزرائق فى الجنوب الغربى معروفة ، يتحدثون عن قصف البواخر الانجليزية للحديدة يخبروننا فى نفس الوقت بان هناك اشاعة منتشرة وكأنه قد حصل قصف الطيران على صنعاء وعن تدمير القصر الملكى وهروب الامام ، وفى هذه الاثناء كدنا ان نقع ضحايا استفزاز ماهر ، ظل مصدره الحقيقى غير معروف لنا ، والقصة هى بالشكل بالتالى .

العملاء

ان احد تجار صنعاء ، الذى تصله قرابة مع احد الموظفين البارزين بالحديدة ، وكان قد تعرف علينا حسب توصية الاخير هذا ، وزارنا اكثر من مرة ، ناقلا وسط الاحاديث العملية عن بيع البن وشراء الكروسين اشاعات السوق المتسمة بالتزوير السيئ المشبوه .

بدا لنا ان رده على اعقابه امر غير لائق ، وعلى كل حال هو قريب احد اصدقائنا نوى النفوذ فى الحديدة ، صبرنا على زيارته الى حين ، غير انه عزم رفيقنا فى احدى المرات ، وقد

كان اكثر الحديث مع هذا التاجر حول السفر الى الحديدة ، ربما ان شخصيته هذه لم توحى لنا بالثقة اطلاقا ، شعزنا بنوع ما من اعمال السوء (فالرسالة يمكن ارسالها عبر البريد بسهولة) ، قام رفيقنا بفتح الرسالة ، لكى يقرأ رسالة ذلك التاجر المحترم ، يتضح انها مكتوبة بشكل ورقة صغيرة مجدولة او مقسمة الى قسمين ، فى قسم منها تعداد كل " المعلومات " الممكنة عن الوضع فى الجبهات ، فى العاصمة وفي كل البلاد ، وافقت هذه المعلومات الواقع جزئيا ، وان كانت قد حملت صفة سيئة القصد بشكل واضح لليمن ، فهى تخبر عن غارات الانجليز على عدد من المدن ، وعن انتفاضة قبائل حاشد ، وعن هروب اليسوريين من صنعاء ... الخ ، وكان جزءا من هذه المعلومات مخترع وقد صيغ بطريقة مثيرة للفرع بوضوح ، فقد ابلغت الرسالة عن قصف الطائرات الانجليزية لصنعاء (حيث لم يصل طيران العدو اليها حتى الان) وعن تدمير قصر الامام ، والهجوم الذى بدأته القوات الانجليزية ... الخ . كانت ورقة الرسالة مسطرة بحيث كانت فى الجهة المقابلة للمعلومات ذات صيغة تقل او تكثر عن شبه الحقيقة " اسعار السكر (او الدقيق ، البن وغيره) منخفضة " ومقابل المعلومات الواضحة الهراء والكذب يكتب : " اسعار " (بضاعة ما) مرتفعة ايضا " ، هكذا تم تنظيم نقل الاشاعات المذعورة ، التى انتشرت فى كل البلاد ، الهادفة الى تقويض سلطة الامام ، واثارة الانتفاضة ضده ، والتى كان يتبناها من يحلم بمجىء فئة مقبولة للانجليز الى السلطة .

كان واضحا ان اليمنيين الذين يوالون الانجليز الى استخدامنا لكم واحه للاشاعات الكاذبة ، ربهذا يجرونا الى لعبتهم ، كان يمكن ان يكون هذا نصف المصيبة ، لكن كل الوضع الذى دبره اصحاب هذا التدبير ، ولعدة اعتبارات لا تستحق الذكر ، فرض علينا الشك بان مدبرى الدسائس ينوون فيما بعد فضحنا اما اعين الحكومة اليمنية ، يخبرونها بهذه الطريقة او تلك بواقعة نقل " الرسالة " الاستفزازية من قبلنا بالذات ، وقفت امامنا مهمة كيفية التخلص من هذا الوضع وقعنا فيه ، من الواضح ان ارسال الرسالة الى الجهات المعنية امر لن يكون ، وبالطبع كان المخرج البسيط هو توصيل الرسالة الى اى السلطات ، وبهذا نؤكد " ولائنا " . لكن هذا يعنى عدم الثقة من قبل من اعطانا الرسالة (رغم انه عمل ذلك لاسباب استفزازية وعدم الثقة فى الشرق امر لا يفتقر حتى من كان لصالحه ذلك ، ولهذا قررنا ان نبقى اماناء فى موقف عدم التدخل فى الوضع العقد للعلاقات الداخلية اليمنية ، وبعد عودة الرفيق اعدنا الرسالة للتاجر مع الاعتذار عن عدم قدرتنا على توصيلها الى الحديدة وذلك " لاسباب خارجة عن ارادتنا "

لو كنا اوصلنا الرسالة الي المرسل له ، فانه يمكن ان يكون الاحتمال بتطور مجرى الاحداث اللاحق وفي افضل الحالات ، لو كان " صديقنا " فى الحديدية والتاجر فى صنعاء عميلين نشيطين للانجليز وعدوين للامام ، فسنكون قد نفذنا دورا منحطا كأعوان فى نشر الدعاية الانجليزية ، وقد يظهر " الصديق مستلم الرسالة لكل من هب ودب ، كإثبات موثوق به عن صحة اشاعات الذعر المنتشرة ، وتلك الواقعة ، بان الرسالة حملها رفيقنا ، كانت ستستخدم كتأكيد اضافى على صحة معلومات الرسالة ، ولكننا قد نفذنا عملا مخزيا ومنحطا .

لكن كان هناك احتمال اكثر رعبا ايضا ، حيث يمكن ان يكون هذا التدبير مدبر من قبل رؤساء البوليس اليمنى الفيورين ، الذين يبحثون عن براهين " لعدم ولائنا " للامام ، ولهذا فقد اقدموا على هذا العمل الاستفزازى ، " اذ بعد ان يستلم الصديق " فى الحديدية هذه الرسالة ، بمقدورة ابلاغ الحكومة بسرعة ، بانه اكتشف تعاوننا نشطا " للبلاشفة " مع الانجليز فى قضية نشر الاشاعات الكاذبة ، وثبت الافتراء الايطالى (بان البلاشفة يتعاونون مع الانجليز ، ذلك الافتراء الذى تحدثنا عنه سابقاً ، وبهذه الطريقة يكون التأكيد امام عينى الامام نفسه ، وكان هذا أسوأ من تجارة خاسرة أو فشل دبلوماسى . . .

لكن الامور بخاتمته ، وهكذا لم نعرف ، هل اصبح معروفا للحكومة اليمنية هذا الحادث الصغير ، وفي كل الحالات ، لم نتباهى " بولائنا " والان لا نتباهى ايضا ، لقد سردنا هذا المقطع كصورة واحدة فقط وكلفم من الغام كثيرة اعداؤنا المتعددين الاشكال نثرها فى كل خطوة امامنا ،

يمر اسبوعان او ثلاثة متوترة .

يبدأ اثر الغارات يضعف ويزول بالتدريج ، نعرف ان بضعة طائرات انجليزية تحطمت فوق الاراضى اليمنية ، ولا نعلم هل كان ذلك نتيجة لرصاص البنادق التى اطلقها البدو ، او للمطبات الجوية فى الهواء الجبلى لليمن الذى لم يكن مدروسا من قبل الطيارين الانجليز .

وشيناً فشيناً تتعزز الثقة ، بانالعدوان يغامر بالطيران على صنعاء .

وبعد ذكريات الماضى نستخلص النتائج .

فى زمن الحرب العالمية ، فى صيف ١١٥ ، حين كانت اليمن شكليا ضمن الامبراطورية العثمانية (اما من الناحية العملية فلم يجد الاتراك مستندا او مرتكزا لهم فى اليمن اطلاقا ، وقد احتفظوا فقط بمدينتين او ثلاثة مدن ، قام الاسطول الانجليزى بقصف الحديدية .

اهتزت هذه المدينة الساحلية ، التي ازدهرت بتجارتها ، تحت ضربات قذائف الاسطول الحربى ، وتناثرت البيوت ، وهرب السكان العزل مجاميعاً الى سهول تهامة الحارة ، احترق السوق واشتعلت المخازن التجارية ، رغت الجمال بجنون ونهقت الحمير بطريقة انسانية مرعوية ، وسقط مئات القتلى بينهم الشيوخ والنساء ولأطفال ومات الهاربون بدون طعام ولا ماء فى قيظ الصحراء .

لقد كان سخفا حتى من وجهة نظر المصالح العسكرية الضيقة لبريطانيا ، حيث لم يكن فى الحديدية لا تحصينات ولا مخازن عسكرية ، وانما كانت هناك تجارة عربية وصناعية آمنة ، اينما يكتظ الحرفيون ، والصناع اليدويون ، القتالون ، سائقو الجمال والحمير فى عشش معتمة ، والبائسون يتسكحون فى السوق .

فى ذلك الوقت ، كما هى الحال الان لم يخوضوا حربا ضد الانجليز ، لقد اعد اولئك السكان فى اماكن اخرى انتفاضة ضد الاتراك ، ولهذا فان تدمير مدينة امته لم يجد اى مبرر له من اى وجهة نظر كانت .

لا تزال الهياكل المحطمة من بيوت الحديدية حتى الان ، لقد تفجر كل السخط على الانجليز فى عموم البلاد ، ووجدو صداه فى الخارج ، ودفع كل السكان الى تأييد الاتراك وقتل الآلاف من الاسرى الانجليز ، وخلقت حالة استطاع الاتراك فى ظلمها ان يوجدوا لهم مكانة فى مساعدة اليمنيين وذلك بالوقوف تحت اسوار عدن حتى نهاية الحرب ، يشاغلون بذلك عشرات الآلاف من القوات الانجليزية ، وذكرى هذا القصف البشع لم تمحى من ذاكرة السكان حتى لان .

لم تكن هناك ضرورة استراتيجية للقصف ، وكان عملا سخيفا سياسيا ، وقاسيا بشكل غير انسانى ، لكنها كانت تلك الحرب التى قتل فيها فى شمال العالم عشرات الملايين من الناس .

غير ان الحرب قد هدأت الان ، ولاح حلول السلم ، على انقراض الامبراطورية العثمانية ، واصبح اليمن مستقلا ، وبدأ الحفر بالمخافر تطرق فى الطرق فى الجبال ، وبدأت البواخر تنفث دخانها فى الميناء ، ويدوى صفير السيارة الوحيدة فى الصحارى والجبال ، بدأت الاعمال فى حقل الزراعة والصناعات اليدوية الصغيرة والمواصلات ، وبدأت تتشكل شبه دولة فى البحر الهائج من القبائل المتاحرة .

وها هي الآن ، وبينما تتبطن أوروبا بالهراء حول نزع السلاح والسلام الابدي وما شابه ذلك ، تمتلئ هضاب اليمن بدوى انفجارات القنابل من جديد تشتعل القرى ، وتهدم جدران البيوت ، ومن جديد تسيل دماء العشرات والمئات من السكان المسلمين من الشيوخ والنساء والاطفال .

والميز انه هذه المرة لم يأت العدو من البحر ، حيث لم يرغب بعرض شناعته بشكل واضح امام العالم الخارجي ، واذا قدم من اليابسه فقوته لا تكفى ، لهذا فضل التحليق فى السماء ورمى الاف القنابل على مدن وقرى اليمن الآمنة .

اما سبب الغارات ؟ فقد اشرنا اليها ، نزاع حول بعض المناطق الحدودية ، التى يعتبرها الانجليز منطقة نفوذهم اليمنيين بالخروج منها ، وبدلا من الحادثات لجأ الانجليز الى اسلوب اكثر بساطة - الى القنابل .

هل كانت صدفة ام لا ، ان يكون النصف من القنابل المرمية لم يتفجر ، وبعضها تفجر بعد وقت بعيد اثناء التعامل غير الحذر معها ، ظل غير واضح لماذا رمى الانجليز بقنابل فاسدة ، ألم يكن هذا رمز لفشل القصف ، مثلما كانت محاولات الانجليز فاشلة ايضا فى اقامة انتفاضة داخلية ضد السلطة المركزية عن طريق شراء القبائل فى نفس الوقت ، وعد الكثير من زعماء القبائل بمناصرة الانجليز ، واستلموا منهم نقودا ، لكنهم اشعروا الامام بذلك وبعثوا له بقسم من تلك النقود فى نفس الوقت ، وقد اتضح ان قذائف الذهب التى سقطت على التربة اليمنية هي اقل فعالية من القذائف المعبأه بالبارود ، لقد صمد اليمنيون

افصح العقيد جيکوب فى احد كتبه عن التكتيك الانجليز فى المستعمرات ووضحه بحكمة هندية معناها بالشكل التالى .

اضرب اولاً ثم اهرب .

وكان خطة المغامرين الانجليز هذه المرة ، كما اتضح من مجرى الاحداث بالشكل التالى :
رفعوا فى البداية عدة مطالب الى الحكومة المركزية فى اليمن ، وباغتوها ، بالمذكرات ، والتهديدات والنصائح ، ثم لقاء القنابل على المدن والقرى الآمنة ، وخلق حالة من الذعر ، وايقاف التجارة والمواصلات وشل الحياة الاقتصادية فى البلاد ، وبواسطة التحريض النشط ، المعزز بالهبات المالية ، و " التأثير المعنوى " علي المشايخ ، يثيرون انتفاضة القبائل سواء فى تهامة او فى شمال الشرق من القسم ما وراء الجبال المحاذي للصحراء ، واذا لم تؤدي هذه

الانتفاضة الى تغير حاسم ، فان هذا العمل يمكن ان يقود اليمنيين الى الاستثارة والقيام بصدام مسلح الي حد ان يقوم اليمنيون بالهجوم على عدن ، وهناك يلحق الانجليز هزيمة بهم ، وبهذا يعجلوا في اسقاط تهامة ويعزلوا القسم الجبلى من اليمن عن البحر ثم يعطوا فيما بعد تهامة للدريس حاكم امارة عسير المجاورة الضعيفة والراقصة تحت المزار الانجليزى ، او تنصيب واحد من اتباعهم على تهامة .

كانت الخطة مدروسة بتفصيل بالغ ، وقد بدأت وكائنها غير سيئة التخطيط ، لكنه يجب علينا ان نتذكر المثل القديم القائل اينما يكون الضعف يكمن الفشل وفشلوا ...

وبعد بضع الوقت بدأ كما لو أن الحكومة اليمنية تتأرجح ، كانت تسرب اشاعات عن استعدادها للاستسلام احيانا ، وبالعكس ، عن بدء الحملة اليمنية على عدن واحتلال لحج الواقعة فى منطقة الانجليز غير المتنازع عليها احيانا اخرى .

ثلاث صيغ

كل هذه او تلك كانت اشاعات فقط ، انعكست فيها وجهات النظر المختلفة ، التى تصارعت فيما بينها هذه الايام ، وكانت وجهات النظر هذه (ثلاث تؤدى الى الاتى بشكل رئيسى " واحده من وجهات النظر هذه تقف الى جانب تلبية مطالب الانجليز في كل نقاطها الرئيسية) اخلاء المناطق المتنازع عليها ، الاعتراف بحدن للانجليز الى الابد ، وليس على المبادئ المتفق عليها ، كما كانت في ايام الاتراك ... الخ ، لم تكن هذه الخطة الاستسلامية بوضوح منتشرة ، وقد دافع عنها بعض المشائخ والوجهاء المغضوب عليهم فقط ، وقد اشترشدهوا بالقسم الاكثر جبنا من التجار الكمبرادوريين .

اما وجهة النظر الثانية فقد اضرمت المشاعر المضادة للانجليز ، وقد اصرت على ان يعلن الامام الحرب المقدسة على انجلترا وتحريك القوات على عدن ، وقد بدا كما لو ان هذه هى النفسية السائدة فى الفترة الاولى ، ومن هنا انتشرت اشاعة عن احتلال لحج .

وليس من الصعب ملاحظة عدم ثبات ومغامرة هذا الخط رغم كل صلابته الخارجية المنمقة ، لقد كان واضحا انه رغم كل انضباط ، وتمرن ، وقنوع المقاتلين اليمنيين ، لكنهم مع ذلك ليسوا اقوياء بما فيه الكفاية لغزو منطقة عدن المحصنة حسب كل قواعد التقنية الحديثة ،

ان الاستعداد الدائم للموت ، والقدرة على اصابة الهدف بدقه من مسافة بعيدة (يتقن القبلى استخدام البندقية منذ الطفولة) ، وعنده مقدرة علي الاكتفاء بحفنة من القمح ورغيف من الذرة للغذاء - كل هذا الى جانب المستوى الرفيع من التنظيم الحربي والطبيعة الجبلية للمنطقة تجعل اليمنى بالغ الصلابة فى القتال الدفاعى .

ولهذا فان غزو اليمن اذا تجرأ الانجليز على ذلك ، سوف يكلفهم ثمنا باهظا جدا ، ولتحولت البلاد الى مرجل يغلى ، لكنه من الواضح جدا ان القوات اليمنية الضعيفة تكنيكيا لا تستطيع في تلك الوضعية اخذ عدن بعد اصطدامهم بالانجليز على انفراد .

ظل موقف الحكومة غامضا على امتداد بضعة ايام ، وكانت تصل افواج جديدة من القبائل الى صنعاء يوميا لتعزيز وحدات الجيش النظامى ، كان التدريب العسكرى يجرى ليل نهار ، وكانت اصوات الابواق العسكرية تشق عنان السماء فى عتمة الليل اكثر من مرة ، تستنهض القوات للمناورة .

كان حساب الاعداء بسيطا ، وبدا كما لو انه صائب ، فلو اقدم الامام على التنازلات ، ستزول هيئته الى غير رجعة ، وكذلك السلطة معه ، واذا قرر الحرب وبعث بالقوات الى عدن قانه سيسقط نتيجة للانهيـار العسكرى ، وفى كلا الحالتين سيربح العدو الخارجى الماكر وانصاره فى داخل البلاد .

استمرت جلسات الامام مع الشخصيات الاكثر نفوذا ومع ممثلى القبائل بضعة ايام ، ونتيجة لذلك تكونت صيغة فريدة للعمل تقول :

- لا تنازل لانجلترا ، ولا تنازل عن مطالبنا ، وبقدر الامكان عدم الانجرار للاستفزاز فى نفس الوقت ، لا دخول فى المعركة ، ولا ذهاب الى عدن .

بدأت هذه الصيغة فى المناطق الجبلية العصية اكثر مناسبة لمشاعر البلاد ، فى واقع اليمن الاقطاعى لم تهتز اعصاب اليمنيين تحت عناقيد القنابل الانجليزية ، وانتصرت اليمن فى صراع الاعصاب هذا ، فهم الانجليز ، بان تقجير الوضع الداخلى فى اليمن لن يتأتى لهم ، كما فهموا بان انفجارات قنابل الطيران لن تحل القضية ، فهدأوا ، تاركين الطيور الفولاذية الجارحة فى اعشاش عدن .

الباب الخامس عشر .

*** محاولة فاشلة للاستغزاز الدبلوماسي**

*** الامام يستغيث**

*** النذور والرشوات**

*** انهيار الحسابات الانجليزية والصفحة الامريكية .**

محاولة فاشلة للاستغفار الدبلوماسي

جرى حدث بارز آخر في هذه الايام، فقد وصل من اماره عسير الى صنعاء شخص اسمه جمال، ويحمل لقب باشا، وقد حصل على هذا من قبل ابن مسعود ملك نجد، وقد كان جمال هذا ضابطا تركيا سابقا، وخدم اثناء الحرب العالمية عند أنور، وقد شغل منصب " وزير حرب " ابن سعود ، وشارك في الحملة على جدة والاستيلاء عليها ، وجمال هذا هو واحد من صنف أولئك الاتراك مثل القاضي راغب ، انقطع عن اصله التركي، ورمى بنفسه في البحر الهائج للنزاعات العربية الداخلية ، لكن الفرق بين الاثنين ان القاضي راغب رابط الجأش وناضج سياسيا، في حين ان جمال طائش، متقلب ، يشبه مغامر لا مبدأ له ، مستعد في أي لحظة للركض هناك حيث يجد الفائدة أكبر، في زمن الحرب بين نجد والحجاز قام بمساعدة ملك نجد ونال لقب باشا، من هنا كانت الكنية اللادعة " الباشا ابن السعودي " التي الصقها اليمنيون به، ومع ذلك اختلف بسرعة مع ابن سعود ، وانتقل الى خدمة الادريس، وهناك عزز نفسه عن طريق زواج مريح ، وقد اعتبر نفسه ملك او حاكم هذه الامارة تقريبا ، رجل في منتصف العمر، متبجح ، كثير الكلام ، مغرور، وصل فجأة الى صنعاء في هذه الايام المضطربة.

لماذا ؟

يرد الجواب نفسه، ففسير تقع تحت حماية نجد والحجاز ممثلة بشخص ملكها ابن سعود. وهذه الامارة تحاذي اليمن في نفس الوقت، وسكانها من القبائل اليمنية، واقتصادها يميل الى اقتصاد يميل وضمها يشكل حلما مكنونا للحكومة اليمنية، يتحدث اليمنيون عن ذلك بصراحة، ويؤكدون مع ذلك بانهم لا يريدون طرح هذه القضية للبحث الان، وذلك لان ضم عسير لا يمكن ان يتم بدون نزاع مع ابن سعود الذي يحميها الآن ، وكان من الواضح ان الحرب بين اليمن والحجاز هي لصالح العدو المشترك - انجلترا، وقد لوحظ سابقا ان انجلترا تحاول اثارة النزاع بين الامام يحيى وبين ابن سعود، ففي عامي ١٩٢٥ - ١٩٢٦ عرض المبعوثون الانجليز تقديم الاسلحة لابن سعود على انفراد من اجل الحرب مع اليمن ، كما وعدوا الامام يحيى بالتسليح والمساندة ضد نجد والحجاز ، وقد اكتشفت هذه اللعبة من قبل الملكين ، واصبحت مثالا يمنعها من السماع لمثل هذه الدسائس في المستقبل ، وفهمت حكومتا البلدين بوضوح ، ان النزاعات الداخلية هي لصالح الانجليز فقط ، حيث يكون بمقدور الاخير بهذا الاسلوب احتواء الطرفين ، ومن هنا وجدت النفسية المهادنة في كلا المعسكرين ، فاليمن تعترف بصمت بمصالح

نجد والحجاز فى عسير وتمتتع عن القيام باى مشاكل على الشمال ، وبنفس المستوى ايضا يوجه ابن سعود كل اهتمامه ناحية الحدود الشرقية ، يطمح الى الوصول الى الخليج الفارسى، وقد اوقف التحرك نهائيا الى الجنوب نحو اليمن، وتحرك اليمنيين نحو الجنوب الى عدن، شأنه شأن انجذاب نجد نحو الشرق نحو العراق والكويت، يتوخى اهدافا مشتركة وهى شق الطريق الى شواطىء البحار المفتوحة، والخروج من مصيدة البحر الاحمر الخانقة، كان يعنى هذا توجيه ضربة لانجلترا، واختراق السلسلة المحكمة الترابط للامارات المرتبطة بالانجليز والممتدة على طول السواحل البحرية، لان امراء تلك الامارات يعزلون الدولتين الداخلتين المستقلتين فى شبه جزيرة العرب عن البحر المبتغى والحكم عليها بالخمول فى رمال وصحارى وجبال الاختناق القارى، لقد اكتشفت اللعبة الانجليزية، لكن الانجليز لم يكن بمقدورهم الصمود امام اغراء محاولة اثارة النزاع اليمنى - السعودى فى أكثر اللحظات حدة، وما هو جمال التركى قد وصل الى صنعاء، لم يخف هدفه ذلك - ان يعرض على الامام وضع يده العالية على عسير ، وكأن هذه الامارة قد اصبح دورها ان تكون لعبة ، وانها تريد الدخول طوعا ضمن اليمن شرط الاحتفاظ بجزء من الاستقلالية .

كان الاغراء عظيما، فالقطعة المشتهاة قد انت بنفسها الى يد الامام، وبدا انه لم يبق سوى قول "نعم" ، لكن اليمنيين لم يقولوا "نعم" هذه، لقد فهموا ان وضع يدهم على عسير، يعنى الدخول فى نزاع مع نجد والحجاز، وبهذا يكونوا قد حققوا حسابات الانجليز، ولذلك لم يترددوا ، لم يستقبل الامام يحيى جمال هذا ، وقد مكث بضعة ايام دون جدوى ، وغادر اليمن خالى الوفاض ، واحترقت ورقة الانجليز هذه ايضا .

ومع ذلك ، لا توجد لدينا ادلة مباشرة ، بان جمال كان يحمل بوعى لصالح الانجليز، من المحتمل انه قد قادته اعتبارات مغامرة وهمية ذاتية، غير ان عمله موضوعيا كان يتفق مع مخططات الانجليز، وقد كانت عدن هى المهمة او الموعزة بهذا القدر او ذاك من دون شك، وقد اظهر اليمنيون مستوى رفيعا من الوعي السياسى بسلوكهم فى هذا الحالة، فشوشوا بذلك كل مآرب العدو .

الامام يستغيث

لمسة أخرى ايضا ، تشهد على تلك التطورات ، التى عاشتها اليمن تحت تأثير القنابل الانجليزية، لقد تحاشى الامام حتى الان، اصغر استغاثة مفتوحة بالرأى العام او بالدول

الاجنبية ، حيث هيء له و "لمجالسه" بان خليفة النبي لا يمكن ان تواجه الا الى الله، اما استغاثته بالشعب وخصوصا غير المؤمنين فهو امر اقل من كرامته وعزته، ولهذا فقد قرر القيام بخطوة جذرية للخروج من سكونه المهيب والاستغاثة بالشعب والخارج، حتى ولو كان ذلك بشكل مقالة منمقة.

ظهرت هذه المقالة فى عدد يونيو من صحيفة " الايمان " الصنعائية، وهى صحيفة متواضعة تصدر شهريا فى اربع صفحات، وتحتوى عادة على مناقشات قضايا دينية وبضعة اوامر، وقرارات حكومية، تطبع هذه الصحيفة فى مطبعة صغيرة موروثة من الوالى التركى، وتقع وراء جدران قصر الامام، وهكذا قرر الامام تحت تأثير القنابل الانجليزية ان يجعل من هذه النشرة الرسمية سلاحا للتحريض السياسى، فكلف احد مستشاريه بصياغة ونشر موضوع الغارات الانجليزية، وطرح جوهر الخلاف الانجليزى - اليمنى امام عين " العالم كله " ، وبالنتيجة ظهرت مقالة كبيرة ملأت الاربع صفحات من الحجم الصغير للصحيفة، تحدثت المقالة فى بدايتها فى بدايتها عن آثام انجلترا التاريخية ضد حق الشعوب المسلمة فى مصر وسوريا والعراق وفلسطين والحجاز، ثم شرحت بالتفصيل دور الانجليز فى تاريخ اليمن ابتداء من عام ١٨٣٩ حين احتلت المراكب الانجليزية عدن تحت مبرر " الاستئجار " واصبحت فيما بعد قلعة وواحدة من القواعد الرئيسية على الطريق الى الهند، واقدمت الحكومة العثمانية المترهلة على التنازل معترفة بحق الانجليز " باستئجار " عدن، ومقابل ذلك سلم الانجليز للاتراك باحتلال اليمن، التى كانت تحتج أكثر من مرة قولا وفعلًا ضد الغزو الانجليزى لعدن، وقد تعرضت " حقوق الاستئجار للتمديد فيما بعد، ومع ذلك، لم تعتبر عدن شكليا ارضا انجليزية، وكان الانجليز مستعدون " لـ التنازل " عنها للشريف حسين، الذى اطاح به ابن سعود فيما بعد، لقد اصطدمت محاولات الانجليز بالسيف والذهب لتوسيع نفوذهم خارج منطقة عدن بمقاومة اليمنيين خلال قرن كامل، واصل اليمنيون مقاومتهم، حتى بعد الحرب، عندما سيطرت انجلترا على تسع مقاطعات مجاورة، متكلفة بصرف معونات على مشايخ هذه المقاطعات، ثم تقدم المقالة وصفا للسياسة الانجليزية فى السنوات الاخيرة بالعبارات التالية :

" ... فى نهاية الحرب العالمية، قام الانجليز، باعطاء تهامه للامير الادريس، حيث استغلوا ترك الاتراك لليمن، لكى يبدأ الادريس صراعا ضد الامام، بحيث يمنع قوات الامام من الهجوم على عدن، وقد قتل الانجليز آلاف كثيرة من الجنود اليمنيين فى النزاع بين الادريس والامام، ومثل هذا بالضبط يسعى الانجليز الان لزرع الفتنة بين قبائل اليمن، ويحرضونهم على

الانتفاضة ضد الامام، لكن جميع هذه القبائل ظلت وفية للامام وستبقى محاولات الانجليز دون نتيجة .

وحين رأى الانجليز ان جميع محاولاتهم لم تؤدي الى شىء، اضطروا للاتفاق مع الامام، لكنهم ارادوا عقد اتفاقية تكون مربحة لهم، حاولوا التغفل في اليمن، مثل بقية البلدان بمساعدة سياستهم المخادعة، لكن هذا لم يتأتى لهم .

حينئذ اصبحوا يبعثون ممثليهم الرسميين الى اليمن في الفترة الاخير ؟ من أجل توقيع اتفاقية مع الامام على اساس الاعتراف بالاحتلال الانجليزي لعدن ومحمياتها، رحبنا نحن اليمنيين بهؤلاء المبعوثين وسعينا الى الاتفاق معهم لصالح الطرفين، لكن كانت كل محاولتنا عبثا .

انهم لا يريد من ان يفهموا اننا بشر مثلهم ايضا، فرفضوا اعطائنا ولو شبر واحد من ارضنا، وذلك لاننا لم نحتل هذه الأرض بالشراء ولا بالخداع، كما فعلت ذلك انجلترا بعدن .

نحن اليمانيين، واليمن ملكنا، وسندع انجلترا تفكر بان اليمن وعدن واجب تدخل ضمن الامبراطورية البريطانية، لا ترغب انجلترا في ان تكون هناك دولة عربية مستقلة، ولتحقيق هذا الهدف فهي على استعداد لآبادة كل مسلمي اليمن .

نريد ان يعلم كل العالم المتمدن هذا، ان بريطانيا ارسلت طائراتها الى اليمن بدون مبرر او انذار في الفترة الاخيرة، وقد قصفت هذه الطائرات، البيضاء، الحجرية، الضالع، قعطبة، دمروا القرى والمساكن، حيث كانت النساء والاطفال مجبرة على العيش في الصحراء بدون مأوى، ومثل ذلك قصف الطائرات المساكن حيث يعيش النساء والاطفال في تعز وبريم وذمار ودمت وجبله، كل هذا قام به الانجليز المتحذرون ! وسيفهم العالم كله وحشية الانجليز تجاهنا .

هذا هو النزاع بيننا وبين الانجليز، وليعلم كل العالم الاسلامي، بان انجلترا تريد ان تخضع لسلطانها كل شعوب الارض وان لا يرفض هذا حتى ولا شعب واحد .

سننتظر حكم القدر، ولن نعطي لاحد ولو شبرا واحدا من ارضنا .

لم تبقى هذه الاشارة دون نتيجة، حقيقة ان صوت اليمن لم يصل الى اوربا، او بالاصح وصل متأخراً عندما فقدت الاحداث حداثتها، لكن صدى قنابل الطائرات دوى عاليا في البلدان العربية المجاورة فقد اعادت الصحف القاهرية طبع مقتطفات من المقالة ، وربما وصلت الى

الهند ، وادت نصيبها فى الموجة المتعززة المعادية للامبريالية من قبل شعوب نهر النيل ونهر الكنج ، وخففت حدة النزاع، وبعد شهرين أو ثلاثة اشهر انتهى ظاهريا، واخلا اليمنيون قسما من المناطق المتنازع عليها، وبأت المباحثات الطويلة البطيئة، كانت المباحثات تحت وساطة الامريكيين فى البداية، ثم ظهرت " كل الوجوه المعروفة " على الحلبة : كرفورد، جيكون، وغيرها من "المختصين" باليمن، كانت المباحثات تتوقف، ثم تتجدد، لكنه حتى كتابة هذه السطور، فان المباحثات الانجليزية - اليمنية، وكأنها لم تكن، ان كل حيل المبعوثين الانجليز من عدن، وكل ذهبهم وتهديداتهم قد اصطدمت دائما بدرع لا يخترق من الوطنية اليمنية الناضجة ، واصبح تركيع هذا الشعب ليس بطاقة الانجليز ذلك، عفوا يأتى الى الذهن قول قديم وهو غالباً ما يجد الانجليز فى الشرق خونة ، لكنهم لا يجدون اصدقاء .

اتذكر ان الموظفين المتوسطين العسكريين تباهى قائلاً .

النذور والرشوات

- عرض على جيكون ذات عشر مرة قطع ذهبية، لكى أكون عميلاً له، اخذتها، امر واضح، وبعد بضعة اشهر تقابلنا، ولم اقل له شيئاً، بينما كان يجلس بالقطع الذهبية بشدة، وكأنما يذكرنى بالاتفاق ... دعه يجلس بذهبه .

لقد اشرنا الى ان المشايخ الذين قدم لهم الذهب الانجليزى لم يرفضوه، لقد استلموه كاملاً، لكنهم لم يقوموا بالانتفاضة ضد الامام، بل على العكس، فقد تقاسموا الذهب معه، ان القول القديم المأثور، القائل بان الحمار المحمل كيساً من الذهب بمقدوره تخطى اى حائط، لم يبرر نفسه، فالحيطان الطينية القديمة بصنعاء، ظلت عصية ليس على الحمار فقط، بل وعلى الطائرات الانجليزية ايضا.

نضيف الى ذلك ثلاث مسحات او ثلاثة منها جزءان من تلك الفترة، وجزء من الفترة اللاحقة.

مازال الدخان يتصاعد من انقاض البيوت فى تعز وذمار، لكن الانجليز فهموا اخطاء تقديرهم، فبدأوا بتسوية التربة للمباحثات .

ارسل كرفور الى القاضى راغب من عدن رسالة مع هدية، مصباح كهربائى يدوى، هذا شىء كثير الفائدة فى الليالى المظلمة، حيث لا يرى احد من مسافة خطوتين من الجدار، وهذا

المصباح مفيد للبيت ايضا، ذلك البيت العربى المتعدد الطوابق، بغرفة الكثيرة، واركانه، كانت الهدية مفيدة، لكن القاضى راغب فهمها بشكل مغاير .

- يريد كرفور ان يقول بهذه الهدية : انكم اليمينيون، اناس جهلة، نحن الانجليز نريد تنويركم ... فكر قليلا ثم اضافة :

- او ربما، يلمح الى ان هذا المصباح سيكون نافعا لنا، حين نختبئ فى الاقبية، نطلب النجاة من القنابل الانجليزية .

ولم يكن غريبا، ان يرفض القاضى راغب الاحتفاظ بهذه الهدية التى اثارت كل هذه المشاعر الغاضبة، وان يهديها الى احد خدامين القصر .

ولم يكن من المستبعد، فى ان كرفور قد بعث بالمصباح دون معنى خفى، غير ان ارتياب اليمنى وشكه يجعله يكون مستعدا فى كل خطوة وفى كل اشارة من الاجنبى، وان يرى فيها ان لم تكن مكيدة مباشرة، فانها اساءة او تلميح خفى .

ونيل الثقة فى الشرق ليس سهلا، لقد تنازل جيكوب الشائب كثيرا، لكن مذاق التصنع تحدث عن نفسه، فرحل حاملا كنية " الكلب الأبيض " ومع ذلك لم يكتئب، تظاهر وكأنه يعتبر البصاق مطرا، وبعد ان رحل من اليمن وبعد الغارات نشر فى احدى الصحف الانجليزية مقالات تدين عمل الموظفين الانجليز بعدن ؟ الذين كانوا يتحركون متكئين على انفسهم دون معرفة لندن، ظهرت هذه المعارضة المصطنعة بموافقة كاملة من السلطات الاستعمارية وهيئة المخابرات من دون شك، انهم يسمحون لعمالئهم بكل المناورات، ويستطيع الاخيريون فقط ان يكتسبوا سمعة لانفسهم بانهم " كاصدقاء " تلك الشعوب، والحكومات التى ينبغى ان يخدعوها .

ليس من باب القول الزائد الاشارة هنا الى عدم الثقة الفريدة تلك التى يقابل بها الاجانب فى بلدان الشرق عامة، فتجارب السنين الطويلة المرة قد علمت الناس فى الشرق ان يرتابوا مسبقا بكل اجنبى يفد اليهم، وانه يحمل نوايا مغرضة تجاه بلدهم، وعدم الثقة هذه لاتزول، بل تزداد وكأنها كتلة ثلج، وذلك اذا بدأ الاجنبى يؤكد على نزاهته على الفور توا، تتحول عدم الثقة الى عداء حاد، ما ان يكاد هذا الشخص الذى أكد نزاهته، فى هذه او تلك من المطامح تجاه مقدرات البلاد المادية. وكما يقول المثل التركى، ان الشرق الذى احترق بالبن الحار يبدأ النفخ على الثريد، يعتبرون كل اجنبى مقدما، شبيها بالنصاب .

ومن اجل تصوير اساليب النفاق، التى تعطى نتائجاً عكسية ، يمكن ايراد هذه الحادثة،
وصل الى صنعاء (قبل عام من مجيئنا) امريكى بارز باسم من الحجم العالمى، يحترق من
الرغبة فى كسب الشهرة وحياسة ثقة الامام، اقدم على الاسلوب التالى، يصرح بعد وصوله الى
صنعاء بانه يجب ابلاغ احد الوجهاء اليمنيين بسر عظيم، يدعوه الى غرفته، ويغلق النوافذ
والابواب باحكام، كانه يؤكد من انهم لا يتصنتون، ثم يخرج القرآن من احد جيوبه الداخلية
بمهابة وبهمس خافت يتفوه قائلاً .

هذا الكتاب احملة دائماً معى، فانا مسلم فى داخلى، لكن لا احد يشك فى ذلك، لكم وحدكم
ابوح بهذا السر ...

لايتحتم القول، بان هذا الاسلوب قد اثار شعور التقزز والاحتكار للامريكى هذا، بل
وفاحت حوله رائحة الزيف مباشرة، ولانه لم يدرك ذلك بعد، اقدم على خطوة جديدة، صرح فى
الاستقبال الرسمى امام الامام :

يا صاحب الجلالة، اننى اقدم لكل حكام الشرق نصيحة واحدة، يشكرونى عليها فيما بعد،
اسمحوا لى ان اقدمها لكم ايضا ...

وبعد ان يتلقى السماح، يقول بتأثر وغموض ورزاة :

يا صاحب الجلالة، لانتقوا ابدأ بالأجانب، لا تعطونهم اية التزامات وامتيازات فى بلدكم
...الحيرة غير الواثقة، التى استقبلت بها هذه " النصيحة " تحولت لدى الامام والمقربين منه الى
شعور بالاحتقار البالغ وذلك عندما تقدم هذا الامريكى بنفسه بعد بضعة ايام الى الحكومة
اليمنية بطلب امتياز مريح لاستغلال مناجم الفحم الحجرى، ومنذ ذلك الوقت لا يتذكرونه الا
ببسمة احتقار ساخرة .

إنهيار الحسابات الانجليزية والصفحة الأمريكية

غير اننا لن نخرج عن الموضوع، سنستخلص، نتائج النزاع، الذى كنا شهود عيان عليه،
ينبغى ان تثبت ما يلى : فى هذا الجزء الصغير لكنه الهام فى الجبهة الاستعمارية، منيت
انجلترا بالافلاس، ذلك ان حساباتها الرئيسية - قهر اليمن وتركيعه - قد منيت بالفشل، لقد
خرج اليمنيون من النزاع معمدا سياسيا، صلبا ومليناً بالحقد على الامبريالية، واستسلم اتباع

الانجليز أو محقوا، وبالنتيجة تعزز الوضع الداخلى للحكومة، وتعادل هذه المنجزات بضع تلك الامارات التى اخلاها اليمينيون تحت ضغط قوات العدو المسلحة، وإن يتخلى اليمينيون عن حقوقهم ولا حتى الحقوق الشكلية عن عدن، التى تصادف الذكرى المئوية لا حتلها من قبل الانجليز بضعة ايام (*) .

لم يتأتى تمزيق عقدة القضية اليمنية بواسطة السلاح من قبل الامبريالية، البريطانيين ولهذا تحتم على الاسد المتعجرف ان ينهى زئيره والتلويح بذيله من جديد على امل استدراج الجار الصغير العصى بهذه الطريقة او تلك.

لم يتأتى ذلك حتى الان، لكن الميزة ان هذه النهاية المخزية لهذا الصراع بالنسبة لا نجلترا قد ابرز الخلاف بين انجلترا والولايات المتحدة حتى فى هذه البقعة النائية، اذ بعد ان وصل القنصل الامريكى لود بربرك من عدن مسرعا اخذ على عاتقه مهمة الوساطة فى تسوية النزاع، وبعد ان مكث بعض الوقت فى صنعاء، " يدرس القضية فى موقعها " كما يقال، غادرها واعدا اليمينيين باتخاذ كل الاجراءات لمنع الغارات اللاحقة، وليس معروفا ما عمل فى هذه الاتجاه، لكن المعروف فقط، انه بعد وصوله الى الحديدية فى طريق العودة ارسل برقية الى حكومته فى واشنطن، ارسل هذه البرقية " برموز واضحة، وليس على نمط الشيفرة المشوشة للرسائل الدبلوماسية العادية " وقد بلغ حسب استنتاجه، بان اليمينين سلوكوا سلوكا لا لوم فيه مطلقا من وجهة نظر القانون الدولى، وان الغارات الانجليزية لم تكن تستدعيها ضرورة موضوعية اطلاقا . ولكى يؤكد ادانته للغارات وجه نسخة من هذه الرسائل الدبلوماسية الى حاكم عدن، الملهم المباشر لهذه الغارات .

وهكذا وجهت صفقة للامبريالية الانجليزية من العم الامريكى امام اعين اليمينيين، لم يتبع الجواب على هذه الصفقة، والمعروف فقط، انه منذ ذلك الحين هدا الاسد البريطانى، ومن جديد يحاول بدون زمجرة او زئير استعادة المواقع المفقودة على طريق الهدير والهبات الرخيصة .

(*) - يرجع المؤلف احتلال عدن من قبل الانجليز الى عام ١٨٢٠ ولهذا فانه يشير الى الذكرى المئوية

للاحتلال بعد بضعة ايام، حيث كتب هذا الكتاب فى عام ١٩٢٠، بينما فى الواقع كان احتلال

الانجليز لعدن عام ١٨٢٩

لكن كان ذلك متأخراً، فالقنابل التي رُمى بها العدو وعشرات البيوت التي دمرت، قد مزقت
آخر الأوهام التي كانت ما تزال تعشعش في أذهان الطبقات الحاكمة في اليمن، بالنسبة لخطط
التعايش السلمي مع المردة الأمبرياليين، الذين يحاولون وضع مخالبتهم على الشعب الجبلي
العصى .

الباب السادس عشر

- * الأيام الأخيرة في صنعاء**
- * أحجار على الطحلب ونساء حجرية**
- * اليهود**
- * رحلة خطيرة .**

الأيام الأخيرة فى صنعاء

انتهت الغارات، وانتهى انتظارها المتوتر، تنتعش البيوت التى فرغت شيئاً فشيئاً وتغلى حياة السوق، وتمتلئ الشوارع والازقة بالضجيج المعتاد والغواء .

وتنتهى مدة اقامتنا فى صنعاء قبل سفرنا بمدة قصيرة، ينقلونا الى منزل اكثر ثراء، كدليل على الاهتمام الخاص، حديقة واسعة مزهرة، حوض مع النافورة، امام البيت مباشرة، تسمح رنات البئر الايقاعية امام النوافذ، خطوات الجمل الرالرتيه، وصخب الماء المسائل المنتظم، الذى يتدفق بانتظام عبر القنوات، التى تملأ الحوض وزوايا الاشجار .

غير انه لا يوجد وقت لدى الامام لا ستنشاق اريج الازهار والتطلع الى ظلال الشمس فى مرآة الحوض والارتياح تحت اوراق الشجر الظليلة، يأتى لزيارتنا تجار عرب، ويهود، وفرس يحملون رسائل توصيات من شخصيات ذات نفوذ، موضوع الاحاديث السكر، الكروسين، الدقيق، الاقمشة، البن اليمنى، حازت بضائعنا على رضى المستهلك اليمنى، وذلك لانها النقيض المباشر للبضائع الرديئة المعتادة، التى يصرفها الامبرياليون فى اسواق المستعمرات، وكانت الشكوى الوحيدة فقط هى قلة البضائع، وكان المفترض ان تكون البضائع اكثر بكثير، ولتدخل بواخر سوفيتية اكثر الى موانئ اليمن، كان الامبرياليون ومايزالون يلغون عمداً، وبخسارة فى الغالب الصفقات قرب الموانئ اليمنية بهدف الحاق مصاعب اقتصادية اكبر لهذا الشعب الابى.

نعلم انه من المستبعد تلبية كل توقعات وتقديرات اليمنيين، كما نعلم ان بواخرنا قليلة، وان هناك نقص فى البضائع، وما نزال لا نعرف الى اى ستزيد بضاعتنا، نحن لم نتكيف بعد مع فكرة انه بينما نحن نقوم بالمباحثات فى صنعاء البعيدة فان وراء جدران الكرملين والمكاتب المتعددة الطوابق للمجلس الاقتصادى الوطنى وهيئة التخطيط الحكومية تنشأ وتصاغ قوالب الخطة الخمسية، التى تستقدم بالكامل جميع ما هو ضرورى لتلبية احتياجات هذا البلد الصغير فقط، بل لم نعلم بعد، بانه فى احواض سفن سفستوبل، نيكاريفسك والبطلينج تجهز هياكل عشرات السفن الجديدة، التى سيتمخز قريباً كل البحار والمحيطات

لم نعرف بانه قد حددت الخطط الجبارة لجعل الزراعة تعاونية، وهذا سيغضى احتياجاتنا من القمح ونقله الى هذا البلد، لم نعرف بعد ان الخطة الخمسية، التى يشك اليمين الانتهازى بضراوة بامكانية تحقيقها، وتنفيذها فى بحر خمسة اعوام، بل وفى اربعة، وفى مجموعة من

القطاعات، التي يعتمد على تمويلها هذا البلد (الكروسين) فى ثلاثة اعوام، وفى عاميين ونصف، وما يزال يرز فى الآذان نعيق الاعداء الخبيث ودمدمة قليلى الثقة " الى اين تزحفون، ابقوا فى البيت " ، " عسى ان لا يحصل شئ " ...

اما الان ، وبعد ان انتظرت هذه السطور دورها فى المطبعة لتخرج الى النور، مرت اعوام، فقد اثبتت بالكامل اكثر التقديرات جرأة وتحطمت كل الشكوك اللجوجة، فقد ارسلت البضائع الى اليمن (وايس الى اليمن فقط) وتضاعف سيلها كل عام، تقوم البواخر السوفيتية برحلات منتظمة عبر البحر الاحمر والمحيط الهندي حتى الى اقصى زوايا الخليج الفارسي، وحتى مشارف انهار الرافدين العظيمة ... لكننا حين كنا معزولين عن الارض السوفيتية، شعرنا اكثر من مرة بشعور القلق المرعب - هل نستطيع تلبية التوقعات المتواضعة لهذا البلد، الذى رأى لأول مرة فى اشخاصنا قطعة صغيرة من الاتحاد السوفيتى .

وعلى كل حال، نستطيع التحدث عن هذا " البلد " نسبيا فقط، كان الاقتراب من الشعب صعبا، فمنازلنا، شأنه شأن منازل كل الاجانب فى اليمن، يحرس بيقظة من قبل حراس مناوبين، ويتعرض كل قادم لتحر " دقيق، وتجرى النزعات فى المدينة بمرافقة الخدم ايضا، الذين بدونهم يمكن ان يتهددنا سوء من قبل المتعصبين، او هكذا افهمونا على اقل تقدير، ولايسمح بدخول منزلنا، ما عدا الوجهاء الا " الخدم الامام "، والتجار الذين بايديهم توصيات من السلطات للمباحثات فى الصفقات التجارية، او لبعض التجار (من اليهود فى الغالب) الذين يحملون لنا الحلى المحلية، التى تشريها من صنعاء للذكرى .

أحجار على الطحلب ونساء حجرية

ومن بين سقط المتاع المتعدد، الذى يتسابق عليه الاجانب الذين يزرون اليمن لأقتنائه يأتى فى المقام الاول - كل انواع الاحجار الملونه، التى من المفترض انها ترمز الى الثروات الموجودة فى باطن ارض اليمن، وان كانت فى حقيقة الامر ليست سوى قطع مضلعة لامعة، ذات الوان نبيه داكنة، برتقالية، وزرقاء فاتحة، كما يوجد بينها الوان فاتحة مبهمه، واحجار شفافة يرتسم تحت سطحها اللامع شئ ما يشبه اغصان الطحلب، وكانما هذه القطعة الطحلبية تمت عضويا فى سطح الحجر اللامع، الذى صقلته يد حجرية، تبدو لى هذه الاحجار رمزا لليمن، البلد الذى صقلته موجات الاعصار العالمى، والقذائف الانجليزية، محتفظا مع ذلك ببقايا واضحة من القديم المتجذر بقوة .

هناك ايضا شىء اخر، التماثيل الحجرية القديمة، هى تماثيل تصور ما يشبه تماثيل النساء الحجرية المتناثرة فى جنوب الاتحاد السوفيتى، ينتصب احد تلك التماثيل حتى الان على طاولتين، يحملق بثبات الى بعيد بعيون وحشية بائسة، هذا التمثال النسائى منحوت من قطعة حجرية واحدة بلون البشرة مبقعة بعروق مائلة للأحمرار، وهذه المرأة جالسة القرفصاء تضغط بقبضتها وازمة شفيتها، تبرز حديتان صغيرتان بدلا من التهدين فى الاسفل على دعامة الملتحمة بالتمثال، وكتابة مبهمه منقوشة، شيئا ما يشبه حرفى " X " و " Q " بالروسية، بالاضافة الى الشكلين او ثلاثة اشكال هندسية غير متناسقة، ان هذه التماثيل تصور الالهة الحميرية القديمة، صنعت قبل آلاف السنين، انها بقايا التاريخ القديم، التى سلمت فى كهوف صعبة الوصول اليها حتى على اليمنيين من مأرب، حيث تصل من هناك الى صنعاء لإعادة بيعها على التجار الواصلين من الخارج، لا اعلم هل تماثل هذا أصيل ام لا، اذ من المعروف ان تقليد او تصنيع الآثار القديمة المزيفة مثل التماثيل، النقود الأوانى، الادوات التى يزعم انها من بقايا الحميريين القدماء، قد شغلت مكانا قويا فى عدد من المجالات المربحة فى اليمن، تؤكد الا لسنة الخبيثة ان مئات الحرفيين من يهود صنعاء يعيشون على الدخل من تصنيع مثل هذه الاشياء المزيفة

غير ان التمثال الذى املكه، حتى ولو كان مزيفاً، فانه يعطى تصورا عن الاصل بدون شك، وينبه الى انه قد كان فى الأماكن الصعبة المزال فى اليمن، ويختفى حتى على العلماء الاوربيين الكثير من المادة التاريخية الاصلية التى لم تكتشف بعد، والتى بإمكانها القاء الضوء الساطع على العصر الضارب فى القدم .

اليهود

وبالمناسبة وما يتعلق باليهود فى صنعاء فقد وجدنا انفسنا حرفياً عند منابع معاداة السامية، نقول عند منابع، لان العلاقات بين السكان اليهود والمسلمين قد احتفظت باللامح القديمة للعهد القديم، هذه العلاقات التى لم تمر على ضوء الفوارق القومية او الفتوحات او الاخضاع او تحطيم الانماط الاقتصادية، فیهود وعرب صنعاء هما فئتان من شعب واحد، يتحدثون لغة عربية واحدة اكثر قرب من لغة القرآن الفصحية، يتشابهون بالشكل الخارجى، يختلف اليهودى اليمنى كثيرا عن مثيله الاوربى، فهو مثل العربى بنفس الملامح، ملامحة حادة مستقيمة، جبهة واسعة مثل العربى، ولا يوجد اثر لتلك العلامات، كالأنف المقوس،

تفاحة آدم البارزة، التي من المعتاد تصوير هيئته بها في أوروبا، ولو خلعت الثياب من العربى المسلم واليهودى لشوهد اتاس من عرق واحد بشكل مطلق، لا يختلف بعضهم عن بعض فى شىء، وصولا الى اقل اجزاء الجسم صفرا، خصلة من الشعر الاجعد على الصدغ فقط تمتد حتى الكفين، او ربما نظرة الجزع العميقة، تعطى امكانية اختلاف اليهودى عن العربى وما عدا ذلك فلا وجود للفارق بينهما .

كل اليمنيين الذين تمكنا من التحدث معهم يؤكدون بان اليهود والعرب هم شعب ليس من الجنس السامى الواحد فقط، وانما يمثلون قومية واحدة متكاملة عموما، وانه لا يوجد اى فرق بينهما، لن آخذ على عاتقى تأكيد هذا الراى كاملا، لكنى اعرف انه اسهل بكثير، تميز الكورى عن اليابانى، من تميز اليهودى الصنعانى عن المسلم، خصلة الشعر والثياب فقط هما بالذات يوضحان هذا الفرق

لا يحمل اليهودى خنجرا، فهذا محرم عليه، ولا توجد عمامة على رأسه، وانما قبعة صغيرة مشدودة على غرار تلك التى يلبسها الاوزبيك عندنا، يلبس اليهودى ثيابا بيضاء وعباءة غامقة من الاعلى، ويسرن النساء بوجوه مكشوفة، وعلى الراس خمار بحواش بيضاء فضية مزركشة بالدنتيلا والمعينات، هذا اللباس بعيد الشبه عن رداء النساء المسلمات الواسع، والذى يغطى هيكل المرأة من الراس حتى القدم ويغطى الوجه باحكام، ويحجب شكلها، اما الفتحتان فى مكان العينين فتعطى المرأة العربية هيئة غول يجرى من الاساطير القديمة .

وقد يسأل المرء البسيط ، لماذا تلفظ كلمة " يهودى " من فم المسلم بذلك الاحتقار ؟ لماذا يعيش اليهود فى حى قاع اليهود الخاص الموجود على مشارف المدينة ؟ ولماذا لا يملكون الحق فى حمل السلاح ، الاشتغال فى الزراعة ، والعمل فى الوظائف الحكومية ويحرمون من كل الحقوق السياسية ؟، " تكرر " ان اليهود هنا فى صنعاء وكذلك فى بقية المدن لا يختلفون عن العرب لا باللغة ، ولا بالقومية، وتوضيح كل شىء بناء على الفوراق القومية، كما يفصل المعادون للسامية فى أوروبا، امر مضحك هنا، ولا يلعب هنا ايضا دور " صلب المسيح " المزعومة، ذلك لان المسلمين لا يكثرثون بهذه الحكاية اطلاقاً فى افضل الحالات، اما ما يتعلق بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، فانه لا ينبغى غض النظر عن النزاعات الضارية بين المسلمين واليهود فى عهد دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، لقد وجه الرسول جل نشاطه التحريضى ضد الوثنيين بالدرجة الاولى، ثم ضد اليهود بالدرجة الثانية، وضد المسيحيين بالدرجة الثالثة، وقد كان يقترب منهم احيانا، لكن ذلك كان تكتيكاً سياسياً، وعلى

العموم، اخذ الاسلام كاملا من يهودية العهد القديم (*) ومجموعة من الطقوس والعادات (الختان تحريم اكل الخنزير وغير ذلك)، التي توجد تعليلاتها جزئيا في الخصائص المناخية والمعيشية في شبه جزيرة العرب، يوجد الاختلاف حقا، بنوع المهنة ؟ فاليهود لا يمارسون الزراعة، واغلبهم حرفيون وتجار صغار، واكثرهم يسر الصيارفة، والمرابون والوسطاء بين الشركات الاجنبية والسوق الداخلية، قسم من هذه الاعمال (الصفقات المالية) يستتكفها المسلمون ولا ينصح بها اتباع الرسول (مثل الرباء والعمليات المالية عموما) وتجعل علاقات اليهود مع الشركات الاجنبية في صلات متناقضة مع زملائهم العرب الذين ابعدوا عن السوق الخارجى، وهذا يثير حسد الآخرين، كما تعتبر تجارة بعض البضائع (الخضار مثلا) عملا مهنياً، ليس لليهود فقط ، بل وحتى من يمارسها من المسلمين حيث ينتمى تجار هذه الطائفة من البضائع الى السكان المحرومين من الحقوق (مثل الجزائريين واللباغين وغيرهم)، وهنا اذكر مصادفة غريبة، يعتبر الاشتغال بالقطاعات المرتبطة بذبج الماشية (الجزاره الدباغة، وما شابه ذلك) حتى فى اليابان البعيدة من نصيب طائفة سوى خيه سيا، التي محرمة من الحقوق الى وقت قريب ومحتقرة حتى الان، تخلق تجارة الخضار تناقضا بين اصحاب الحوانيت اليهود وبين الفلاحين، ويصطدم التجار الاغنياء اليهود الذين يقومون بالعمليات المالية والتجارية بالاقطاعيين المسلمين، ويصحب هذا الصدام التطاحنات المميزة بصدامات القرون الوسطى الغابرة وذلك حين يقع الفريسان الفقراء (والنبلاء) تحت التبعية المالية للصيارفة ومحتكرى الخامات الزراعية اليهود، كما يمكن ان يوجد سبب التعليل المشهور للتناحر، الذى يكتنه الاقطاعيون والتجار المسلمون لليهود، حين يرون قسما من الارباح يذهب الى ايدي الوسطاء اليهود، غير ان التوقف عند هذا التعليل امر غير صحيح، فمن الواضح ان السكان اليهود يتعاملون بهذه الاشغال " المحتقرة " المشار اليها (والتي لا يستتكفها المسلمون فى الفرصة الملائمة) وهذا يحدث بفعل الطرق التى تؤدى الى القيام بالاعمال الاخرى الزراعة، (الرعى، الخدمة العسكرية والحكومية) محجوزة ولا نصيب فيها للسكان اليهود، وبالتالي فان التناقض الاقتصادي الذى ينشأ بين الفئات المعروفة من اليهود والمسلمين، ليس سببا، وانما هو

(*) - تكاد تكون وجهة النظر هذه سائدة في الاستشراق الاوربي، بينما الواقع بخلاف ذلك، ان

الاسلام لم يؤخذ من يهودية العهد القديم وانما اتى كديانة جديدة، علي ان بعض التشابه في بعض المناسك الدينية او الروايات التاريخية التي وردت في الكتب المقدسة لا تعني الاخذ بالكامل باي ديانة سابقة . - (المترجمان) .

بالأحرى نتيجة لهضم الحقوق السياسية والمعيشية لليهود .

لا داعى للأسهاب، بان الطبقات الحاكمة تؤجج التناحرات بين السكان المسلمين واليهود، وتتبع بعمد سياسة اضطهاد اليهود، موجهة بذلك حقد الجماهير الشعبية باتجاه اتباع الديانة اليهودية، وهذا لا يمنع بالطبع الوجهاء العرب ، من اقامة علاقات حميمة فى الخفاء مع الاثرياء والمرايين اليهود، وان يلجأون لهم " للمساندة " فى اللحظة الحرجة .

واذا تحدثنا عن وضع الفئة العليا من اليهود عموما، فان التحسر والتأسف على نصيبها، الذى يقوله ويفعله نقافا الصهاينة لا حاجة له، حيث لا يتعرض التجار اليهود والمسلمون لا بتزازات كثيرة فى الاموال، وان كان اليهود يضطروا لا عطاء رشوات اكثر للشرطة والموظفين، اذا قارناهم بالتجار المسلمين، لكن الفرق هذا ليس كبير الى ذلك الحد؛ لقد اعفى اليهود من العشر ومن الخدمة العسكرية، اما الحقوق السياسية فى اليمن ذات الحكم المطلق فهى عموما امر قليل الاهمية، حتى العرب، فان المشايخ وكبار التجار فقط هم الذين يستخدمون هذه الحقوق عمليا، ولهذا فان ثقل عدم المساواة السياسية والمعيشية على الاخص تقع بالكامل على عاتق فقراء اليهود وجموع صغار التجار والحرفيين الذى شدد الضغط عليهم كاملا بين قبضتى العسف الادارى - البوليس فى ظل العداء بين السكان، الذى يثار اصطناعيا .

متى، وفى عصر ولماذا طردت فئة كاملة من السكان من قومية واحدة تقريبا الى جبتو "مغلق" (حى اليهود) ، وتعرضت للهضم فى الحقوق والاشتغال بمجالات العمل، التى تعتبر اكثرها مهانة ؟ تتطلب الاجابة على هذا السؤال اعواما من البحث التاريخى الدقيق .

لكنك اذا تجولت بين جدران بيوت حى اليهود البيضاء الناصعة، وتطلعت الى البيوت بأفنيته المرصوفة، وخرجت الى الشرفات البيضاء المجددة بالبلاط الشجرى، ترى وكأن عصر الانجيل قد انتعش، تاخذك الرغبة فى نسيان تلك الموجة من التناحر الوحشى، الذى بحكم منطق الاضطهاد الطبقي يسم حياة عشرات الآلاف من الناس .

تبدأ ترسم صورة، للماضى البعيد قبل اكثر من الف سنة، للحركة المحتشدة الجبارة، التى شملت كل البلدان العربية والمجاورة تحت راية النبی محمد صلى الله عليه وسلم ودينه، لقد اثارت حدة الصراع الطبقي وادت الى تطورات اقتصادية جذرية، والى تغير شامل للتركيب الاجتماعى لتلك الشعوب، لن نخرج عن الموضوع، نتعمق فى تحليل القوى الاجتماعية لهذه الحركة، بيد انه من الصعب الابتعاد عن الانطباع بانه نتيجة لانتصار فئات معينة على اخرى، اصبح المغلوبون فى اسفل السلم الاجتماعى، فلم يحصلوا على نصيب فى حقوقهم السياسية

التي هضمت، وحرموا من الوصول الى صف المجالات الاقتصادية، ونتج عن ذلك حرمانهم من نوع خاص لذلك العصر، فنبذوا في احياء خاصة وتحجروا في حياة قديمة .

ومضت الاعوام والقرون في سبيلها، زالت انماط اجتماعية، وتغيرت العلاقات، والطبقات التي لعبت دورا تقدميا بدأت تنتكس تاركة المكان لطبقات اخرى، والدين الاسلامي الذي كان راية للتجارة في البداية وللبرجوازية البدائية والاثرياء من البدو، الذين اندفعوا الى البحر الى الاسواق الخارجية والفتوحات، صار سلاحا بيد طغمة من الاقطاعيين الصغاه، الملوك العرب، ومن ثم السلاطين الاتراك، ونفذت قوة الاسلام التحريضية، واخرج العرب من اسبانيا وفارس وتركيا، واندحر الاتراك فيما بعد من فينا واوروبا، وحسم مصير الطبقات التي اعلنت الاسلام واعتلت موجته ليس في صحارى الحجاز ولا في جبال اليمن فقط، بل وعلى نهر الدنوب وجفاد لكفير، وبقيت جزيرة العرب التي اعطت الدفعة لهذا الزلزال العظيم جانبا، وبقيت اليمن بعيدة كل البعد، اكثر المناطق عزلة في شبه جزيرة العرب، حتى الموجات الاولى للحركة الاسلامية وصلت الى هنا على شكل رشاش متناقض متلاشي، توقف اليمن بدون حراك بعد اولى تطورات العهد الاسلامي المبكر .

وفي العاصمة الجبلية المغلقة، كما في الكهوف الوهمية لا طلنطيدا، بقيت سلالة تلك الطبقات التي خسرت في الماضي البعيد المعركة على السلطة، وظلت معزولة، معزولة السلاح تحت رحمة المنتصرين الجبابرة في غابر الزمان، الذين انهكوا وافقروا الان .

لقد حكمت عزلة القرون عن العالم المحيط على المغلوبين بدائرة من المهن شديدة الضيق، واعطتهم مجموعة من الخصائص المعيشية الخاصة، فتكونت تلك الحافة، التي تستطيع انهاؤها بالكامل شعلة الثورة الاشتراكية فقط، والتي ستحول كل التناقضات الزهيدة الى رماة، تلك التناقضات المتراكمة، التي ستذهب بجذورها في اعماق آلاف السنين.

وفي مثل كل صراع عظيم يترافق معه، تشتت الشعوب المغلوبة والقبائل ، والطبقات والفئات في جميع انحاء العالم، تشتت على وجه الارض بقايا القبائل السامية المهزومة في هذا الصراع وفي معارك قديمة اكثر، من اسبانيا وحتى الصين، وبقت فقط اعشاش صغيرة في " فلسطين واليمن لم تستطع الابتعاد عن المنتصرين، وحتى الان يجب عليهم اختراق طوق حرمان الحقوق ، يستخدمون في ذلك العلاقات الواسعة مع يهود البلدان الاخرى، الذين احتفظوا بنمط سلوكهم الديني والمعيشي كامتياز وحيد، كما احتفظوا بالشعور الديني والوحدة في ظل اكثر اغتراب في شعوب ليست اقل عداء لهم واذا كانت قد انمحت اللحظات القومية والدينية (رغم

انها بعيدة عن الانتهاء) فى بوتقة الرأساليه، تاركة محلها للتناحر الضارى بين طبقات جديدة لم يعرفها الماضى، فانها هنا فى ظل نفسية العصور القديمة الثابتة المتجمدة، قد حافظت على التناحر القديم، الذى بقى بشكله البدائى، عاكسا للتناقضات الاجتماعية القديمة - المدهشة بعبثيتها المرعبة تحت ضوء الشمس التاريخى الجديدة.

علينا ان نشير الى ان هذا ليس تحليلا عمليا، ربما يجد علماء التاريخ والانتوجرافيا جملة من الاعتراضات والتصحيحات لكل ما قلناه اعلاه، لن اجادل واعترف مسبقا بكل الاخطاء والهفوات، لكن هكذا كانت الحالة التى تولدت عند رؤية فئتين متشابهتين اطلاقا والتى وضعت قوة الشنوذ التاريخى بينهم حاجزا صارما يصعب تجاوزه.

اما استنتاجنا العلمى فقد كان بالشكل التالى : اذا اردتم تجنب مكروه خير لازم، فلا تكثر من زيارة حى اليهود، نعرف ان سمعة جيکوب قد ساءت كثيرا فى اعين اليمينيين، نتيجة لسوء استغلاله للنزهات فى قاع اليهود، الى درجة انه اثار الارتياح فيما يتعلق باصله، وبالإضافة الى ذلك، فان اسم جيکوب، اى يعقوب، لم يكن بعيدا من تلك الكنية التى نالها هنا "كلب يهودى" ، والتى اسرع المحرضون الذين لا يكون والخالون من المسؤولية ممثلة باشخاص صبية صنعا يطلوونها على المبعوث البريطانى .

رحلة خطرة

لقد شعر احد رفاقنا الذى ينتمى الى الديانة اليهودية بالسوء فى نفسه، شأنه شأن خمسة آلاف من افراد ديانته المضطهدين فى صنعا، لا تحرر الاستثمارات فى اليمن، ولم يكن يطمح بالطبع الاعلان عن انتمائه اليهودى، لكنه بدلا من ذلك تحتم عليه الانصات بصبر (وكان اكمالا للمصيبة يفهم ويتكلم اللغة العربية)، وكان محدثوه العرب، لا يرون سببا للتحفظ امامه، ولو لم يكن العرب انفسهم ساميين لقات " عن نفسيتهم المعادية للسامية " وقد كان المشهد التالى طريفا على وجه الخصوص : بينما كان رفيقنا ممتطيا بغلا الى الحديدة، وظل البغل يصرخ بدون توقف يطلق على البغل المنهك عبارة " يهودى ابن يهودى " وهى بالإضافة الى النبرات وتعابير الوجه، التى تبدو واكثر حدة بكثير، ورغم ان هذه العبارة كانت موجهة الى البغل بالكامل، الا ان رفيقنا وبعد ساعات من الطريق لم يستطع ان يصبر، فحاول الايحاء للسائق بان يقول صيغة اخرى ومن اجل ان يفرغ ما بقلبه للتفريغ عن مشاعره، سأل السائق .

لماذا تسمى البغل طوال الوقت يهوديا سمييه مسيحيا حتى ولو مرة واحدة ...

- لا أستطيع، -اجاب السائق بشهامة - فاني سأسىء اليك انت المسيحى .

ويحكم هذه المعاملة اللطيفة الاقل مناسبة، وجب على رفيقنا الاستماع الى الشتم الذى لا ينتهى المعادى لليهودية، الموجه الى البغل البارد المزاح خلال ثلاثة ايام يلياليها فى الطريق.

ولكى يكون المرء عادلا، تجب الاشارة الى ان السلطات اليمنية، لم تظهر خلال الاحاديث معنا والعلاقة بنا اى شىء معادى لليهود، وقد حظى رفيقنا الذى ينتمى لليهودية بعلاقات لطيفة وحذرة من قبل الشخصيات الرسمية، مثله مثل الآخرين، كما تجب الاشارة الى انه كان امام السلطات معروفا بانتمائه اليهودى تجنبنا لسوء الفهم والاستفزاز لم نجعل من قضية ديانتته سرا كما كان الحال لكل واحد منا، ولم نتأسف ولو حتى مرة واحدة على مثل هذه الصراحة.

دفع الدين جميل، لقد حذرنا اصدقائنا الرسميون (املك اساسا للقول بانهم كانوا اصدقاء ليس بحكم الخدمة فقط) اكثر من مرة عن تلك " الخطوات الخاطئة " من قبلنا، والتي يمكن ان تسيء لنا، وتغذى تحذير الرجعيين وملهميهم من الاجانب .

لم ينم الاخرون، لقد تابعوا بيقظه كل خطوة من خطواتنا، يسعون لاستغلال كل صغيرة لاغراضهم، وقد بقت فى الذاكرة ...

فى ساعات ما قبل المساء، حين تنتعش الافنية الخالية جزئيا، والحدائق المجاورة للبيوت نرى فيها اشباح العائدين من العمل او الخدمة، كنا نحب التطلع ولو لوقت قصير بمساعدة عدسة المنظار، حيث كنا نلاحظ فى الحدائق البعيدة، ايماءات رؤوس المواطنين المتناثرين باهتمام، لكن احيانا ...

ذات مرة وقبيل المساء اقبل القاضى راغب قلعا، وبحق الصداقة القديمة اخبرنا عن الخطر الذى يتهدد احد رفاقنا الذى تجاوز حدود هذه الشغلة، اخبرنا بان احد الضباط القدامى غاضب لان عيون الاجنبى تتغلغل فى فناء داره، وتتنظر الى نساءه واطفاله (والزوجات على الاخص)، وان غضب الله سينزل على رؤوس الكافرين، لقد ركض الى البيت لآخذ البندقية، يقصد اصابة عدسة المنظار الغادرة برصاصة صائبة مباشرة.

ومن حسن الحظ، انه بينما كان يركض من اجل البندقية ادرك رفيقنا لان ينهى " الاستعراض المسائى " وان نزل من السقف، امكن تلافى المأساة، لكننا نصحنا بان نكون حذرين فى المستقبل، وذلك ان العناصر المحافظة ترغب فى استغلال مثل هذه الحوادث لفتح معركة مع الحكومة واقناعها بضرورة طردنا من البلاد، لقد حتم علينا هذا ايقاف " الاستعراضات المسائية " .

الباب السابع عشر

* سيمفونية العاصمة "الابدية"

* وتأثر العوالم الاخرى

* طريق العودة

* وحس صحيفة الحائط

* "رائحة الوطن" في اسطنبول

* الفخار الاوديسي .

سيمفونية العاصمة " الابدية "

اعيش اخر الايام بصنعاء، تصلنا برقية من الحديد تخبرنا بان "توبولسك" فى طريق عودتها من البصرة، ينتظر ان تصل فى الايام القليلة الى عدن، والطريق من عدن الى الحديد يوم وليلة فقط ، ويجب الاسراع ، لان تاخر السفينة غير ممكن .

نزور الامام زيارة الوداع ، يستقبلنا الامام هذه المرة فى مخدعه الداخلى، المفروش على النمط العربى وليس النمط الاوربى، يحيط به عشرة - اثنا عشر من ابنائه الجالسين على الوسائد - ارتدى قميصا روسيا من الحرير الموشى، هذا ثوبى الوطنى، لى الحق فى لبسه

بديلا لبدلة الزيارات السخيفة التى لا تطاق فى حر الصيف الاستوائى .

اخلع الحذاء امام مدخل المخدع ، اسلم عليهم، يجلسوننى على الوسائد .

يتحدث الامام عن افضل مشاعره نحو البلد السوفيتى، كما يتحدث عن معرفة كل العالم الاسلامى للمهمة العظيمة للاتحاد السوفيتى، الذى اعطى الحرية عمليا للشعوب المضطهدة ايام القيصريه، كما انه يعرف كذلك المغزى الذى تقدمه الصداقة مع الاتحاد السوفيتى لتركيا، التى تناضل من أجل استقلالها، انشاء الله ستتحقق الغايات الوطنية لليمن ايضا .

لقد شعرت ان هذه الكلمات ليست كلماته فقط، لقد ادركت الشعور اثناء اقامتنا القصيرة فى صنعاء انه اذا كانت الجماهير العريضة من الشعب اليمنى الا القليل عن التغيرات الاجتماعية التى حدثت فى بلادنا، واذا كانت انباء الانكسار العظيم والبناء الاشتراكى قد وصلت الى الجماهير على شكل اصداء غاضمة ونائبة فى افضل الحالات، فان سياسة الاتحاد السوفيتى تجاه الشرق ومساواة الشعوب السوفيتية فى الحقوق، والدعم المعنوى للنضال الوطنى التحررى لتركيا وافغانستان والصين - كل هذا قد تغلغل بقوة فى اذهان جماهير واسعة، وتمنيات الامام الوداعية فى هذه الحالة ، ولهذا فقد كان الوداع الاخير عزيز علينا - عزيزة علامات الاهتمام والعناية، التى رافقت رحلتنا تلك .

اليوم الأخير. احاول ان احفر فى ذكرياتى السوفونية الاساسية غير المعقدة لحياة العاصمة " الابدية " تكررت هذه السوفونية يوما بعد يوم . ومنت ذلك الوقت الذى انتهى فيه خطر الغارات ، لم يعكر صفو وتأثرها المنتظمة سوى الاستعراضات المهيبة للقوات والمرشات فى ايام الجمع، انى اتذكر الحانها الرئيسية .

حين يختفى الصليب الجنوبى وراء اشباح الجبال، تبدأ النجوم تنطفىء، ويعلن صياح الديكة وراء المدينة قبل الجميع عن قدوم النهار، كما هى الحال فى القرية الروسية، تدوى صرخة الحارس الطويلة من مركز الحراسة على جبل نقم، ينتفخ البوق العسكرى معلنا عن الفجر، ومن على الشرفة الرقيقة لمئارة المسجد " المزركشة " بكل الالوان الممكنة للخطوط المستوية والمتكسرة المختلفة الالوان، يبدو شكل المؤذن مثل نقطة مسودة، وصوته يتهدج يعلن عن عظمة الله يدعو الناس الى الصلاة.

من المكواة ومن وراء الشبابيك ونوافذ البيوت تلاحظ الحركة، تفتتح الابواب، تظهر الاشباح المغبرة فى الافنية، يبدأ الناعسون فى ايقاد المواقد وعلى القهوة ، تسمع رغاء الجمال المموه فى حظائر، ونهيق الحمير والبغال، وتفتتح بوابات الاحواش فى اطراف المدينة تفتح الابواب السبعة للمدينة بمصارعيها الضخمة .

ما يزال الظلام على الارض، غير ان الشمس لم تبرز من وراء الساتر الجبلى بعد، تضىء باشعتها قبة السماء، ومن على منحدرات الابار تبدو ملامح الجمال البغال والاثوار المنهكة، تجر الحبال ، ويتنامى صرير حرير القرب الدواره فى صوتية شديدة تملأ المدينة بصرير لا يهدأ ، تفتتح الحوانيت فى السوق الذى يحتل نصف المدينة تقريبا، يظهر الباعة المتجولون وباعة الخضار والفواكه، وتخرج ارتال الحمير المستعجلة، والبغال الهادئة والجمال الواجمة بغباء من بوابات حظائر القوافل الكبيرة واماكن المبيت الصغير ، تتوجه الجموع الصاخبة من المسافرين من مختلف الاجناس الى بوابات المدينة، اينما توزع القوافل الى مختلف الجهات، الى البحر والى اعماق البلاد، يسوق الجزائريون قطع الماعز الى خارج اسوار المدينة، وعلى ساحة قريبة من باب اليمن (اكبر ابواب صنعاء) يبدأ الجزائريون بالذبح ثم يسلخون الجثة المعلقة على حامل ذى ثلاثة قوائم، ويبدأ السوق بالفليان : تمتلئ الحوانيت، المقاهى، الورش، المطاعم، الشوارع والازقة جميعها بسيل من البشر، عازفا فى جوقة من الاصوات المتنافرة، فى حوار وثغاء الحيوانات، تحت ضربات المطارق، وصرير المناشر والمثاقب فى الورش الدحاجة، يصقل الحرفيون ويصنعون من الفضة مجامر النرجيلة، ويطلون اعمام الخناجر بقشرة ذهبية يزخرفونها ويشحنون نصالها، فى اقبية رطبه مظلمة تحت مباني عالية، تدور الجمال المعصوبة العيون حول رحى معصرة الزيت من السمسم، ويلعب الفتيان على الاوتار القليلة للمنازل البسيطة فى ورشات النسيج؛ يرتفع دخان مصنع السلاح الصغير وراء عرضى الجيش المعزول عن المدينة، يصل مدرب الطيران الالماني راكبا البغل الى المطار الواقع خارج المدينة، يراقب

المحرك ويبدأ بتوبيخ تلاميذه العرب على كسلهم وعدم الاهتمام وسرقة البتزين، هؤلاء التلاميذ لا يفهمون كلمة واحدة باللغة الالمانية، ومع ذلك يستمعون باهتمام يعيدون بتأثر " آخ " " زو " فى ساحة الضاحية، وتظهر الكتائب العسكرية المارة، تجر اسلحة البطاريات، يتمخطر الفرسان على طول سور المدينة.

وبجانب قصر الامام، على ابواب منزل القاضى راغب، وقرب الدوائر الاخرى تظهر جماعات الزوار المساكين والقادمون من اقصى اطراف البلاد احيانا، تصخب الحياة غير عابئة بقرص الشمس الملهب وموجات الغبار العكر .

تقبل الظهيرة وقت الغذاء - يخفف صخب المدينة شيئاً فشيئاً، ساعة اخرى، ويأتى وقت القات وكان " اكلوك قات " (ساعات القات)، كما سماه احد الاجانب الخبثاء، تهمد التجارة فى ساعات القات، وكل السكان الرجال من الصبى الى العجوز الهرم، من الفقراء الذين لا يملكون ولو قرش الى ابناء الامام وشيخ الاسلام يمضغون القات حتى يقعون فى خدر سعيد، يبدو انه حتى ولو ظهر العدو فى هذه الساعة تحت اسوار المدينة، فلما بصق حينها الحارس المناوب على البرج بالاوراق الخضراء.

وبعد ساعتين او ثلاث من " اكلوك قات " تبدأ المدينة تعيش حياتها كما كانت فى الصباح، وان كانت بوتائر ضعيفة خافتة، تندفع فى بوابات المدينة ارتال القوافل المحملة، التى تنقل بضائع ما وراء البحار من الموانىء ورزم الخامات النباتية، الصوف والجلود، تنقطع تمرينات الجنود فى ساحة المدينة، وبعد ان يقوم الامام بنزهة خارج المدينة على عربة خيل فاخرة واسعة، يرافقه عشرون او ثلاثين فارس من حاشيته، ثم يعود الى القصر، يواصل الفلاحون فى حقول الضواحي ذرى الدخن والذره، يفلحون الارض بمحراث يجره جمل، الاشغال الزراعية المختلفة لا توزع هنا طبقا للمواسم ، فالطقس المعتدل طول السنة تقريبا يحى الفوراق بين مواسم الفلاحة والبذر والحصاد، تنحدر الشمس الى الغروب، ومن جديد يؤذن المؤذن من على المنارة المظلمة مشيراً الى انتهاء يوم العمل.

يتفرق الجميع الى منازلهم، يخيم الهدوء الذى لا يخرقه سوى نباح الكلاب البعيد، او الحان الفرق الموسيقية العسكرية المتنافرة، تفرغ الشوارع والأزقة، ولا يشق ظلمتها الفاغرة سوى ضوء مصباح يدوى نادر يتسرج به ماشى متأخر، تنطفىء الاضواء فى البيوت، وراء جدار القصر المكى فقط تلمع مصابيح محطة كهربائية صغيرة طوال الليل، تضىء القصر، ودار سك النقود، المطبعة ومقر التجراف، ابواب المدينة السبعة كلها موصدة ولا يوجد سوى الحراس

الذين ينامون فى الابراج يراقبون ملامح الطرق التى تكاد تلتحظ بالكاد تلك الطرق المؤدية الى عدن المعادية، والى الحديدية الحارة، ومأرب الغامضة المرتابة عاصمة مملكة سبأ البعيدة المنزل حتى الان، يشعر المرء تحت ستار الليل كيف تنمو وتتعزيز القوة الجديدة، التى استيقظت من نوم الف سنة، تشق الطريق الواسع لوجودها الوطنى المستقل، الذى يغلى بالعمل الخلاق والجماعى (مستقبلا)، يتهيا للمرء كما لو ان الاسوار الطينية للمدينة والبيوت ذات النمط الموريتانى تنهار كانهض تاريخية لا داعى لها، وكما لو انه تنفت مداخل المعامل دكانها فى السهل خارج المدينة، وتتدفع خامات ثروات البلاد المجهولة الان على خط سكك الحديد من كل الجهات، وعبر بلعوم بوابات المصانع التى لا تشبع، وتبقى اسماء " البوابات التى تم ازلتها فى بعض الساحات .

وتأثر العوالم الأخرى

وجبل نغم الثابت الى الابد، كل هذا سيذكر بالماضى فقط ، الماضى الغابر، حين كان يهدد صنعاء النير الاستعماري، حيث ساد الاضطهاد الاقطاعى والجمود البدائى، فى عام ١٣٤٧ هـ ، ١٩٢٨ ميلادية، والعام الثانى عشر من العهد الاشتراكى يصل الى صنعاء اناس من ذلك البلد المكون من أربع كلمات لا سعة هى اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية .

الوتائر، الوتائر... وتأثرنا البلشفية ... ايمكن الحلم بها يا ترى هنا، فى هذا البلد المنتعش، لكنه مع ذلك نصف نائم، هرم، مليئ ببقايا القدم وركام الانقراض ؟ القصور، الاحواض، النافورات، التماثيل - البشر انصاف العراة الذين يلبسون الاسمال، وسكان المنازل التى كانت فاخرة فى يوم ما ، وكأنها روما القديمة العهد، المشبعة بالثقافة التى قد شاخت وهرمت وذبلت، ها قد اتت شعوب جديدة وناس جدد احتلوا مملكة الحمريين القدماء، واغتصبوها، انجبوا جنسا جديدا، لكنه ليس من جنس البرابرة والقوطيين والهرنيين، ان هذا الجنس الجديد لم يدمر القلاع والقصور القديمة، وانما سكانها، واصبحت المباني الفاخرة مأوى لأناس عراة، جياع، انصاف متوحشين .

خمل هؤلاء البشر على انقراض الثقافة القديمة مئات بل وآلاف السنين ... لم يبق من ذكر الحمريين القدماء سوى نقوش تنمحي على الصخور، أو تماثيل النساء الحجرية باجفان عابسة وقبضات مضمومة باحكام .

تعرض القادمون الجدد لفتوحات جديدة، ونما شعب جديد، خليط من الاشوريين، والفرس، والساميين، والاحباش، والمصريين، بل وربما من القبائل القوقازية، ثم تبلور هذا الخليط ونضجت اليمن جامدة تم صياغتها على شكل القرون الاولى للعصر الاسلامى .

انتقل التاريخ الى الشمال، الى هناك تحت اسوار فيينا، والقسطنطينية، الى موانئ جنوى، وانفرس وامستردام، والى ورش منشستر، وبرمنجهام، وشيفلد، وتخرجت نهر الراين، والالب ، واوديرا، والى شوارع باريس، وبولتافا، وليزج، وبرودين، ووترلو، بدأ يتشكل عالم الراسمالية الجديد، وتلاشت الحواجز القديمة، واقيمت حواجز وحدود وتخوم جديدة، وشمل البخار، والكهرباء، والراديو، والاسهم، والفوائد كل العالم .

اما هنا فى الزاوية المعزولة والمنسية والعصية من شبه جزيرة العرب، فى البلد الذى ساد فيه الجحيم حسب تصورات الجغرافيين القدماء، والذى كانت بوابته البحر الأحمر، هنا هجع ملايين البشر كموميات محنطة، فى حالة سبات عميق لعشرات القرون، يتوارون بين سلاسل الجبال، تحيط بهم صحراء شاسعة، ويحتمون بستار كثيف من اشعة الشمس العمودية، تابع سلالة الحمريين القدماء ركوبهم على البغال والحمير، يعضفون القات يرتشقون الماء بايديهم، يشربون قهوة قشر البن، يحافظون على الصلاة ليحرس الله البلد ثابتا لا يتغير، كى ينعم الشيوخ بنومهم المطمئن على السجاجيد الفارسية، وكى يحنى العبيد والفلاحون ظهورهم من الشروق حتى غروب الشمس فى مدرجات البن ومزارع الدخن والذرة .

قلبت حرب السلاطين العثمانيين العش العطن، ووصلت قعقعة السلاح من تاريا وفيستول والدردينيل، وموجة الشرق التحررية، بالشحنة التى دفعتها ثورة اكتوبر - كل هذا ايقظ غريزة البقاء، والارادة فى الحياة والازهار .

فرخت الشجرة القديمة عسالج فتية، وطمحت الى الاستقلال والتصنيع وضمانته، وظهر اليانكى فى مملكة الملك ارتور من كونيكتكوتا على هيئة اطباء ومهندسين ايطاليين، وطيارين المان، وضباط اترك، وهم الان " التجار الحمر " السوفييت، والناس الذين لم يشاهدوا البحر قعدوا فى غرفة قيادة طائرة " يونكرس " وراء قيادة السيارة، ان النزوع الى الجديد ما زال يظهر بشكل طفولى غير حازم فى الغالب، يملأهم التهيّب والتوجس، من الخطأ والارتباك، غير ان الرياح تهب طريه، وتتألف مع اصدااء العاصفة الثورية فى الشمال البعيد، تزكى تلك الشعلة، التى بدأت تنطلق شرارتها من تحت رماد الانقراض القديمة ومن تحت رمادركام القرون .

لكن الوتائر، الوتائر ...كم من الصعب هنا ان تشعر بنفسك فى تبعية كاملة لوتائر اخرى،

ومحيط آخر، تشعر بان كل حركاتك قد اصبحت اكثر ثقلا وبطأ، وكان رجلك قد امتلأتا بالرصاص، من الصعب ان تحسب وتمعن التفكير فى كل تغير، كل اشارة وكل خطوة، كأنها قد وقعت فى كوكب اخر ، محكومة بقوانين جاذبيه اخرى .

طريق العودة

الى الطريق ؟ وليكن الانفراج حتى ولو فى الطريق، ولو بالحركة - تحت ذريعة وصول السريع فى رفع الوتيرة التى يمكن الحلم بها حين نجلس جلوسا بطيئا مضجرا على سقف الشرفة المستوى

السيارة، البغل، الممرات المختصرة، المبيت القصير حيثما اتفق فى اقل الاماكن ملائمة، تعبر جزء من الطريق سبراً على الاقدام (لكى لا تنهك البغال)، تقطع الطريق مباشرة بدلا من المنحنيات المتعرجة، صعودا، وهبوط ، ها نحن نرى بوعن، سوق الخميس، مفحق، مخافة، مجيلة، قطعنا الطريق فى سبع ليلى سابقا، وها هى تنخفض الان الى ليلتين تحت ضغط الضرورة والارادة فى الاسراع تستقبلنا السيارة قرب نحيل وقد ارسلت لا ستقبالنا من الحديد، بضعة ساعات عبر قيظ وغبار تهامة، وفى اليوم الثالث من السفر نرى حيطان الحديد البيضاء مرة اخرى وطرطشة الامواج الفوسفورية الهادية.

نستلم برقية من صنعاء مع التهنة بمناسبة قطعنا للطريق بشكل قياسى، لكن وا أسفاه فالسرعة القياسية لم تبرر نفسها : " توبولسك " غير موجودة فى الميناء انها تضطرب فى صراع غير متكافىء مع الرياح الموسميه بين امواج المحيط الهندى، على بعد مائة ميل .

عشرة ايام من التسكع والحر الخانق فى الحديد، معمل البن التجارى الذى يملكه الشيخ عمر المزجاجى حيث يقوم عشرات العمال ومئات العاملات بقشر البن من القشارة، ويفرزونه فى المناخل، ينثرونه فى اكياس من القش، لتهيئة نقله الى مختلف انحاء العالم البعيد، والى اوديسا السوفيتية لأول مرة فى تاريخ اليمن، تصل مجموعة من الهنود من بقاع الهند النائية، تسير فى طريقها الى الجبال، انهم اتباع المذهب الاسماعيلى، الذين يزرون اخوانهم فى المذاهب كل عام فى منطقة قرب مناخه. وصل وفد ابن سعود الى صنعاء للمباحثات مع الامام، ياتى ابناء الجالية المحلية الايطالية فى الحديد لزيارتنا، يشكون من مكائد الانجليز، الذين لم يسمحوا بوصول الكروسين الايطالى الى جزر كمران وفرسان ، يصادرونه بغير حياء فى وضح النهار ،

ويتجاهلون مصالح الدول الاخرى، كما يشكى الايطاليون من بعضهم بعض، ويستعد ممثلو الشركات الراسمالية الايطالية المختلفة " المنظمة " لاكل بعضهم بعضا ، يتفسخون فى قيظ الحديد الشديدة، وعلى الساحل المقابل للبحر الاحمر فى عكيك سواحل مصوع وحتى فى جبال ارتيريا الباردة .

كل عقد التناقضات بين الامبرياليات الانجليزية والامريكية والايطالية وبين كل واحدة منها على حدة تجد ان انعكاساتها هنا ايضا، مثل شمس منعكسة فى قطرة صغيرة من الماء، فى هذه الزاوية الشديدة القيظ من البحر الاحمر .

وحى صحيفة الحائط

هنا فى الحديد، وعن طريق الصحف الالمانية الواصلة بالصدفة، نعلم عن النمو الكبير فى الاصوات التى حصل عليها الشيوعيون فى انتخابات الريخستاغ، كما نعلم ان بواخرنا الكاسحة للجليد (بعثة نابليون) (*) تنفذ مهامها فى الجليد القطبى البعيد، يتحدث عن ذلك طبيب ايطالى بصوت منخفض، وبتعبير حذر عن الامتتان، بينما نحن نغيظ بحارة " كراسين " و " مالىجين " على الجليد الذى يحيط بهم، هذا الجليد المجهول فى شبه جزيرة العرب.

كان كل هذا بالنسبة لنا كأنها انباء من كوكب بعيد، حيث فقدنا الامل فى العودة اليه ، لقد مضى ما يقارب ثلاثة اشهر على رحيلنا من اوديسا، ولم نستلم ولا مرة واحدة اخبار من الوطن السوفييتى، اذا لم تحسب تلك البرقيات الرسمية، التى تخبرنا بان البرقيات التى ارسلناها غير مفهومة، نصمت ونطبق على الاسنان بشدة، نتظر " توبولسك " مرة اخرى يجب الصبر ايوب .

يشتد الحر، اغسطس - اكثر الشهور قيظ - يبدو قيظ البحر الاحمر فى شهر يونيو باردا خفيفا اذا ما قارناه بقيظ اغسطس، انتهى احتياطى الماء المعدنى ، نشرب الماء ذات الطعم المالح، نرتشفها بالايدي، ولذلك يبدو وكأنه مشبعا برائحة جثة (ها هى بقايا الخرافات القديمة) ! اذا كان النوم ثقيل فى صنعاء، فى جفاف الهواء الجبلى، الذى لا يطاق، واذا كانت الماء المصبوبة فى الصحن مساء تتبخر فى الصباح، وتتشنج الحنجرة بالم حاد نتيجة جفاف العروق، واذا كان هناك فى المرتفع الجبلى الحار، يخفق القلب بدون توقف، يبدأ الاحساس

(١) - بعثة مشهورة بقيادة نابليون النمساوي، مهمتها اكتشاف القطب المتجمد الشمالي سقط فيها

المنطاد الذى كان يقلهم، فانقذهم البحارة السوفييت .

بالأنهاك بعد ساعتين أو ثلاث ساعات من العمل وبعد نصف ساعة من السير، فاننا هنا فى الحديدة ننو تحت الرطوبة المحرقة، وانعدام الماء، فى الغبار، تحت زحف الذباب والالم الحاد لقرصات البعوض، لقد توفى احد الموظفين الايطاليين بعد ثلاث ايام من نوبات الملاريا الخبيثة، نشعر كيف يضعف ويستسلم الجسم، و "توبولسك" لا وجود لها ، تزحف الايام ببطء لا يطاق، تطول الليالى، وفى كل صباح ونوجه السؤال لانفسنا، متى فى الاخير ستأتى الباخرة ؟ نجيب على انفسنا بثبات : " انشاء الله بكره " ، وحين خدرت مشاعر الانتظار وخاب الامل (الم تبهر "توبولسك" دون ان تمر على الحديدة ؟) ، وفى صباح هادىء وخانق (ترن اجراس الجمال ، يصرخ الحاملون بعصبية على الرصيف) نرى الدخان البعيد وعلى افق يرتسم شبح الباخرة العزيزة علينا بلا حدود والعلم السوفييتى الاحمر يرفرف عند مؤخرة الباخرة ...

الرياح البحرية حادة وشديدة، يقترب الصنبوق من الباخرة البعيدة بتعرضات طويلة يبدل محله عدة مرات، مرة فى نهاية شمال المدينة ومرة اخرى فى طرفها الجنوبى، وبعد ساعة ونصف وبعد ان يجوب البحر كله ويتمزق شراعه فقط، يلتحم بجانب السفينه الحديدى وعلى الباخرة اولئك الناس أنفسهم، والقوارب نفسها، ونفس الياقات . " نطالب باطلاق سراح الرفيق بيلاكوف " (وبالمناسبة قد اطلق سراحه) ، لكنهم قد نحلوا، واصفرت وجوههم، وصدىء حديد الباخرة، وغطى جزؤها الاسفل تحت الماء بطبقة من الصدف، ادت الباخرة واجبها، فقد نقلت اول البضائع السوفييتية الى موانئ فارس الجنوبية، وشاهدت مدن بندر، يوشير، وموخامير العلم السوفييتى، وتواجدت الباخرة فى مصب شط العرب، فى البصرة، حاملة البضائع الى العراق المضطهد من قبل الامبريالية الانجليزية، وفى طريق العودة مضت الباخرة بمكانن منهكة، لقد تقاذفها الرياح الموسمية للمحيط الهندى اكثر من عشرة ايام ، انتهى احتياطى الفحم، ووصل طاقم الباخرة الى اقصى حدود الأنهاك ، فتقرر ترك المعركة اليائسة مع الاعصار الجبار، استسلم البحارة الكارثة الطبيعية والذهاب الى كراتشى، اقرب الموانئ الهندية والبقاء هناك ، ولكن الاراده الحديدية للبحارة واصرار القبطان - المرشح للحزب اخذ الغلبة، فشقت الباخرة طريقها عبر الاعاصير ، وتمكنت من الحصول على التموين من الفحم فى مسقط ، وفى سواحل شبه جزيرة العرب، واخيرا الان- الى الامام ! فاوديسا تجذبنا من بعيد .

يبتعد اليمن ، ويختفى فى الضباب الازرق المغبر فيما بعد ، ها هى الساعات والايام - تمر وكأننا فى بانورما ، تمر الباخرة على جزر بروستو، جزر الطيور ، جدة ، فنارات الصخور البحرية فى جزر يدال وجزيرة الاخوين ، والبانورما المصقولة لجبال سيناء .

استلقى على سرير شراعى اكل عليه الدهر وشرب فى شبه غيبوبة وبلا حراك ، تبدو حر ورطوبة البحر الاحمر باردة معتدلة بعد ايام الانتظار العصبية المتعبة فى الحديد الخائقة ، تقع تحت سلطة الباخرة بالكامل ، من الممكن ان لا نفكر فى شىء ، ربما لا تتمالك نفسك، يمكن ان ترمى جانبا ذلك المشد الحديدي من عدم ضبط النفس والتوتر، الذى نتخيله فى الوضع المجهول والمرعب فى البلدان الغربية ، حيث يفترض ان يكن مستعداً لكل شىء وبكامل الاسلحة باستمرار .

شريط الاحداث يعود الكرى ، نمر عبر فتحة قنال السويس، نشق طريقنا الى شواطىء رودوس ضد اتجاه الريح الشمالية الشرقية، وقهر الرياح مباشرة لم يكن بمقدور المكائن المضغضه لباخرتنا، نناور ونمسك بالايدي تقريبا بكل منعطف للصخور الساحلية ، نبحث عن ملجأ من الرياح المجنونة، التى تمنعنا من الوصول الى الوطن، باندهاش نشعر ان البحر غير موجود، يهب نسيم بارد عليل، نتسلل نتفرج فى متاهة الاماكن الضحلة، والجزر الصغيرة المتناثرة، نلتصق بشواطىء الاناضول، يغير القبطان خط السير، كى نتخلص من غضب الرياح، نتفحص درجات مقياس الحرارة، وترتفع درجات العرض، وتختفى اليمن فى العمق البعيد الذى لا يرى، يقفز امامنا مدخل الدردنيل كفوهة مدفع هائل .

" رائحة الوطن " فى اسطنبول

تتنفس الباخرة حياة سوفيتية كاملة ، تنتعش الخلايا الحزبية ومجلس الباخرة من جديد، بعد ضغط الشهور الاستوائية، يلتقط عامل اللاسلكى اشارات نداء اوديسا من جديد وينشر انباء اذاعة موسكو، تناقش الخلية اساليب النضال ضد التهرب فى اوساط البحارة، يقوم الداعيه (" الكاهن السوفيتى " حسبما يطلق عليه البعض ذلك بخبث) يموميا " يقرأ القداس " (نعت ساخر ايضا) يثبت امام مجموعة من المستمعين فائدة نظام التوفير والنقد الذاتى ، ويصيح مقولات ما ، خمسة من الحجاج الاستراخانيين العائدين (فى الطريق من جدة ، كان عددهم ثمانية مات ثلاثة منهم فى رمال الحجاز) يتذكرون بكآبة وخيبة امل المرات الشائكة فى صحارى شبه جزيرة العرب، والركض حفاة فى المواقد المنصهرة بمكة وتحت نفحات الريح الباردة سككت مكتئبة عشرات القروء الصغيرة، التى اشتراها البحارة فى الموانئ العربية، هذه

الكائنات الصغيرة هي الشيء الوحيد الذى يمكن استيراده بغض النظر عن التحريم الجمرى، انصاف الاوادم القزمية هذه، التى اطلق عليها جملة من الأسماء البشرية، مثل باشكى، مارقوتكى، جيک، تلتصق ببعضها البعض فى وسط غريب جديد وقعت فيه، قرد واحد من القردة فقط اسمه جيک انه قرد زنجبارى متوحش، يختلف بحدة عن انصاف الاوادم اللطاف، يجلس غاضبا دائما وحذر ومكشر لا يقترب من البشر، يتطلع بحنين الى تلك السواحل القريبة جدا والبعيدة المنال، للباخرة التى ترحف ضد التيار ببطء والتى انهكها الزمن والامواج .

والجريدة الحائطية توزع المكافأة :

" الهدايا من الرحلة الفارسية "

" يمنح الاسطول التجارى رحلة مجانية الى فارس على الباخرة " توبولسك " (وهذا كما هو واضح هو اسوأ عقاب تمكن البحارة المحتدمون غيظا التفكير به) .

يمنح بينكوف (الداعية) خمس سنوات من العزلة الشديدة فى مدينة كيسلوفودسك وينسين لانه حمل الفحم (لقد انهك هذا الشاب الذى قام بدور " الكاهن السوفيتى " وقدم مثالا يحتذى به ليس بالكلام فقط ، بل وبالفعل ايضا، لقد قام بحمل الفحم شخصا فى اللحظات الصعبة) . يمنح وقاد والآلات البخارية عشرة طن من فحم مسقط ، وثمانين صندوقا من المكرونة من موسلينى مكافأة على الاضراب عن الفحم الايطالى (حيث لم يكن الفحم الذى تم شراؤه من السفن الحربية الانجليزية صالحا لآلات باخرتنا التى كانت تعمل بالكاد) .

" يمنح طاقم الآلات سميدا من الحنطة السوداء لمقاومة الاغماء " (لقد كانت حالات الاغماء كثيرة، وتلافىها امر غير ممكن فى ظل تفاهة التجهيزات) .

رصيف اسطنبول، ها هى رائحة الوطن - على هيئة المكاتب السوفيتية - ليست لذيدة وطنية دائما ! يتعس فرع الاسطول التجارى السوفيتى هادئا تحت ضجيج شوارع اسطنبول ، على الرغم من انه اشعر بقنوط " توبولسك " ولكن موظفى الفرع لم يتفرغوا لتحضير الفحم والمؤنة مسبقا وبذلك يقللون من فترة وقوف الباخرة .

يقرر قبطان الباخرة كادييتسكى مهتاجا عدم انتظار المؤنة لسبب تأخرها ، ليكن فى هذه المجاعة الاستعراضية تعبيرا عن الاحتجاج ضد البيروقراطيين السوفييت المتهاونين فى الخارج ، يامر برفع المرساة تحت تذاثر الطاقم المنهك من الجراية الشحيحة (صحن من الشوربه وقطعة صغيرة من اللحم الملب فى اليوم) الى الامام، الى اخر مرحلة من السفن ينتبه

البيروقراطيون بعد ان يروا الباخرة تبتعد، يقومون بحمل المؤنة المطلوبة على سيارة الى بيوك دير، حيث يفترض ان تتوقف باخرتنا قبل خروجها من البسفور، وفترة التوقف عشر أو خمس عشرة دقيقة وما نحن فى البحر الاسود المفتوح .

الاصوات الاولى لصيرير تروس الآلة التى لم تدهن تخرق ادمغتنا بتنافر، وان كانت لا تستطيع ان تحجب عظمة ومغزى تلك العمليات، التى جرت امام اعيننا وبمشاركتنا فى سير تلك الرحلة المؤله عبر الرياح الضبابية، والشعاب ، والقيظ، وانعدام الماء، والاعاصير، والجوع، والامراض عبر تعنت الشركه ووخزات الأعداء عبر غباء وتمقول اصحابنا .

" بعد استخلاص نتائج رحلتنا، يجب الإشارة الى الكثير جدا .

- بصرف النظر عن عدم ملائمة باخرتنا لهذه الرحلة ، وسوء نوعية الفحم ، ودرجة الحرارة العالية ومختلف انواع الحرمان الأخرى، التى عانى منها طاقم الرحلة، بصرف النظر عن كل ذلك، فقد اظهر الطاقم نفسه كما يليق ببروليتارى سوفيتى واع ، اظهر الطاقم رباطة جأش كبيرة، مدافعا عن هذه القطعة الصغيرة من الدولة السوفيتية، غير آبه بآية صعوبات، فتحنا نافذة على الاسواق العربية والفارسية، ونشرنا علمنا الاحمر بكل اتساعه امام عمال فارس والدول العربية، واجبرنا البرجوازية على الارتجاف، والتى لم تكن تنتظر قدومنا، والان وعند انتهاء هذه الرحلة العسيرة، يجب ان نعبر عن تمنياتنا وامالنا بان تكون الرحلة الثانية اكثر سهولة وربح لدولتنا، لقد وضعنا الاساس، الذى سيبنى عليه صرح العلاقات التجارية والسياسية المتبادلة والصحيحة مع اليمن وفارس بغض النظر عن مكائد البرجوازية الاجنبية " هذه السطور المتواضعة، التى كتبها يد بروليتارية بسرعة، والمليئة بالخطاء الاملائية والانشائية، هى اقرب الى الحقيقة بما لا يقاس من كل اللغو المتفلسف من قبل بيروقراطيين التجارين، ونعيق اصحاب الاعمال فى الاسطول التجارى السوفيتى، اذكر كل التصريحات الساخرة، التحسرات التنبؤات المتأله مثل " لن نفلح فى شئ " او عسى الا يحصل شئ " وحتى " عسى ان لا يصيبكم مكروه " ، " لكن اى معنى لذلك " ... " اليمن - قبائل متوحشة " ، اذكر الصوت المتفاخر قليلا للقاضى راغب قائلا :

- لا ندرك بعد المغزى العظيم لهذه الايام بالكامل، التى وضع فيها بداية التقارب السوفيتى - اليمنى، نعلم ان الاتحاد السوفيتى عظيم جبار وعادل، وان المستقبل ليس لاعدائه، بينما اليمن صغيرة ويبدو انها ضعيفه، لكن اليمن هى الاخرى ستضع لبيتها فى صرح النضال العظيم للشعوب المضطهدة ضد مستعبديةها، اليمن معروفة وتنتظر اليها شعوب مصر والدول

العربية، ولها مؤيدون فى العراق، وفارس، والهند ... لاتغفلوا عن اليمن، فهى لم تلعب دورها بعد ، انا عجزت وهيئات ان اعيش حتى ذلك اليوم، حين يعطى التقارب الذى بدأت ثماره اليانعة، لكننى فخور بان الابناء والاحفاد سيرون، وسيفهمون ويثمنون اعمالى.. انشاء الله " – اقول فى دخيلتى، معطيا هذه الصيغة، المتعددة الجوانب معنى : " ليكون كذلك " .

" انشاء الله " سنتنصر على الامبرياليين، والاعاصير، والتقصير وحشرات الاجهزة الحكومية الضارة الحفيرة، وجبن قليلي الايمان المصدقين المنتفعين .

الفنار الاوديسى

وقتها، فان هذه الخيوط الدقيقة ، غير المرئية، التى امتدت آلاف الاميال من قمم جبال اليمن ذروة ابراج الكرمليين ومداخل مصانع موسكو ستتحول نتيجة لرحلتنا الى حبال فولاذية جبارة توحد كل العالم لتحرير العمل والابداع الجماعى، ان الفولاذ المسكوك لا يحمل آثار الصهر وسخام جدران المصانع ولن تصل شكوانا الى اناس المستقبل من العراقيل والحرمان والاختناق (لهذا فلنقلل من الشكاوى) ، بل ستصل تلك المشاهد القصيرة، المنفردة، التى مثل اغصان الطحلب تحت السطح الشفاف للاحبار الكريمة اليمنية، تصور نجاحات ومنجزات عصرنا، حيث يصاغ من مخلفات الماضى المتراكمة آلاف السنين مستقبل القرون القادمة سواء تحت اشعة شمس الجليد القطبى التى لا تغيب او تحت الاشعة العمودية لشمس تهامة .

وفى الافق يظهر فنار اوديسا ...

رقم الإيداع : ١٥٠٧ / ١٩٩٣

I. S. B. N. 977 - 208 - 102 - 4

لوحة الغلاف الأمامية والتصميم للفنان محمود الهندي ، اللوحة الخلفية بريشة بور نقاشيد

